SHAKER NABULSI

شاكر النابلسي

أسئلة الحمقى

في السياسة والإسلام السياسي

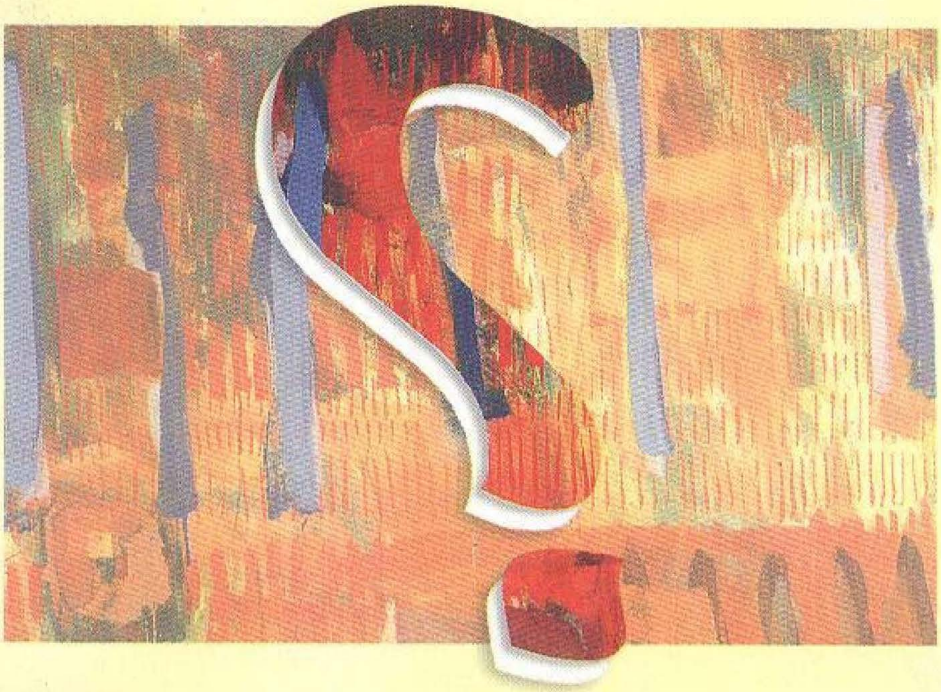

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

أسئلة الحمقى

في السياسة والإسلام السياسي

أسئلة الحمقى: في السياسة والإسلام السياسي/فكر سياسي
شاكر النابلسي / مؤلّف من الأردن
الطبعة الأولى ، 2005
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : 752308 / 751438
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : 9157 ، هاتف 5605432 ، هاتفاكس :5685501
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف:
فؤاد سليمان وهبي
الصفّ الضوئيّ والإشراف الفني :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
رشادبرس / بيروت – لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN 9953-36-708-6

شاكر النابلسي

أسئلة الحمقى
في السياسة والإسلام السياسي

الإهداء

إلى العقلاء فقط

المحتويات

المقدمة 9

في الحال العربي

لماذا أصبح الإرهاب خبز العرب؟ 13
هل يعيش العرب الآن في ظلام القرون الوسطى؟ 19
لماذا أصبح العرب عصيين على التطبيع؟ 27
هل صحيح أن العرب لا يُحسنون الاقتراع بقدر ما يُحسنون الاتباع؟ 35
ما هو وجه العرب الأمريكي القبيح؟ 39
ما هي مصلحة العرب من هزيمة الإرهاب في العراق؟ 47
لماذا العجب بعد أن فعلنا العُجاب؟ 54
لماذا أصبحنا لا نهتدي إلا بالعصا؟ 66
ماذا يحدث في عالم السحر والشعوذة والجان عند العرب؟ 69
من هم الليبراليون العرب الجدد، وما هو خطابهم؟ 85

في الإسلام السياسي

لماذا "دولة الرسول" و"الراشدين" لا تصلح لنا الآن؟ 97
لماذا نصرُّ على الديمقراطية لا الشورى، وما الفرق بينهما؟ 115
هل الخلافة الإسلامية ما زالت قائمة حتى الآن؟ 121
هل العرب مسلمون؟ 136
ما هو الالتباس التاريخي في إشكالية الإسلام والحرية؟ 144
هل كان الإخوان المسلمون عقبة كبيرة في طريق الديمقراطية العربية؟ 150
لماذا يسعى الإخوان المسلمون إلى تغيير الجلود والعهود؟ 157
لماذا نُكفِّر المطالبين بالغاء تفاسير القرآن؟ 167
هل حقاً أن القرضاوي داعية وسطي معتدل؟ 175
أسئلة الحمقى 199

المقدمة

* أسئلة الحمقى مجموعة من الأسئلة في السياسة والإسلام السياسة طرحناها على أنفسنا وطرحها علينا مجموعة من الأصدقاء في الإعلام العربي خلال العام 2004 وهو العام المليء بالأجنة والرعود والبروق والوعود العربية التي تحقق قسم منها، وأمطرت خيرا في العام 5002.

فعلى جبهتين عربيتين رئيسيتين هما الجبهة الفلسطينية والجبهة العراقية تحقق في بداية عام 2005 بعض ما كانت هاتان الجبهتان حبلى به.

فعلى الجبهة الفلسطينية تحققت الانتخابات الرئاسية الفلسطينية بنـزاهة وصدقية وشفافية كبيرة ووصل محمود عباس، باني الدولة الفلسطينية الجديدة إلى رأس هرم السلطة الفلسطينية، بعد أن كان معزولا ومنـزويا بعيدا عن القرار السياسي. وانفرجت الأزمة الفلسطينية وتلحلحت، وتحقق لقاء شارون-عباس من جديد في شرم الشيخ في بداية عام 5002، وأطلقت إسرائيل مجموعة كبيرة من الأسرى الفلسطينيين. وبدا بزوغ الفجر الفلسطيني واضحا، والخطوات نحو بناء الدولة الفلسطينية التي وعدت بها أمريكا تتسع أكثر فأكثر. خاصة بعد خطاب (حال الاتحاد)الذي أدلى به الرئيس بوش في الكونجرس، وتعهد فيه من جديد باقامة الدولة الفلسطينية ودعمها ماليا وسياسيا

وعلى الجبهة العراقية، تحدى العراقيون الموت والدمار والإرهاب وتقدموا شجعانا نحو صناديق الاقتراع وانتخبوا 572 من ممثليهم في المجلس الوطني العراقي الذي سيضع الدستور الدائم، ويجري انتخابات جديدة في ديسمبر 5002. وكانت الانتخابات العراقية هي المعجزة السياسية الكبيرة التي تحققت، وأعطت الشعب العراقي الأمل بالمستقبل.

(أسئلة الحمقى)هي أسئلة العقلاء في واقع الأمر، والإجابة عنها

هي للعقلاء فقط.
فالموازين في العالم العربي في السنوات الأخيرة، وخاصة بعد كارثة الحادي عشر من سبتمبر 1002، انقلبت رأسا على عقب، وأصبحت أسئلة العقلاء هي أسئلة الحمقى في رأي الجماعات السلفية الدينية والقومية. كما أصبح الآخر هو الكافر، وهو المعيق، وهو المسبب لكل كوارث الأمة. وتمت تبرئة الأمة من كل عيوبها، ومن كل جهالاتها، ومن كل غيابها عن المشاركة في بناء العالم في كل المجالات بالشعوذة وألاعيب السحرة.
أسئلة الحمقى في هذا الكتاب هي من بين أهم الأسئلة التي طرحها العرب على أنفسهم في زمن الزلازل السياسية التي اجتاحت العالم العربي في فترة السنوات الأربع الماضية. والإجابة عنها كانت تستدعي الصراحة والشجاعة والموضوعية، والتي نأمل أن تكون قد توافرت في هذا الكتاب، ولو في حدها الأدنى.
لا شك أن هذه الأسئلة هي أسئلة الواقع العربي، والحال العربي، والمصير العربي. والإجابة عليها هنا إجابة اجتهادية لا قطع فيها، وليست القول الفصل. وما هي إلا وسيلة لتشغيل ذهن القارئ، وانتشاله من رقاده الطويل، ودفعه إلى البحث عن إجابات أخرى خارج هذا الكتاب. ولو نجحنا في ذلك لكنا قد حققنا ما نطمح إليه، وهو تحفيز القارئ للبحث عن الحقيقة أيا كانت، وفي أي زمان ومكان، تحقيقا للعلم والعرفان.

شاكر النابلسي

شباط/فبراير 5002

في الحال العربي

لماذا أصبح الإرهاب خبز العرب؟

-1-

* العرب من أكثر شعوب الأرض حبا وأكلا وتقديسا وتبجيلا للرغيف. فلا تخلو مائدة عربية فقيرة أو غنية منه. والعرب يقسمون بالرغيف، ويقولون عن العمل وطلب الرزق (أكل العيش)، والعيش هو الخبز، والعيش من الحياة والإعاشة.. الخ. والعربي عندما يجد قطعه خبز في الشارع أو في الطريق يلتقطها ويبوسها ويضعها على جبينه تقديسا وإجلالا، ثم يضعها في شق جدار أو على حافة نافذة ليأتي الطير ويلتقطها.

فهل أصبح الإرهاب في الثلث الأخير من القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين هو خبز العرب على كل مائدة عربية قومية كانت أم دينية؟!

-2-

لو كان لدى العرب مرآة مجلوة ليروا فيها صورتهم اليوم، وامتلكوا الشجاعة الكافية للنظر في هذه المرآة لأصابهم الفزع والفجيعة، وانتابهم الهول لقبح صورة وجههم في هذه المرآة.

إنها صورة أننا أصبحنا أكثر أمم الأرض إرهابا وسفكا للدماء في العالم في هذا الزمان من التاريخ، الذي توصلت فيه الأمم إلى حل مشاكلها المختلفة بالحوار وباللجوء إلى الديبلوماسية، وعقد الندوات ومخاطبة عقل العالم ورأيه العام ومثقفيه وفكره بدلا من تهديده بسفك دمه إذا لم يستجب لهذا الطلب أو ذاك، آخذين بالاعتبار أن سائر مطالب الإرهابيين سواء الذين يرهبون العرب والمسلمين أو الذين يرهبون الغرب هي مطالب طفولية سخيفة، لا تمت إلى أرض الواقع بصلة، ولا يستطيع عاقل واحد

في الشرق أو في الغرب أن يأخذ بها أو يقيم لها أي اعتبار.
إنها صورة أننا أصبحنا أمة بلا عقل!

-3-

ما الذي حصل للعرب في مصر والجزائر والسعودية والعراق وفلسطين والمغرب واليمن وغيرها؟
ما الذي أفقد العرب عقلهم الذي قادوا به العالم في القرن العاشر الميلادي؟

لماذ جن جنون العرب على هذا النحو؟
أهو انقطاع الأمل من الإصلاح العام؟
أهو فقدان الأمل في فلاح العالم العربي؟
أهو نتيجة للفواراق الطبقية الهائلة بين من يملكون ومن لا يملكون؟
أهو نتيجة للفقر المدقع الذي يدفع كثيرا من العرب إلى التقاط طعامهم من براميل الزبالة؟
أهو نتيجة للفساد العام الذي يعم أنظمة الحكم، والتي لا تستجيب لأي إصلاح ولا تريد أي إصلاح يسبب سحب خيط واحد من السجادة الفاخرة التي ترقد عليها، لأنها مدعومة بأجهزة بوليسية قادرة على إحباط كل مطالبة بالإصلاح، الذي يعني حتما نهاية بعض الأنظمة القائمة؟
أهو سيطرة التعليم الديني الظلامي، الذي يحرض على محاربة الحداثة والديمقراطية والليبرالية الجديدة، ويهدر دماء دعاتها وروادها ومريديها؟
أهو تخلي النخب المثقفة عن دورها السياسي، مما أفسح المجال أمام رجال الدين من أصحاب العمائم البيضاء والخضراء والسوداء لقيادة العمل السياسي في العالم العربي، بحيث أصبحنا لا نفرق بين ما هو سياسي وما هو ديني، واختلط المدنس بالمقدس، وأصبحت المساجد ساحات

لمعارك سياسية مسلحة، وشاعت الفوضى، وأصبح في العالم العربي ألف دين ودين كلها تنتمي إلى الإسلام المسروق، والمغتصب، والمستعمل، والمستغل، والمشترى، والمباع، والمزور، والمأول، والمقول؟
أهو نتيجة لإحباط كبير ومخيف أصيبت به فئات كبيرة من الشعب العربي، ولم تجد خلاصها وذاتها وتحقيق وجودها إلا باشهار السلاح في جميع الوجوه الغربية والعربية والآسيوية والإفريقية والبوذية؟
أهو نتيجة لتزوير المثقفين للحقيقة، وعدم امتلاكهم الشجاعة لقولها وإبلاغها لطلابها؟
أهو نتيجة لانتشار الأمية الأبجدية والثقافية المخيف في العالم العربي، والتي تجعل السواد الأعظم لا يقرأ، ولا يعلم، ولا يفكر؟
أهو نتيجة لتراكمات الظلم السياسي والاجتماعي الذي عاني منه الشعب العربي طيلة أربعة عشر قرنا ماضية؟
أهو نتيجة لكثرة المقدسات والطواطم في الحياة العربية، بحيث أفقدت الأكثرية الإيمان بجدواها، فاخترعت هذه الأكثرية طوطمها ومعبودها الخاص الذي تمثل في الطوطم القومي كعبد الناصر وصدام حسين، وفي الطوطم الديني المزيف كابن لادن، ومقتدى الصدر، والزرقاوي، والحوثي وغيرهم كثير؟
أهو نتيجة لتوفر دخل هائل للجماعات الإرهابية من الزكوات والصدقات التي تتدفق كل يوم من المحسنين المسلمين من سائر أنحاء العالم؟
ففي تقرير صدر منذ مدة، يقول إن ثروة الشيخ القرضاوي، أحد فقهاء سفك الدماء في العالم العربي، تقدر بعشرات الملايين من الدولارات، وأنه خسر في (بنك التقوى)وحده مبلغ ثلاثة ملايين دولار نتيجة لإغلاقه بمساع أمريكية، وهذا هو سر حملة القرضاوي الضارية على أمريكا.

أهو نتيجة للأموال الطائلة التي يحصل عليها الإرهابيون نتيجة لزراعة الحشيش والأفيون على الحدود الأفغانية- الباكستانية؟
ففي تقرير للبنك الدولي أن أكثر من نصف اقتصاد افغانستان مرتبط بالمخدرات، وأن الدخل الإجمالي للفلاحين والمهربين داخل البلاد وصل إلى 23.2 مليار دولار في العام 2003 بينما كان الدخل 3.1 مليار دولار في عام 2002. وتشير التوقعات التي نشرها تيم ماكغريك (كيف تستفيد (القاعدة)من تجارة الإفيون، مجلة (تايم)، 2004/7/30) إلى أن حصاد الأفيون في أفغانستان وصل إلى 0063 طن، ويعد الإنتاج الأكبر منذ عام 1999 ويكفي لإنتاج هيروين تقدر قيمته التسويقية بـ63 مليار دولار.

-4-

لقد امحت من ذاكرة العرب كل آية، وكل حديث نبوي، وكل قول حكيم، وكل قول شاعر، وكل قول مثقف يحض على التفكير وإعمال العقل.
استسلم العرب للثقافة الدينية المزورة، وأصبحت خطب الجمعة الهائجة والبرامج الدينية والكتب الدينية والعمائم الدينية هي القول الفصل في العسل والبصل، وفي الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والتربية والثقافة.
استسلم العرب للإعلام الغوغائي المتشنج والمثير، وطفقوا يبحثون في نشرات الاخبار عن دماء تهدر، ورؤوس تقطع، وجثث تسحل، وجلود تسلخ، وبيوت تهدم. وكانت أجمل المناظر الخلابة في عيون العرب المقابر الجماعية العراقية.
كل من يفكر في العالم العربي ويستعمل عقله، منبوذ، ومسبوب، وملعون، ومن أولاد الأفاعي والعلقمي، ومن عملاء الاستعمار الأمريكي الجديد، ومن كتاب المارينـز، ومن عملاء الموساد، ومن جواسيس

المخابرات الأجنبية.
الإسلامويون الذين خطفوا الإسلام وسرقوه وزوره وأسقطوا آياته التي جاءت تنبىء بما حدث قبل أربعة عشر قرنا ويزيد على أحداث الوقت الحاضر، هم الذين يقودون الآن قطعان العرب إلى محرقة التاريخ الانساني والى لعنة هذا التاريخ، لا بالعقل، ولكن بالعواطف المتشنجة، وبآلام الجروح النرجسية، وبالوعود الغيبية، وبقلة الايمان النقي البسيط بالله.
نعم، لقد فقد العرب إيمانهم النقي بالله، وأصبحوا عبيد الطواطم الدينية الدموية وليسوا عبيد الـلـه. وعندما كانوا عبيد الـلـه كانوا يحكمون بالعقل ويحكمون، ويحتكمون اليه. واغتالوا العقل عندما أصبحوا عبيد الطواطم الدينية الدموية، فسهل على الطواطم الدينية سوقهم سوق الشياه إلى مذبحة الإرهاب، وبصكوك غيبية أشبه بصكوك غفران الكنيسة في القرون الوسطى.
ألم نقل لكم في المقال القادم (هل يعيش العرب الآن في ظلام القرون الوسطى؟) المنشور هنا، بأن حال العرب الآن تنبىء بأنهم يعيشون في القرون الوسطى، ولكن بطريقة اليكترونية!
أي أنهم يفكرون تفكير القرون الوسطى في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم، ولكن بأساليب اليكترونية حديثة، مستعملين في مأكلهم ومشربهم وتنقلهم أحدث ما توصل إليه العلم الغربي والتكنولوجيا الحديثة في شتى المجالات، ولكنهم في الوقت ذاته يفكرون تفكير القرون الوسطى، ويتصرفون في حياتهم وكأنهم ما زالوا يعيشون في القرون الوسطى. وهم كذلك ما زالوا عبيدا لفكر ومفكري القرون لوسطى.

-5-

ما هو الحل؟
هل يحتاج العالم العربي إلى ضربه ضربا موجعا بقنبلة نووية تفني

مليونا أو بعض المليون كما حصل لليابان في العام 1945، لكي يفيق من غفوته واستهباله وتماديه بحق الإنسانية والبشرية عموما، ويعود إلى عقله ورشده، كما عاد اليابانيون إلى عقلهم ورشدهم بعد أن تم ضربهم تلك الضربة العنيفة المهلكة؟

لقد كانت هذه الفكرة واردة بعد الحادي عشر من سبتمبر. لقد تم ضرب اليابان بقنبلة نووية مقابل 2600 جندي قتلوا في بيرل هاربر في 1941، بينما فقدت أمريكا في 2001/9/11 ثلاثة آلاف عقل اقتصادي هم جزء كبير ومهم من الماكينة الاقتصادية الأمريكية والعالمية، ومن العقل الاقتصادي الأمريكي والعالمي، وهي خسارة أفدح بكثير من خسارة بيرل هاربر.

إن الذي جعل هذه الفكرة مستهجنة وغير قابلة للتنفيذ أن القيم السياسية الإنسانية قد اختلفت وارتقت الآن، وهي تحول دون تكرار ما فعله الرئيس هاري ترومان في اليابان، رغم أن اليابان قد ضربت وكانت هناك قوة عظمى أخرى في العالم. أما الآن فلا قوة عظمى في العالم غير أمريكا.

ولكن هل تغير العرب، وهل تغيرت قيمهم السياسية الإنسانية تبعا لذلك، وعما كانت عليه في النصف الأول من القرن العشرين؟

للأسف لا، فلقد ازداد العرب حمقا ودموية وابتعادا عن العقل، وانحطت قيمهم السياسية الإنسانية، وأصبحوا يخاطبون العالم بالسيف والبلطة وبجيوش من الملثمين من قطاع الطرق واللصوص والقتلة.

فهل ينسى الغرب قيمه السياسية الإنسانية، ويواجه العرب بالسلاح نفسه الذي استعمله في 1945، وبالأسلوب نفسه، حماية للإنسان ومستقبله على هذه الأرض؟!

هل يعيش العرب الآن في ظلام القرون الوسطى؟!

-1-

* يطلق بعض النقاد والمفكرين على العصر العربي الحالي، بأنه عصر القرون الوسطى المظلمة.
فما هي الملامح السياسية والاجتماعية للقرون الوسطى المظلمة، وما هو وجه المقارنة بينها وبين العصر العربي الظلامي الحالي؟
وهل حقا يعيش العرب الآن في ظلام كظلام القرون الوسطى، رغم كل مظاهر المدنية العربية التي تتشبه بالمدنية الغربية - رغم احتجاج ومعارضة المؤسسات الدينية على ذلك - من حيث استخدام الطائرات والسيارات في المواصلات، ومن حيث المأكل والمشرب والمسكن، ومن حيث استخدامهم للانترنت وأجهزة الاتصال الحديثة، ومن حيث تعاملهم مع منجزات التكنولوجيا الغربية عموما؟
وهل يشفع للعرب استخدامهم لإنجازات التكنولوجيا الغربية في سائر مجالات حياتهم لكي نعتبرهم من أهل العصر الحديث بكل منجزاته العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية؟
أم أن العرب أخذوا من الغرب فقط كل ما يمكن أن يستهلك ويستعمل من المأكول والملبوس وهو المحمود، وتركوا له العقل وحسن الإدارة والحرية والديمقراطية وهو المذموم؟

-2-

في السياسة كان الحاكم في القرون الوسطى هو الحاكم المطلق، صاحب الحق الإلهي، لا يحاسب ولا يعاقب. فلم نشهد في التاريخ العربي كله منذ ظهر الإسلام حتى اليوم وما قبل الإسلام، أن جرت محاكمة لحاكم عربي أساء استخدام السلطة، ونهب المال العام، واستبد،

وطغى، ما عدا الحاكم المطلق صدام حسين، ومحاكمته في العراق، بعد أن خرج العراق من ظلام القرون الوسطى إلى أنوار العصر الحديث، وخلع مسوح الاستبداد، ولبس لبوس الحرية. وهو ما أطار صواب الأنظمة العربية التي بدأت تحسب حسابا جديا للغد الآتي القريب. وتعتبر ما حصل في العراق هو ثعبان سياسي سوف يلدغ كل الأنظمة العربية المشابهة للنظام الذي سقط.

في تاريخ القرون الوسطى المظلمة - وهنا القرون الوسطى لا تعني التوسط الزمني ولكن تعني الوضع الثقافي والسياسي الظلامي السائد في أي عصر- قرأنا، أنه عندما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة قال المؤرخ السيوطي في (تاريخ الخلفاء 219، 246) أن يزيدا (أتى بأربعين شيخا شهدوا له أن ليس على الخلفاء حساب ولا عذاب)

وفي القرون الوسطى المظلمة الجديدة - أي في عصر العرب الحديث - سمعنا علانية، وعلى شاشة التلفزيون في 1976 الشيخ محمد متولي الشعرواي - وكان وزيرا للأوقاف - يقف في مجلس الشعب المصري مخاطبا الرئيس السادات بقوله:

(و الـلـه لو قدر لي أن أقول لك إنك لا تسأل عما تفعل، لقلتها لك).

وقرأنا في تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) (أن يزيد بن معاوية أباح المدينة المنورة في (واقعة الحرة)الشهيرة ثلاثة أيام، سرقت، ونهبت، واغتصبت فيها ألف عذراء، ومفاسد عظيمة ليس لها حد ولا وصف، بعد أن ضربها بالمنجنيق).

وفي القرون الوسطى المظلمة الجديدة - أي في عصر العرب الحديث - فعل صدام في الكويت وأهل الكويت في 1990، أشنع وأفظع مما فعله يزيد بن معاوية في المدينة المنورة، ورغم هذا لم يطالب أحد في العالم العربي من مشرقه إلى مغربه بعزله ومحاكمته.

ورغم قول السيوطي في (تاريخ الخلفاء 209) بأن بعض الخلفاء

من كان ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة، إلا أن ابن كثير يحذر باسم الدين الخروج والثورة على مثل هؤلاء الحكام، ويقول:
(إن الإمام الفاسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قول العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك إثارة الفتنة، ووقع الهرج، وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن).
وما ذلك الاحتجاج الكبير من قبل الأنظمة العربية والشوارع العربية والزواريب العربية على عزل صدام وسقوطه، وبكاء بعض النساء والرجال العرب عليه، والصدمة العنيفة التي اجتاحت العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه نتيجة محاكمته، واصرار (قناة الجزيرة)في استفتائها المطبوخ والمضحك على أن 84% من المستفتين يرون عدم شرعية محاكمة صدام، إلا نتيجة لمثل هذه التربية السياسية السيئة والعريقة المتأصلة في التراث السياسي العربي المظلم، وفي الضمير السياسي العربي الذي مات منذ قرون طويلة!
والعراق وحده الآن بما فعل منذ التاسع من نيسان 2003 إلى الآن وبمحاكمته لصدام الذي ظهر كراعي الأغنام، هو الذي قفز على الخطوط الحمراء والسوداء والخضراء، ونط على الحبال، واجتاز العوائق والسدود، وعبر الحدود من ظلام القرون الوسطى السياسي إلى أنوار العصر الحديث.

-3-

في الحالة الاجتماعية، لم يكن للمرأة العربية في القرون الوسطى المظلمة صوت، ولا خبر، ولا دور.
كانت ماكينة نشيطة للخلف والعلف فقط.
المرأة العربية الآن في أحط وضع يمكن للمرأة في العصر الحديث أن تصل إليه، كما قال لنا تقريرا الأمم المتحدة للتنمية البشرية لعامي 2002،

.2003

وعندما تبادر بعض الأنظمة العربية لإنصاف المرأة وإعطائها بعضا من حقوقها العامة، تتصدى المؤسسة الدينية لمثل هذه المبادرات، وتحول بينها وبين أية خطوة إلى الأمام.

ففي 2004/6/11 ألقى إمام الحرم المكي الشيخ سعود الشريم خطبة الجمعة، قال فيها تعليقا على الحوار الوطني الذي دار في السعودية لإعطاء المرأة جزءا من حقوقها العامة:

(أصبحت قضية المرأة الشغل الشاغل للكثيرين والحديث الأول، في الوقت الذي تشهد فيه الأمة صنوفا من الظلم والقهر والبطالة والفقر والانحراف والتضليل، وتسلط الأعداء من الداخل والخارج، ولا نجد لها أطروحات في الواقع المرئي والمسموع والمقروء. إن فتن العصر سببها المرأة. وإن المرأة لا مقدرة لها على المناصب المتقدمة في مجتمعنا).

ولكن ما بال الدول الإسلامية غير العربية كتركيا وأندونيسيا والباكستان وبنغلادش تنصب المرأة في أعلى المناصب كرئيسة للوزراء، فهل لأن هذه الدول الإسلامية قد خرجت من ظلام القرون الوسطى إلى أنوار العصر الحديث، فيما بقي العرب في ظلامهم وظلمتهم وهم إخوان لأولئك في الدين الواحد؟

هل يكفي أن تكون السيدة عائشة زوج الرسول، ودورها السياسي المعروف، سبب غضب أهل السنة وأهل الشيعة على المرأة العربية، واختلاق الأحاديث والأقاويل عنها، وأنها أكثر أهل النار؟

فمن المعروف أن علي بن أبي طالب لم يبايع أبا بكر مدة طويلة لخلافه مع ابنته عائشة، التي كانت على عداوة ضارية مع زوجته فاطمة ابنة الرسول. وأن عائشة ودورها السياسي في مقتل عثمان وفي الخلاف السياسي بين علي ومعاوية كان سببا رئيسيا في لعن المرأة العربية واحتقارها، بل واستعبادها انتقاما من عائشة.

فلا يوجد في سائر الحضارات، ولا في الأديان كافة، ولا في كل الثقافات، من احتقر المرأة كما احتقرها العرب - ولا نقول المسلمين - في القرون الوسطى المظلمة، وكما احتقروها الآن في القرون الوسطى المظلمة الجديدة.

لنقرأ في الموروث المقدس الذي يتحكم فينا، ونحكم الآن من خلاله، ونسير به حياتنا، حكم تراثنا (المجيد)على المرأة:

1- عن أسامة بن زيد قال الرسول : (قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها من المساكين وأصحاب الجد، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء).

2- وعن عمران بن حصين عن النبي قال: (اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت اكثر أهلها النساء).

3- وعن ابن عباس قال الرسول: (ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا بم يارسول الـلـه ؟ قال بكفرهن، قيل أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك ما تكره لقالت : ما رأيت منك خيرا قط).

وفى تفسير ذلك يقول القرطبي:

(انما كانت النساء أقل ساكني الجنة، لما يغلب عليهن من الهوى والميل إلى عاجل زينة الدنيا لنقصان عقولهن أن تنفذ بصائرهن إلى الآخرة فيضعفن عن الآخرة والتأهب لها. ولميلهن إلى الدنيا والتزين بها ولها، ثم مع ذلك من أقوى أسباب الدنيا التي تصرف الرجال لما لهم من الهوى والميل لهن).

4- ويقول علي بن أبي طالب الذي كان يكن للمرأة احتقارا كبيرا نتيجة لمواقف عائشة السياسية منه ومن عثمان بن عفان، ونتيجة لحرمان والد عائشة أبي بكر، زوجته فاطمة من ميراث أبيها الرسول، حيث قال

لها أبو بكر: (لقد سمعت رسول يقول: الأنبياء لا يورثون). يقول علي في النساء نتيجة لكل ذلك:
(أيها الناس لا تطيعوا للنساء أمرا، ولا تأمنوهن على مال، ولا تدعوهن بدون أمر، فإنهن إن تركن وما يردن أفسدن الملك وعصين المالك. وجدناهن لا دين لهن فى خلواتهن، ولا روع لهن عند شهواتهن. اللذة بهن يسيرة والحيرة بهن كثيرة. فأما صوالحهن ففاجرات، وأما طوالحهن فعاهرات، وأما المعصومات فهن المعدومات. فيهن ثلاث خصال من اليهود، يتظلمن وهن ظالمات، ويحلفن وهن كاذبات، ويتمنعن وهن راغبات).

-4-

هذا هو رأي وموقف السنة والشيعة في وضع المرأة العربية في القرون الوسطى المظلمة.
أما في القرون الوسطى المظلمة الجديدة، فلم يختلف الرأي في (أكثر أهل النار)، بل ربما أصبح الرأي أكثر تخلفا وأكثر جهلا، رغم غياب عائشة، وما سببته من مشاكل سياسية لا حصر لها.
ففي العام 9791 وقف الشيخ صلاح أبو إسماعيل في مجلس الشعب المصري، وهاجم قانون الأحوال الشخصية الذى كان يبيح بعض الحقوق للمرأة. وقال:
(إن النبي لم يعتبر كذب الزوج على الزوجة ليرضيها كذبا، ولا كذب الرجل فى الحرب، فالحرب خدعة).
ويقول حسن البنا فى كتابه (حديث الثلاثاء ص370) مؤكدا أن المرأة خلقت للعلف والخلف، كما كان حالها في العصور الوسطى المظلمة:
(إن مهمة المرأة زوجها وأولادها. أما ما يريد دعاة التفرنج وأصحاب الهوى من حقوق الانتخاب والاشتغال بالمحاماة، فنرد عليهم بأن الرجال

وهم أكمل عقلا من النساء، لم يحسنوا أداء هذا الحق، فكيف بالنساء وهن ناقصات عقل ودين).
وهناك أقوال ومواقف كثيرة لا حصر لها من المؤسسات الدينية المختلفة في العالم العربي القروسطي المظلم. وهي مواقف ليست مختلقة، ولا مغشوشه تراثيا، وإنما هي أصلية تراثيا مائة بالمائة. وهي صدى لإمام كبير من أئمة الإسلام كأبي حامد الغزالي، الذي لخص موقفه (العظيم)و(الحضاري)من المرأة بقوله في كتابه (إحياء علوم الدين، ص 80):
(ينبغي أن يسلك الرجال مع النساء سبيل الاقتصاد فى المخالفة والموافقة وتتبع الحق فى جميع ذلك، ليسلموا من شرهن، فإن كيدهن عظيم، وشرهن فاش، والغالب عليهن سوء الخلق، وركاكة العقل)
ويضيف الغزالي فى (ص109) من الكتاب السابق نفسه قائلا:
(للمرأة عشر عورات، فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة، فإذا ماتت ستر القبر العورات العشر).

-5-

ما هو الاختلاف الكبير إذن بين عرب القرون الوسطى المظلمة الآن، وبين عرب القرون الوسطى المظلمة في الماضي؟!
هناك اختلافات كثيرة مهمة:
1- ركوب السيارة والطائرة، بدلا من ركوب الجمال والبغال.
2- استعمال صواريخ سام وتومي هوك، بدلا من المنجنيق. واستعمال طائرات إف 16، بدلا من طير الأبابيل.
3- ارتداء الجينـز وأكل الهامبرجور وشرب الكولا، بدلا من لبس القفاطين وأكل الفالوذج وشرب منقوع التمر.
4- استعمال الانترنت بدلا من الحمام الزاجل.
5- مبايعة صدام حسين مجرم الكويت، بدلا من يزيد بن معاوية مجرم

الحجاز.
6-محاربة الأمريكيين والأوربيين ودعوتهم لدخول الإسلام بقوة الإرهاب. والدعوة لرفع الراية الإسلامية فوق قصر بكنجهام والبيت الأبيض، بدلا من غزو الفرس والبيزنطيين ورفع الراية الإسلامية فوق إيوان كسرى.
7- مبايعة بن لادن لخلافة المسلمين بدلا من عبد المجيد بن عبد العزيز آخر خلفاء بني عثمان المخلوع عام 1924.
8- قتل محمود طه وفرج فودة وحسين مروة وسليم اللوزي ورياض طه وكريم مروة وناجي العلي وشهدي عطيه وفرج اللـه الحلو وغيرهم، بدلا من الحلاج ومهيار الدمشقي وجعد بن درهم والسهروردي وابن المقفع وغيرهم.
9- تنصيب الشيخ القرضاوي إماما للفقهاء، كما كان أبو حامد الغزالي.
10- استقاء أخبار العالم من الفضائيات بدلا من الشعراء كجرير والفرزدق والمتنبي وغيرهم الذين كانوا لسان حال الدول.

لماذا أصبح العرب عصيين على التطبيع؟

-1-

* ما هو التطبيع Normalization؟

التطبيع في القاموس السياسي الحديث، هو قدرة الأمة على لثم جراحها المفتوحة والمتقيحة، نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، واعتراف بالواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي الجديد، ومحاولة استثمار أكثر ما فيه من إيجابيات، تستطيع من خلالها الأمة أن تعيد بناء نفسها وتنهض، لا أن تجلس السنوات الطويلة والعقود المتتابعة تبكي حالها وترش كل يوم الملح على هذه الجروح لكي تتسع بدل أن تندمل، وتتقيأ أكثر فأكثر بدلا من أن تلتئم.

التطبيع في القاموس السياسي الحديث، هو قدرة الأمة على ابتلاع النكبات، وتحويلها إلى دروس وعظات تحلل وتتأمل، وتتخذ منها العظات حتى لا تتكرر النكبات.

التطبيع في القاموس السياسي الحديث يعني الاعتراف الشجاع بالهزيمة، والاعتراف الشجاع بالجهل، والاعتراف الشجاع بالتخلف، والاعتراف بالحكم القبلي والعشائري، والاعتراف بسيطرة الايديولوجيا الدينية والقومية على صناعة القرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

التطبيع في القاموس السياسي الحديث، يعني أن نعترف بالحقيقة الواقعة على أرض الواقع مهما كانت هذه الحقيقة مرة وصعبة وكبيرة وقاتلة، وأن نبلع سكاكينها الحادة. فالاعتراف بالحقيقة لا يقتلنا، بل يبعث الأمل فينا لتجديد الحياة وصياغتها من جديد، تبعا للحقائق الماثلة أمامنا. في حين أن الذي يقتلنا ويدمرنا هو التجني على الحقيقة وتزويرها، وعدم الاعتراف بها، فحينها نكون نحن بأنفسنا غير حقيقيين في هذا

الوجود، ولا وجود لنا مع إنكارنا وجحودنا للحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة، والماثلة على أرض الواقع.
فهل نحن العرب، أصحاب القول الشهير المعروف: (الطبع غلب التطبع)ما زلنا عصيين مستعصين، لدينا المناعة الكاملة ضد التطبع والتطبيع، لأن طبعنا المتمثل بالانكماش، وعدم الانفتاح، والخوف من الآخر والجديد والقادم والغريب، وعبادتنا للأسلاف، وارتهاننا للماضي، وخضوعنا لأحكام الموتى، هو الذي أنشأنا على أن نكون عصيين مستعصين على التطبع والتطبيع، ولهذا فنحن فيما نحن فيه الآن من انحطاط، وهزائم، وخيبات، ونكسات وكوارث، وفقر، وجهل؟

-2-

لن نذهب في قراءة التاريخ بعيدا
سوف نقرأ التاريخ العربي الحديث قراءة سريعة، لنرى إلى أي حد ومدى كانت مناعة العرب ضد التطبع والتطبيع، وإلى أي مدى غلب طبع العرب على قابليتهم للتطبع والتطبيع.
عندما جاء نابليون في العام 1798 بحملته الفرنسية التنويرية إلى الشرق فاتحا مصر - بوابة العرب الكبرى آنذاك - أمام عصر التنوير الفرنسي والأوروبي بشكل عام، كان رد العرب على هذه الحملة هو الرفض، ورفض تطبيع ظلام الشرق بنور الغرب الجديد. فلم يقاوم العرب الحملة الفرنسية في جانبها العسكري والاستعماري فقط، ولكنهم قاوموا ورفضوا جانبها الثقافي والعلمي أيضا واعتبروا أن الجانب الثقافي والعلمي غزو ثقافي غربي استعماري يهدد الحضارة العربية والإسلامية. فقاوموا مطبعة نابليون، وهدموا الأبراج الفلكية التي نصبها نابليون، وحطموا المختبرات العلمية والمعامل الكيمائية التي بناها نابليون، وخطفوا العلماء الفرنسيين الذين أحضرهم نابليون لمسح مصر مسحا زراعيا وثقافيا

واقتصاديا تمثل في أكثر من عشرين جزءا فيما سمي بعد ذلك بمجلدات (وصف مصر). وهكذا ضاعت على الأمة العربية فرصة ذهبية للدخول في عصر الأنوار التي بدأت تنشر هداها وهدايتها في كل أنحاء أوروبا.

فتخيلوا لو أننا صبرنا قليلا وتمثلنا الحكمة والواقعية السياسية، كما تمثلها اليابانيون في 1945، ونظرنا إلى الإيجابيات وليس إلى السلبيات فقط لحملة نابليون، ماذا سيكون عليه حالنا الآن نحن العرب؟

ولكن طبعنا غلب.

طبعنا غلب في كراهية الآخر، وعداوة الآخر، واحتقار الآخر، وتكفير الآخر، إلى درجة أننا نردد الآن: أن ديكتاتورا عربيا مسلما ظالما، خير من ألف حاكم غربي عادل!

هذا الطبع هو الذي غلب قدرتنا على التطبع والتطبيع مع الآخرين.

-3-

في 14 مايو 1948 تم الاعلان عن قيام دولة إسرائيل، واعترفت بها دولتان عظميان في ذلك الوقت، هما أمريكا والاتحاد السوفياتي الذي اعترف بها قبل أمريكا. ثم تتابعت الاعترافات من معظم دول العالم ما عدا الدول العربية، التي كان لها الحق في ذلك الوقت ألا تعترف، حيث كان الجرح الدموي الفلسطيني ما زال كبيرا وعميقا، والدماء ما زالت حارة وفائرة. وقامت دولة إسرائيل على نمط الدول الأوروبية الديمقراطية (حزب يحكم، وحزب في المعارضة) وأجريت فيها عدة دورات انتخابية شعبية وديمقراطية، وأصبح لها برلمانها. وكنا نعجب نحن العرب بالحرية السياسية المتاحة للصحافيين والكتاب والسياسيين الاسرائيليين وهم على مرمى حجر منا، بينما يقتل في العالم العربي الصحافيون (كامل مروة، سليم اللوزي، رياض طه، ناجي العلي، وغيرهم) وبينما يقتل الكتاب

والمفكرون العرب (حسين مروة، مهدي عامل، سيد قطب، محمود طه، فرج فودة، شهدي عطية، وغيرهم) وبينما يقتل مئات السياسيين العرب في المهاجر والسجون والزنازين العربية، ويذابون في الأسيد (فرج اللـه الحلو) .

وتقدمت إسرائيل في اقتصادها وفي ثقافتها. وأصبح دخل الفرد الإسرائيلي في السنوات الأخيرة - حسب تقرير مجلة الايكونومست السنوي لعام 2004 - حوالي 17 ألف دولار سنويا، في حين أن دخل الفرد في أغنى دولة عربية نفطية لا يزيد على ثمانية آلاف دولار. وأصبح الدخل القومي الإسرائيلي في الفترة نفسها يساوي دخل مصر القومي وسوريا والأردن ولبنان والضفة الغربية مجتمعين. وتقدمت الصناعة الاسرائيلية والسياحة الاسرائيلية، وأصبح عدد السياح الذين يفدون إلى إسرائيل سنويا أكثر من عدد السياح الذين يفدون إلى سائر أنحاء العالم العربي (5 بالمائة فقط من سياح العالم)، وتطورت الزراعة، وتطورت الثقافة اليهودية. وأصبح عدد ما يترجم من الأعمال الأدبية والفنية اليهودية الاسرائيلية إلى اللغات الحية يفوق ما يترجم من أعمال العرب كلهم. وأصبحت هناك ثلاث جامعات اسرائيلية من بين أفضل خمسمائة جامعة في العالم كما ورد في تقرير عام 2004، في حين لا يوجد بينها أية جامعة عربية. وكل هذه الانجازات القائمة - سواء اعترفنا بها أم لم نعترف - لم نحاول أن نفتح أعيننا عليها، ونقرأها قراءة المستبصر، ونتأملها تأمل العاقل المفكر العميق، ونحاول الاستفادة منها، والاقتراب منها، وتقليدها. وشغلنا بالصراع العسكري، وبسباق التسلح مع إسرائيل الذي كان سباقا بين الجمال (الهجن) العربية وسيارات (الفيراري)الرياضية. بين الحداثة والقدامة. بين شعب قدم أفراده من أوروبا التنوير والصناعة والعلم والحرية والديمقراطية، وشعب ما زال أفراده يسكنون الصحراء الخالية المقفرة

الموحشة الظالمة. بين شعب ينادي الغد، وشعب يبكي على الأمس المتمثل بالأندلس، وبسقوط الخلافة الإسلامية عام 1924.

وبقينا نحن العرب سجناء أوهام الانتصارات العسكرية والحل العسكري، ورفضنا كل الحلول السياسية بدءا من تلك التي طرحها بورقيبة علنا بإقامة دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل في عام 1965 تمشيا مع شعاره المشهور (خذ وطالب)، واستنادا إلى قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة رقم 181. وتعرض بورقيبة لهجوم شديد من الأجهزة الإعلامية العربية الغوغائية - التي كانت تسيطر عليها الدهماء، كما تسيطر اليوم على الفضائيات العربية، ويهاجمون الليبراليين الجدد المنادين بالواقعية السياسية - وخاصة الفلسطينية والمصرية في 1965 التي اتهمته بخيانة الأمة العربية والتآمر على الشعب الفلسطيني وقضيته، مما جعل تونس تجمد عضويتها في جامعة الدول العربية، وانتهاء بتلك التي طرحها محمود عباس أول وآخر زعيم سياسي فلسطيني حقيقي وواقعي وحداثي، أجبره ياسر عرفات على الاستقالة من رئاسة الوزراء واعتزال الحياة السياسية الفلسطينية كذلك، ولكنه عاد ظافرا ورئيسا منتخبا للسلطة الفلسطينية وبانيا للدولة الفلسطينية الواقعية، بعد رحيل عرفات.

وهكذا، غلب طبعنا المتجذر فينا (كل شيء أو لا شيء، ولنا الصدر دون العالمين أو القبر)، قابليتنا للتطبع والتطبيع مع الحقائق السياسية القائمة على أرض الواقع السياسي، والتي كنا ندس رؤوسنا في رمال الصحراء العربية المحرقة حتى لا نراها ولا نعيها، ونخرج رؤوسنا بعد ذلك وقد انسلخت، ولم يبق منها إلا جماجم فارغة، تسكنها غربان كغربان العربان الأفغان الذين يقاتلون سطوع الشمس وشروقها الهائل الآن على أرض العراق بسيوف خشبية مهترئة، لا تصلح لكش الذباب، حيث تقرر للشمس العربية الحديثة أن تشرق من هناك أولا، بدلا من أن تشرق من مصر كما قرر نابليون في عام 1798.

لقد غلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع ليس تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي فقط، ولكن تجاه كل رياح التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في المنطقة.

فقد غلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع في الديمقراطية، وتمسكوا بتجربة سحرية خيالية مفتقدة في التاريخ العربي وغير موجودة، وهي (الشورى).

وغلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع في الحداثة ومحاربتهم لها، وتغليب القدامة على الحداثة المستوردة من الغرب (الكافر المستعمر)الخ.

وغلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع في إصلاح التعليم الديني الظلامي الداعي إلى الإرهاب، وأن (الجنة تحت ظلال السيوف)، وليست تحت ظلال العقول والأفكار والحوار.

وغلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع في الإصلاح من الخارج، رغم أنهم انتظروا الإصلاح من الداخل قرونا طويلة فلم يأت، ولن يأتي لأن لا بذور هناك تنبته. وعندما جاءهم من الخارج رفضوه، وأطلقوا عليه: (الاستعمار الجديد)و(ديمقراطية المارينز).

وغلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع في النظم الاقتصادية الغربية، وأطلقوا عليها نظما ربوية كافرة، وأقاموا شركات الاستثمار والمصارف الدينية بدلا منها، والتي سرقت الأموال الطائلة، وضحكت على عقول الجهلاء من الأغنياء والفقراء على السواء.

وغلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع في الواقع السياسي الأليم القائم ومحاولة التعايش معه. فياسر عرفات مثلا كان يحلم ويقوم بانشاء المليشيات بدلا من إنشاء الوزارات، والاستمرار بـ(الثورة)التي

أصبحت عورة، بدلا من إقامة الدولة، وباستنكار الحقائق السياسية القائمة على الأرض الفلسطينية، والاعتقاد بأن الاتحاد السوفياتي الصديق والرفيق ما زال هناك، وأن حائط برلين لم يسقط، وأن اسحق رابين لم يقتل، وأن كلينتون ما زال يحكم أمريكا. وكان حاله في ذلك وهو في سجنه في رام الـلـه كحال الجنود اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، الذين فروا إلى الجبال، وعاشوا في الكهوف سنوات طويلة، وكانوا يعتقدون بأن اليابان لم تستسلم في عام 1945، وأن الامبراطور ما زال هو الأمبراطور هيروهيتو العظيم.

وغلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع في حرية المرأة، وحرية عملها، وحرية علمها. وقالوا بأن حرية المرأة دعوة غربية يراد با (مومسة)المرأة العربية؛ أي تحويلها إلى مومس، ورددوا أقوال التراث في نساء العرب قبل 1400 سنة : {وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب}، و{وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}، و(لا يخلو رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان)، و(المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان)، و (إياكم والدخول على النساء)، وغيرها. وكأن التاريخ قد توقف وتجمد عند القرن السابع الميلادي، وكأن العرب ما زالوا حتى الآن يستغرقون يوما وليلة للوصول من مكة إلى المدينة على ظهور الجمال والبغال.

وغلب طبع العرب على قبول التطبع والتطبيع في كل أشكال النظم السياسية الغربية. فرفضوا الانتخابات من الشعوب وأخذوا بالبيعات من (أهل الحل والعقد) (العلماء والفقهاء من رجال الدين) فقط، ونادوا بذلك. وما زال أكبر حزب سياسي إسلاموي في العالم (جماعة الإخوان المسلمين) يأخذ بالبيعة لا بالانتخاب حتى هذه اللحظة، حيث ينتخب المرشد العام من قبل 51 فقط من (أهل الحل والعقد) في مكتب الارشاد بالقاهرة.

الشعوب التي تركت طبعها وطباعها القديمة والماضية، واستجابت لتحديات العصر الذي تعيش فيه وواجهتها بالعلم والعمل، ولم تهرب من هذه التحديات، ولم تدفن رؤوسها في رمال الصحراء المحرقة، وأخذت بالواقعية والاعتراف بالواقع تطبعا وتطبيعا هي الشعوب التي نهضت، واستوت، واستقامت، ونجحت، وحققت مكاسب وانجازات هائلة.

الشعوب التي تمسكت بطبعها، ورفضت التطبع والتطبيع هي الشعوب التي عاشت تحاصر نفسها قبل أن يحاصرها أعداؤها، والتي يأتي إليها التغيير كالطوفان الجارف المفاجيء، وليس كإشراق الشمس اليومي المنتظم العادي، فتصاب بالهول والذهول، وتتخبط في كيفية رد الفعل على هذا الطوفان (الحالة العراقية مثالا لا حصرا، والتي ما زالت مذهلة وغير مصدقة بالنسبة لكثيرين من العرب الذين ما زالوا يعتقدون بأن صدام ما زال يحكم العراق، أو أنه عائد لحكم العراق) .

الشعوب التي تخلت عن طبعها وأخذت بالتطبع والتطبيع مع الحقائق القائمة على أرض الواقع. هي الشعوب التي قامت من رماد الحريق الهائل الذي دمرها تدميرا، ولثمت جروحها النرجسية، وتقدمت أمم الأرض. ولنا من الشعب الياباني المثال الأكبر والأعظم، وما حصل لها في العام 1945 هو أكبر وأشنع وأفظع مما حصل للعرب عام 1948.

فكيف تعامل اليابانيون مع نكبتهم؟

وكيف تعامل العرب مع نكباتهم؟

وأين هم الآن، وأين نحن الآن؟

الفرق واحد فقط بيننا وبينهم، وهو:

أن طبعنا غلب قابليتنا للتطبع والتطبيع، وأن قابليتهم للتطبع والتطبيع غلبت طبعهم.

هل صحيح أن العرب لا يحسنون الاقتراع
بقدر ما يحسنون الاتباع؟

-1-

* ظل خطاب الديمقراطيـة في هذا العصر خطابا قلقا مقصورا على النقد السياسي الفردي الهامشي لأشكال باهتة ومختلفـة من الديمقراطيات المنقوصـة والمجـزوءة هنا وهناك، والتي جاءت بها بعض الأنظمة في فترات معينة من حكمها لأغراض تعني وتخدم نظام الحكـم نفسه، أكثر مما تعني وتلبي مطالب تيار الديمقراطيـة نفسه، الذي لم يكن من القوة والرقي الحضاري بحيث يستطيع فرض الديمقراطية كحتمية ومصير، لا المطالبة بها كمكرمة حسب التياسير، أو استجدائها من الأبواب العالية، حيث كان للعرب قبل العام 1918 باب عال واحد في الآستانة، فأصبح لهم الآن عشرون بابا عاليا

-2-

في النصف الثاني من القرن العشرين، ورث العرب من الاستعمار البريطاني والفرنسي مؤسسات سياسية تعد بداية للطـريق الديمقراطي المتكامل، كوضع مقدمات وبدايات ومسودات دساتير معظم البلاد العربيـة التي كانت خاضعة لهذين الاستعمارين. كما جاءت بريطانيا بفكرة الجامعـة العربية، ووضعت نظامها الأساسي، وشجعت على إنشائها كما شجعت العرب الآخرين على إقامة البرلمانات وإجراء الانتخابات النيابية. ولكن الاستعمارين البريطاني والفرنسي لم يدركا بأن الديمقراطية لا تأتي من فوق وإنما تأتي من تحت: من البيت والمدرسـة والمنشأة التجارية والصناعية والزراعية، قبل أن تأتي من الصالونات السياسية. وهي ما نطـلق عليه (استصلاح التربة وتهيئتها للنبت

الديمقراطي). وهو ما يسميه بعض المفكرين العرب بمشروع النهوض القومي. وهي عملية تاريخية طويلة الأجل، تتطلب جهدا كبيرا

كما غاب عن الذهن أن الديمقراطية العربية، بعد رحيل الاستعمار، ما كان يمكن لراياتها أن ترتفع في مجتمع جاهل ومتخلف وأمي، فيه من المحرومين من الخبز والعلم، الذين لا يحسنون الاقتراع، بقدر ما يحسنون الاتباع. وأن الديمقراطية في العالم العربي أصبحت للمقربين في الأرض، وليست للمعذبين في الأرض (إشارة إلى أن نقد الحكم والحاكم في العالم العربي ظل مقبولا ومقصورا على من هم من عظام الرقبة، فقط.)

وهذا يعني أن كل هذه البذور، التي بذرتها بريطانيا وفرنسا في العالم العربي، كانت في أرض غير صالحة للنبت الديمقراطي، وغير مهيأة ثقافيا وعلميا وتربويا لمثل هذا الزرع وهذا الطلع. فأصبحت الدساتير حبرا على ورق، والبرلمانات مهرجانات لتأييد الحكام وترشيحهم لولايات أبدية قبل أن يفكروا هم أنفسهم بترشيح أنفسهم. وتحولت مجالس الشعب إلى منابر لقول (النعمات)وإرسال التهنئات والتبريكات للباب العالي الجديد في المناسبات. وتحولت (الجامعة العربية)إلى ديوان لطحن الكلام وكتابة المذكرات وشرب القهوة المرة، دون أن يكون في مقدورها جمع زعيمين عربيين مختلفين على فنجان قهوة، عداك عن عقد مؤتمر قمة ناجح وفعال.

-3-

ظلت التربة العربية حتى نهاية القرن العشرين تربة مالحة سبخة غير صالحة للإنبات الديمقراطي أو للإنبات الوحدوي، وبحاجة شديدة وماسة إلى استصلاح قبل التفكير أو الشروع في إنبات ديمقراطي أو وحدوي جديد. ويتركز هذا الاستصلاح للتربة العربية في إحداث ثورة هائلة في التعليم، وفتح دون حدود لآفاق الثقافة، وتدفق غير محدود للمعلومات، وثورة هائلة في مناهج التعليم والتربية العصرية.

وفي تربة عربية مالحة وسبخة (التربة كثيرة المياه غير المنصرفة)، غير صالحة للزراعة الديمقراطيـة في النصف الثاني من القرن العشرين، كانت تنبت هنا وهناك أعشاب الديمقراطيـة البرية المتفرقة قصيرة العمر، قريبة الجذور. تأتي سريعا وتذهـب سريعا في مواسم سياسية معينة، كمواسم الفاكهـة التي لا تلبث أن تظهر حتى تختفي ثانية ولعل كل ذلك يعـود إلى عدة أسباب كثيرة منها:

1. أن نهايات القرن التاسع عشر وطوال النصف الأول من القرن العشرين.. تلك الفترة التي شهدت ما سمي بـ (عصر النهضة)، كانت فترة عني فيها الفكر العربي السياسي بالاستقلال أكثر من عنايته بتحقيق الديمقراطية. وكانت معارك الاستقلال ضـد الاستعمارين العثماني والأوروبي تمثل جل اهتمـام المثقفين والمفكرين السياسيين العرب في تلك الفترة. وكـانت مسألة تحقيق الديمقراطية وتطبيقها ورقة سياسية مؤجلة الدفع . إضافة إلى ذلك فإن القاموس السياسي العربي خـلال القرن التاسع عشر كاد أن يخلو من كلمة (الديمقراطية)، وكانت هناك مصطلحات بديلة كـ (الشورى)، و(أهل الحل والعقد)، و(العدل والإنصاف)، وخلاف ذلك كما أشار رفاعة الطهطاوي.

2. وبعد النصف من القرن العشرين وتسلم الفئات الوطنيـة زمام الحكم، أخذ الفكر العربي السياسي ينادي بالديمقراطية، ويفرد مساحـات واسعـة منه لهذه الورقة السياسية. ولكن هذه الورقة السياسيـة ما لبثت أن أصبحت مؤجلة الدفع إلى وقت غير مسمى بفضل الثورة المصرية، وبفضل نشوء الناصرية بعد العام 4591 التي نادت وحرصـت وأكـدت على تأجيل دفع الورقة الديمقراطية إلى أجل غير معلـوم، وتقديم أوراق سياسية أخرى مستحقة الدفع فورا كالاشتراكيـة، والوحدة، والتحرر الوطني. وأصبـح من يطالب

بتحقيق الديمقراطية في هذه الفترة، التي امتدت من العام 1954-1970، وكأنه يطعن في شرعية النظام السياسي، وينادي بعودة الاستعمار الذي نشأت الأحزاب السياسية في ظل وجوده، ونشأت صحافة المعارضة في فترة حكمه.

3. عجز المؤسسات الديمقراطية عن تمثيل المصالح الحقيقية للشعوب وتطلعات الأجيال المثقفة، وهيمنة السلطة التنفيذية على المؤسسات التشريعية وتدخلها في الانتخابات، وممارسة القمع والاضطهاد ضد المعارضة السياسية، وضعف الوعي الشعبي بسبب انتشار الأمية، ووجود طبقات ومراحل اقتصادية واجتماعية متفاوتة بين أقطار العالم العربي.

4. لقد كان الزخم الوطني والزخم القومي للحركة الناصرية، التي تبنت تأجيل الاستحقاق الديمقراطي إلى أجل غير مسمى، سببا في التزام كثير من جوانب الفكر السياسي العربي تحاشي التركيز على المطالبة بدفع الاستحقاق الديمقراطي. فكانت خطوة إلغاء المعاهدة المصرية البريطانية، وجلاء القوات البريطانية عن مصر، ثم تأميم قناة السويس في العام 1956 وما نتج عنه من حرب كحرب السويس، ثم قيام الوحدة المصرية - السورية في العام 1958، ثم قيام الثورة اليمنية واشتراك مصر الناصرية في الدفاع عنها، وأثناء ذلك دفاع مصر الناصرية عن الثورة الجزائرية وحمايتها للاستقلال الجزائري قبل العام 1962 وبعده، وتأييد مصر الناصرية لكل حركات التحرر الوطني في الوطن العربي والعالم الثالث في هذه الفترة، وكذلك دخول مصر حرب 1967 والتي كانت دفاعا عن القضية الفلسطينية في الدرجة الأولى وجزءا من التحرر الوطني العربي.. كل هذه الأحداث شغلت الفكر العربي السياسي وجعلته يغض الطرف عن المطالبة بالاستحقاق الديمقراطي في مصر، وفي خارج مصر من العالم العربي.

ما هو وجه العرب الأمريكي القبيح؟

-1-

* لكل أمة وجهان: وجه قبيح، ووجه حسن.
فالعرب كان لهم وجهان. وجه حسن يتمثل في قيم الكرم، والجود، والشهامة، والفروسية، والدفاع عن المظلوم.. الخ. وكان لهم وجه قبيح يتمثل في ظلمهم للمرأة، ودفن الأطفال أحياء خشية الفقر (لم يقتصر الوأد على الإناث فقط، وإنما شمل الذكور أيضا) وفرديتهم، وحبهم للتسلط، وكراهيتهم وعداوتهم للآخر، وعبادتهم للفرد الشيخ والقائد والرئيس والحاكم، وقيمهم السلفية القبلية المتمثلة بالثأر الدموي، وحرمان الأنثى من الميراث وحق اختيار الزوج .. الخ.
والأمريكون لهم وجه قبيح، ووجه حسن كذلك.
وجههم القبيح، يتمثل في سباق التسلح والهيمنة الأمريكية العسكرية (ولعل لها جوانب مفيدة تتمثل في قمع الديكتاتوريات التي لا ولم تقدر على قمعها شعوبها، كالنازية والفاشية والشيوعية والصدامية والقذافية.. الخ) وقيام هذا المجتمع الاستهلاكي المسعور سعارا لا يوصف. ولعل هذا سر من أسرار ازدهار الاقتصاد الأمريكي، كما يقول بعض الاقتصاديين. كما يتمثل قبح الوجه الأمريكي في تحويل كل شيء في الحياة الأمريكية إلى (منتج Product) وتحويل أمريكا كلها إلى شبه شركة تجارية كبيرة Corporation بما في ذلك الفن والأدب والثقافة والتعليم، الذي أصبح تجارة أمريكية مشهورة تساهم في الدخل القومي الأمريكي.. الخ. كما يتمثل وجه أمريكا القبيح في انتاج الفن الشعبي من موسيقا وأغان ذات الاستهلاك السريع Fast Art الذي يشبه وجبات الطعام السريعة Fast Food. أما وجه أمريكا الحسن فيتمثل في قيم التسامح والحرية والديمقراطية واحترام الآخر وقبوله (هناك أكثر من ستين جنسية،

وأكثر من عشرة أديان، وأكثر من عشرين عرقا، تنخرط كلها في بوتقة الشعب الأمريكي الواحد) وتدفق المعلومات والتقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والتعليمي والفني، ونشر معاهد الدراسات المتخصصة المختلفة، والتبرع لها من قبل المؤسسات ورجال الأعمال، ونشر قيم التعاون الاجتماعي، ونشر قيم السوق الحرة والعولمة.. الخ.

-2-

كل الأمم والحضارات والثقافات تتلاقح.
الأمم الواعية هي الأمم التي تأخذ من الغير أحسن ما عنده، أي تأخذ الوجه الحسن وتترك الوجه القبيح.
عندما امتدت يد الغرب على التراث الإغريقي في عصر التنوير في القرن السابع عشر والثامن عشر، لم يأخذ الغرب من هذا التراث غير الوجه الحسن، وترك الوجه القبيح. أخذ الفلسفة والعلوم والفكر والديمقراطية، وترك الوجه القبيح في المجتمع الأغريقي.
وعندما امتدت يد الغرب إلى التراث العربي لم تأخذ منه كل شيء، وانما أخذت الحسن وتركت القبيح. أخذت منه ما تم أخذه من قبل العرب عن الإغريق. فأخذت منه العلم في أشكاله كافة، وتركت له القيم الاجتماعية والسياسية المتخلفة، لأن هذه القيم تخصه وحده، ولا تخص شعبا آخر، ومنها عدم مساواة المرأة بالرجل وضرب المرأة، وإجبارها على الاستجابة تحت أي ظرف إلى النداء الجنسي للرجل وإلا كان مأواها جهنم، وعدم قبول شهادتها وحيدة، وعدم مساواتها بالإرث مع الذكور، وحرمانها من حقوقها السياسية والوظيفية، وتكريسها للعلف والخلف، والسماح بالزواج بأربع نساء في وقت واحد.. الخ.
كذلك فعل اليابانيون عندما بدأوا بالتلاقح مع الحضارة الغربية بالقوة بدءا من عام 1852. فأخذوا علمها وتركوا قيمها الاجتماعية، التي لا

تتناسب مع قيمهم.

-3-

العرب في حاضرهم فعلوا عكس ما فعلته الشعوب الأخرى. فأحبوا الحياة على الطريقة الأمريكية، وأحبوا لباسها وطعامها وشرابها وفنها، ولكنهم أخذوا منها أقبح ما لديها.
فنراهم في فنهم في السنوات الأخيرة، قد تركوا الفن الأصيل وأخذوا بأسباب الفن الهزيل. فظهرت مجموعات ضخمة من المغنين المقلدين للفنانين التجاريين الأمريكيين، الذين حولتهم شركات الانتاح الفني من مشاريع فنية إلى (منتجات)فنية، يتحكم فيها المنتج أو الشركة المنتجة. وأخذ العرب بمنهاج المسوخ الفنية، فأخذوا الموسيقا الأمريكية الشعبية الراقصة، وتركوا الفن الموسيقي الراقي. وأصبحت أم كلثوم وعبد الوهاب والسنباطي والموجي من تراث الأسلاف الذي لا يسمعه غير كبار السن والدراويش. ولم تعد هذه الأصوات وهذا الفن يمثل الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وإنما أصبحت الشقة بيننا الآن وبين هذا الفن الأصيل وكأنها قرون طويلة. واستطاعت شركة إعلامية مثل شركة الإرسال اللبنانية LBC أن تصنع من ولد كمحمد عطية لا يملك من المقومات الفنية إلا إجادته للرقص الممجوج في رأي البعض، والمحبوب لدى البنات المراهقات من صغار السن، النجم الغنائي الساطع في أقل من ستة شهور. كما صنعت شركة (روتانا)وغيرها من شركات تسليع الغناء والموسيقا من عدة (فنانات)و(فنانين)نجوما ساطعة في عالم الغناء الشعبي الراقص، وتلك واحدة من نجاحات الثقافة الشعبية الأمريكية ذات الوجه القبيح في رأي البعض، وذات الوجه الحسن في رأي البعض الآخر الذي يرى أن تسليع Commiditization الفن على هذا الشكل الأمريكي، بدءا من مادونا وجانيت جاكسون وانتهاء ببريتني سبيرز

وجيزي Jayz وغيرهم، من قبل شركات تسليع الإنتاج الفني الأمريكي كشركة Jiva في مجال موسيقا (البوب)، وكشركة IDJMG في مجال موسيقا (الراب)وكشركة Newline وشركة Miramax في مجال السينما، هو من مفاتيح العولمة والإطلالة على الحياة الجديدة والمجتمعات الجديدة، مما ييسر غدا شق اوتوستراد الحداثة وليس زاروبها في العالم العربي، الذي بدأ سياسيا في العراق بعد التاسع من نيسان 2003، وبدأ فنيا في لبنان- أكثر الدول والشعوب العربية قربا من الغرب - من خلال (تلفزيون الواقع Reality TV)الذي هو نتاج أمريكي مائة بالمائة، ومن خلال البرامج والمسابقات الفنية التلفزيونية التي هي نسخة طبق الأصل عن البرامج التلفزيونية الأمريكية الفنية (مثال ذلك برنامج ستار أكاديمي الذي هو نسخة طبق الأصل، اسما ومضمونا، عن برنامج فرنسي أخذه الفرنسيون عن نسخة طبق الأصل أيضا لبرنامج أمريكي Idol American.

-4-

ومن هنا، بدأت المؤسسات الدينية تهاجم مثل هذه البرامج ومثل هذا الإنتاج الفني، الذي عدته إنتاجا هابطا يسيء إلى الدين وقيمه، ونادت بمنع بث مثل هذه البرامج. وفي الواقع، فإن احتقار المؤسسات الدينية ورجال الدين لمثل هذه البرامج نابع من علمهم بأن هذه البرامج وهذا الإقبال الشديد عليها من قبل جمهرة الشباب من صغار السن، سوف يفتح غدا أبواب العولمة وأبواب الحداثة على مصراعيها أمام المجتمعات العربية، ويصرفهم عن جهاد الكفار واللحاق بركب (القاعدة)الإرهابي، وهو ما لا تقبله المؤسسات الدينية، التي تريد من الشباب التوجه نحو الجهاد ضد الكفار الأجانب، بدلا من تبني فنهم وتبرجهم.

واعتبرت المؤسسات الدينية أن مثل هذه البرامج مصيبة كبرى حلت بالمسلمين. وقال سعيد أحمد الغامدي عن برنامج (ستار أكاديمي)مثالا لا

حصرا، في موقع على الانترنت (صيد الفوائد) وفي مقاله (ستار أكاديمي وتمزيق الحياء): (مصيبة عظمى وطامة كبيره تضم إلى ما قبلها من البلايا والرزايا، وجب النصح والتذكير أن أنبه على أمر لا ينبغي السكوت عنه، بل يجب الحذر منه والابتعاد عنه وهو ما يحصل في القنوات الفضائية من خدش للحياء والعفة والكرامة). وفي الكويت صدرت فتوى دينية شهيرة بتحريم غناء النساء وتحريم الاشتراك في مثل برامج (ستار أكاديمي)، وحرمت الفتوى الصادرة على أي جهة تنظيم حفلات غنائية لصالح ستار أكاديمي ، أو تحت أي اسم آخر إذا تضمنت ممارسات يحظرها الإسلام. كما حرمت حضور أو مشاهدة مثل تلك الحفلات ودعمها بأي شكل من الأشكال. وقامت ضجة كبيرة في المجتمع الكويتي، وهدد وليد الطبطبائي، عضو مجلس الأمة الكويتي، وأحد كبار الإسلامويين المعارضين للبرنامج بمساءلة وزير الإعلام أمام البرلمان حول هذه القضية. فيما اعتبر كاتب إسلامي هازل أن برنامجا كـ (ستار أكاديمي)كان كمثله من البرامج التي أدت إلى سقوط الإمبراطورية العباسية! وقد اغتاظ الداعية الديني المصري المودرن الأنيق عمرو خالد، الذي يتاجر بالمخدرات الدينية والذي كسب من تجارتها ملايين الجنيهات، والذي يتشبه بممثل السينما الأمريكي كلارك جيبل، والممثل المصري الدونجوان رشدي أباظة، من هذا الإقبال الكبير على برنامج (ستار أكاديمي)، بينما لا يحظى برنامجه على قناة (إقرأ)(صناع الحياة) إلا بقلة من الشباب الضائع، الذي يبحث عن طوق نجاة من خلال ما يبيعه لهم عمرو خالد من مخدرات دينية، على شكل قصص الماضي البعيد المخدرة التي لن تعود الآن أبدا وعلى موقع (البوابة الإسلامية)قال إمام المسجد الحرام بمكة الشيخ السديس في خطبة الجمعة: إن برنامج (ستار أكاديمي)سلاح دمار شامل للقيم الاجتماعية. وهو من أسلحة الدمار الشامل لكل أنواع القيم والعفاف والفضيلة، مما يسهم بجلاء في خلخلة المنظومة الاجتماعية

المحافظة والنسيج الأخلاقي المتميز لهذه الأمة، ويفرز أثارا إجتماعية خطيرة للتمرد على القيم والانفلات من الأخلاق والمثل. وجاءت تصريحات الشيخ السديس بعد ثلاثة أيام من إصدار هيئة الإفتاء، وهي أعلى سلطة دينية في السعودية والتي يرأسها مفتي المملكة، فتوى تحريم البرنامج الذي تبث تفاصيله طوال 24 ساعة على قناة تابعة لقناة (إل بي سي). وحضت الفتوى رجال الأعمال الذين يمولون مثل هذه البرامج على خشية الـلـه، وعدم استخدام أموالهم في تدمير شباب الأمة الإسلامية. وأخيرا وصل الحد بمؤسسة (الاتصالات السعودية)في 2005/1/21 إلى منع الشباب والشابات السعوديات من التصويت، وحجب كل المكالمات بهذا الشأن عبر الهاتف الجوال للمغني السعودي الشاب المشترك في الحلقة الثانية من برنامج (ستار أكاديمي)2005 اللبناني.

-5-

بالمقابل، كان للمفكرين الحداثيين الليبراليين رأي مخالف آخر. فعلي حرب، المفكر اللبناني، يرى وجها آخر لهذا التسليع الفني على الطريقة الأمريكية. فهو يرى في مقاله (ستار أكاديمي ونانسي عجرم: ما الذي جنيناه من ثقافة الأعمدة، جريدة السفير 2004/6/24) أن (ثمة من يتعامل مع هذه الظاهرة بعين السلب والعداء، إذ يرى بأنها مظهر يدل على فقر الثقافة وانحطاط الفن، بل هناك من يتحدث عن (موت الثقافة)وتسليع العقول والأجساد، معتبرا ذلك نتيجة سيئة لعصر العولمة والتقنية. فمن جهتي أنا أقرأ الظاهرة بصورة مختلفة. فالعولمة، بما تعنيه من تشكل مجتمع المشهد والشبكة والصورة، قد فتحت إمكانات لا سابق لها للتعدد والتنوع والتفرد في مختلف مجالات الإنتاج المادي والرمزي. نحن إزاء واقع جديد لا يغني معرفة ولا يجدي عملا وصفه بـ (التفاهة)كما ينعته الكثيرون من أصوليي الحداثة والعقيدة، بأفكارهم الحديدية وذائقتهم

المتحجرة، من حيث تعاملهم مع برامج مثل (سوبر ستار)أو (ستار أكاديمي)أو انتخاب ملكات الجمال. الأجدى والأغنى قراءة الواقع لمعرفة ما طرأ عليه من تحولات، من حيث مشهده ونظامه ومفاهيمه وقواه وأدواته. وأبرز هذه التحولات هو تغير العلاقة مع الواقع والحقيقة، بعد تشكل الواقع الافتراضي والاقتصاد المعرفي وبروز الإنسان الرقمي والفاعل الميديائي. وما تلفزيون الواقع الا ثمرة من ثمار هذا التحول.)

-6-

راح العرب يقلدون الأمريكيين في المأكل والمشرب والملبس فقط.
فأخذ العرب من الأمريكيين طريقتهم في التهام الوجبات السريعة. فانتشرت مطاعم هذه الوجبات انتشار مطاعم الفول والحمص والفلافل والشاورما. علما أن لا موجب لهذا اللون من الطعام في العالم العربي. ولكنه التقليد الأعمى العربي للغرب وللأمريكيين على وجه الخصوص. فإذا كانت هناك موجبات أو دوافع لوجود الوجبات السريعة في أمريكا، فهي سرعة حركة الحياة الأمريكية، وكون العامل والطالب والموظف الأمريكي لا يجد وقتا كافيا لإعداد طعام صحي وجيد. فكان أن تم اختراع أو إيجاد نظام الوجبات السريعة التي تلائم المجتمع الأمريكي السريع الخطوات والحركة أكثر من أي مجتمع آخر. أما في العالم العربي البطيء الحركة، والذي يمشي مشي السلحفاة، والذي ما زال يقضي نصف نهاره نائما في العسل الأسود، والنصف الآخر متثائبا يهش به الذباب في المقاهي وعلى مصاطب المساء، فما زال الطعام العربي الذي هو تركي في أصله والذي يتطلب إعدادا يطول وقته، هو الطعام الملائم نتيجة للحياة العربية ذات الإيقاع البطيء جدا
فكيف نريد من السلحفاة أن ترقص على أنغام (الراب)الأمريكي السريع الإيقاع، وتأكل الهامبرجور الأمريكي، وتلبس الجينـز؟

وهل لا يرى العرب في أمريكا غير ما يعتبره البعض وجها قبيحا؟
إنها صورة فريدة وغرائبية تلك الصورة العربية المتناقضة بين الراقصين في برنامجي (ستار أكاديمي)و(سوبر ستار)الذين يغنون للحب وللحياة، وبين الملثمين (المقاولين)المرتزقة الخاطفين للأبرياء، والذين يظهرون على شاشات الفضائيات كالخفافيش السوداء في الجانب المظلم من العالم العربي، ويسعون للموت والدمار!

ما هي مصلحة العرب من هزيمة الإرهاب في العراق؟

-1-

كتب المفكر القطري المستنير عبد الحميد الأنصاري في (الراية)القطرية (2004/10/4) مقالا عقلانيا هادئا وشجاعا تحت عنوان (هزيمة الإرهاب في العراق مصلحة خليجية أولا)، شرح فيه كيف أن هزيمة الإرهاب في العراق هي بالدرجة الأولى لمصلحة دول الخليج وشعوبها. وقال إن أمريكا إذا استطاعت القضاء على الإرهاب في العراق فهذا يعني أن تنعم دول الخليج وشعوبها بالهدوء والاستقرار وتنصرف إلى البناء. وقال المفكر الأنصاري بشجاعة نادرة: (ولأن الـلـه أراد أن يستجيب لدعاء أهل العراق، فسلط على هذا النظام من دك أركانه فتهاوى في غمضة عين وانكشف زيف التحدي، وكان ذلك عملا أخلاقيا رائعا، يحق لكل من ساهم فيه أن يفخر به).

والأستاذ الأنصاري، عميد كلية الشريعة والحقوق في جامعة قطر سابقا، من المنتصرين بالحق، وهو أول كاتب ومفكر خليجي يعلن صراحة وبالعقل لا بالعواطف والعصبية بأن غزو العراق لم يكن احتلالا ولا استغلالا وهذه حقيقة يندر أن نجد من بين المثقفين العرب من يعترف بها الآن، في ظل موجات التشنج الإعلامي العربي من قبل المثقفين العرب، والنظر إلى ما في نصف الكأس العراقية الفارغ فقط، دون النظر إلى النصف الثاني المليء بالماء والأمل. ولا يدري المثقفون العرب الذين يباركون أعمال الإرهاب في العراق، بأن الإرهاب إذا قدر له أن يحرق العراق، فلن تتوقف النار عند حدود العراق، بل ستمتد إلى أنحاء الوطن العربي والإسلامي، وسوف لن تدع أحدا من شرها وشررها المستطير.

وقبل أن أشرح ما هي مصلحة العرب في القضاء على الإرهاب في العراق، فإنه من باب الأمانة الفكرية السياسية أن أشرح مصلحة أمريكا والغرب بالدرجة الأولى أيضا من القضاء على الإرهاب في العراق، بل وغزو العراق الذي لا أعتبره أيضا احتلالا ولا استغلالا، ولكني أعتبره (إحلالا Supplantism)كما عبرت عنه في مقال سابق. وهو يعني في القاموس: (أن تقوم دولة بغزو دولة أخرى لإحلال نظام عادل وديمقراطي محل نظام طاغ وبالقوة). وهي من الحالات النادرة جدا في التاريخ السياسي الإنساني كله، ولا تتم بدوافع إنسانية محضة، بقدر ما تتم تلبية لمصالح سياسية أو اقتصادية.. الخ.

لأمريكا أسبابها ومصالحها في العراق ومنطقة الخليج التي تجعلها تفعل في العراق ما فعلته، منها:

1- أن أمريكا، التي صرفت أكثر من 200 مليار دولار من جيب دافع الضرائب ومن عرق الشعب الأمريكي على غزوها للعراق، وسوف تصرف المزيد في المستقبل القريب، وفقدت أكثر من 1400 جندي من أبنائها، وتعرض بعض أبنائها للذبح والسلخ كذبح النعاج وسلخ الشياه، وفقدت الكثير من سمعتها في الداخل والخارج كدولة تحمي الحريات في العالم، وتدعم استحقاقات الديمقراطية، وكان رئيسها مهددا بخسارته للفترة الثانية من رئاسته والتضحية بمستقبله السياسي ومعه فريق إدارته.. كل هذه التضحيات لم تكن من أجل سواد عيون الشعب العراقي، ولا حبا فقط في أن تسود النظم الديمقراطية في العالم العربي، وأولها في العراق. ولو كانت العراق تزرع بصلا أو جزرا فقط وحكمها طاغية أشد طغيانا من صدام لما حركت أمريكا ساكنا، ولما خسرت سنتا واحدا في العراق، ولتركت العراقيين لمصيرهم الأسود المحتوم بفعل الحكم الاستبدادي الطاغي

الذي كان قائما إن ما دفع أمريكا لأن تفعل ما فعلته في العراق هو البترول، ولا شيء غير البترول، عصب الصناعة والتقدم الاقتصادي الأمريكي والغربي. حسنا ما دام البترول هو السبب، المهم النتيجة. ونحمد اللـه أن وجود البترول كان سببا في أن يحدث ما حدث. وأن هذا البترول المبارك كان سببا لأن يتحرر العراق، كما كان سببا لأن تتحرر الكويت، ويصد عدوان صدام عن السعودية. {إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا} (الكهف: 84).

2- أن أمريكا ومعها الغرب عموما، يريدان منطقة الشرق الأوسط بحيرة هادئة وساكنة، تنعم بالاستقرار والهدوء حتى يتمكنا من تنفيذ مصالحهما الاقتصادية بالدرجة الأولى في المنطقة. فالشرق الأوسط سوق تجارية واستهلاكية كبيرة. وعندما وقفت أمريكا أثناء الحرب الباردة إلى جانب الدول المحافظة في المنطقة، وهي دول الخليج بالدرجة الأولى، أمام وقوف الاتحاد السوفياتي إلى جانب الدول الديكتاتورية الجمهورية في العالم العربي، كان ذلك لا حبا في هذه الدول، ولكن لأن هذه الدول هي التي تملك النسبة الكبرى من مخزون البترول في العالم. والوقوف إلى جانبها وحمايتها من أي عدون داخلي أو خارجي يعني حماية منابع البترول وأمنها، واستمرار دوران العجلة الاقتصادية على الوجه الأكمل في أمريكا والغرب عموما فلا الدين ولا القومية ولا القيم ولا العادات ولا التقاليد ولا مناهج التعليم ولا كل ما يقال يمكن أن يسبب الصدام بين الشرق والغرب عموما، بقدر ما يسببه إحساس أمريكا والغرب بأن أكبر مصادر الطاقة في العالم مهدد بالإرهاب ومن قبل الأصولية القومية والدينية على السواء، وفي أي مكان في العالم. ولعل هذا الإحساس قد تعاظم عندما غزا صدام حسين الكويت 1990 واعتدى على السعودية، وتبين لأمريكا والغرب أن الرجل لا ينوي خيرا، وأن له

أطماعا في المنطقة، وأنه مهدد للاستقرار في المنطقة ومعكر لصفو البحيرة الخليجية الوادعة، وبالتالي مهدد لمصالح أمريكا والغرب. وكانت أمريكا تبحث عن سبب وجيه أو غير وجيه للتخلص من بؤرة الشر ومهدد الاستقرار في الخليج، وليس غير صدام كما بدا للقاصي والداني، ولكل ذي بصر وبصيرة. ومن ينكر على أمريكا أو الغرب عموما حقهما في حماية مصالحهما في أي مكان في العالم فهو يجانب الصواب.

3- أن الديمقراطية والعولمة والأسواق الحرة والتزام كل دولة من دول المنطقة بحدودها، وعدم الإخلال بالنظام العالمي وبالسلم العالمي الذي يعتبر الآن وحدة واحدة أمام مسؤولية دولة واحدة، والتي تتمنى أمريكا أن تراه يوما في العالم العربي وفي منطقة الخليج على وجه الخصوص، هو جزء كبير من العناية السياسية الأمريكية والغربية. فمع انتهاء الحرب الباردة، ومع القضاء على المعسكر الاشتراكي في العالم، أصبح العالم من قريب أو بعيد مضطرا للانضمام إلى الرأسمالية الغربية بكل قيمها وبكل ايجابياتها وسلبياتها، وبحلوها ومرها سواء رضينا أم أبينا. ويمكن لنا أن نرفض ذلك ونحمل السلم بالعرض، ولكن ثمن الرفض سيكون غاليا ومكلفا وفي الأخير سوف نرضخ. والرضوخ هنا لا يعني الاستسلام تحت مطارق القوة الخارقة، ولكن الرضوخ هنا يعني الاحتكام للواقعية السياسية، وتفهم التغيرات التي طرأت على العالم، وعدم سجن العقول في الماضي.

وهذه كلها أسباب كانت لمصلحة الشعب العراقي، الذي ساقت له عوامل طبيعية وجغرافية هذه الثروة البترولية لكي تملأ جيوبه، وتحمي رؤوسه كذلك من سيوف الجلادين.

فما هي فائدة العرب من القضاء على الإرهاب في العراق؟
1- هناك حقيقة تاريخية وهي أن الإرهاب الذي نشهده لو لم يوجد الآن لوجد في المستقبل القريب، نتيجة لعدة عوامل مجتمعة ومتضامنة، منها أنظمة التعليم الديني على نحو خاص، ومنها معدلات البطالة المرتفعة، وانتشار الأمية الأبجدية والثقافية، وارتفاع معدلات الفساد السياسي والمالي المنتشر، وهي كلها أسباب لا ترى الأصولية لها حلا إلا بالعنف، وبالعنف في وجه من تعتقد أنه يحمي الأنظمة التي تمارس كل هذه الكبائر. والأصولية عندما اعتمدت العنف حلا لهذه المشاكل، فهي من حيث لا تعلم أخذت بالأسلوب الشيوعي العنيف المعروف بالثورة الحمراء البلشفية. فلينين (1870-1924) يقول: (ليس هناك مشكلة واحدة تم حلها دون عنف). وماوتسي تونــج (1893-1876) يقول: (كل شيوعي يعلم بأن القوة السياسية تخرج من فوهة البندقية)، و (إن تجارب التاريخ كتبت بالحديد والدم). فجاء غزو العراق كنذير للأنظمة العربية لكي تصلح من حالها، فإما اعتدلت وإما اعتزلت. وبدأ الاعتدال.
فالانتخابات التي كانت معطلة أجريت، وأصوات الإصلاح التي كانت مكتومة سمعت، وأعلام المعارضة التي كانت منكسة رفعت، والمناهج التي كانت مقدسة لا تمس ولا تجس عدلت. وأصبح بعض الحكام يسابقون الشعوب إلى الإصلاح خوفا من أن يتكرر ما جرى في العراق. وهذه إجراءات لا يريدها الأصوليون ولا يريدها الإرهابيون، ولم يكن يتصوروا في يوم من الأيام أن تحصل على هذا النحو من السرعة والاستجابة.
2- والإرهاب، كحقيقة قائمة كما هي الآن، لا قبل للعرب بمحاربته والقضاء عليه. أنظروا ماذا يفعل الإرهاب بقوة عظمى حالية مع قوة

عظمى سابقة في العراق؟ فإذا كانت هناك قوتان عظميان سابقة ولاحقة تقاوم الإرهاب وتريد الخلاص منه، وهي التي دفعت الآن كل هذه الأموال الطائلة والدماء الغزيرة، وبعد مضي أكثر من عامين لم تقض عليه، فما بال العرب بإمكاناتهم المحدودة؟ حقا إن المشكلة الكبرى ليست بالتدخل الأمريكي الآن في المنطقة، ولكن المشكلة الكبرى كانت فيما لو لم توجد أمريكا كقوة عظمى على وجه هذه الأرض كبوليس دولي قوي، وشديد البأس. وهذا ما قاله حرفيا الشيخ خالد محمد خالد، المصلح الديني المصري، غداة حرب الخليج 1991.

3- الإرهاب القائم الآن ليس من صالح الدول العربية والشعوب العربية المحافظة والرأسمالية والاشتراكية - إن وجدت حتى الآن - ولا الجمهورية أو الملكية أو الأميرية، وليس من صالح أحد. والكل مجمع على القضاء عليه، ولكن لا قوة لديه، ولا وسائل من أجل القضاء عليه. وهو الذي هدد السلم الاجتماعي العربي والأمن القومى الاجتماعي ويريد الاستيلاء على السلطة بالقوة الغبية الساذجة، ويعيد الخلافة الإسلامية التي أسقطها أتاتورك 1924، وهو حلم طفولي ساذج. والقضاء على الإرهاب في العراق، حيث يتجمع هناك ويتراكم يوما بعد يوم، هو استئصال للإرهاب في العالم العربي كله، ودرس قاس لكل بؤر الإرهاب الأخرى، ولكل الأنظمة التي تحميها.

4- لم يعرف العالم العربي بشاعة حكم الأصولية القومية إلا بعد القضاء على الأصولية القومية في العراق بعد التاسع من نيسان 2003، وكان هذا الدرس موجها لكل الأصوليات القومية الحاكمة في العالم العربي. وتحاول الأصولية الدينية في العراق أن تحل محل الأصولية القومية. فليكن، ففي ذلك نهايتها. فالقضاء على الإرهاب لا يعني

القضاء على الأصولية الدينية التي تقف عائقا في وجه الحداثة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فالإرهاب ليس له فكر ولا خطاب، لكن الأصولية الدينية لها خطابها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، والقضاء عليها لا يتم إلا بإتاحة الفرصة أمامها لكي تتولى الحكم. نعم، دعوها تحكم في عالم القرن الحادي والعشرين بمنطق القرن السابع الميلادي، وسوف تكون نهايتها في حكمها. ولكي تحكم لا بد من انتخابات ديمقراطية في العالم العربي. وحال إجراء انتخابات ديمقراطية في العالم العربي مائة بالمائة سوف تنجح الأصولية بأغلبية ساحقة في الوقت الحاضر، وفي ظل الظروف العربية الراهنة. فدعوها تحكم وتكشف عوراتها. ولو تم ذلك في الجزائر على إثر انتخابات عام 1990 لما حصل ما حصل من مذابح، ولتبين للناس مدى فشل الأصولية وتهافت خطابها السياسي والاجتماعي والاقتصادي. فدعوا الأصولية تحكم كما حكمت إيران، ولتكن النتيجة كما هي في إيران الآن. وهذا ما قاله محمد عبد الباقي الهرماسي، المفكر التونسي، في كتاب (الديمقراطية في الشرق الأوسط: توضيح التحدي، ص44) الذي صدر بالانجليزية عن (معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى). فنحن لن نتخطى مرحلة ما لم نمر بها، وإذا قفزنا عليها، فلا يعني أننا تجاوزناها. فلو لم تحكم النازية والفاشية والعسكرتاريا في ألمانيا وإيطاليا واليابان لما عرف العالم مخاطر الديكتاتوريات على حقيقتها.

لماذا العجب بعد أن فعلنا العجاب؟

-1-

* المراقبون والمحللون في داخل الوطن العربي وخارجه يتساءلون فاغري الأفواه، مشدودي الأعصاب، وقد انتابهم الخوف والجزع، وأخذتهم الدهشة مما يحصل الآن في العالم العربي من هذه السيول الدموية التي تجري في كل ناحية من الفضاء العربي والإسلامي.
فلماذا كل هذا التجاهل؟
ولماذا كل هذا الإكار لما فعلته أيدينا، وما زرعته من شوك وشجر المر؟
لماذا نتقمص دائما شخصية الزرافة التي تدفن رأسها في الرمال ظنا أن لا أحد يراها؟
لماذا كل هذا التساؤل الأبله، من قبل المحللين وراصفي الأعمدة الصحافية؟
لماذا كل هذا التملص من الإرهابيين الذين يقومون بالسفك اليومي للدماء، والقول بأنهم ليسوا منا ولسنا منهم، وأننا منهم براء. في حين أنهم منا، ومن صلبنا، ومن أرضنا، ومن زراعتنا، ومن صنع أيدينا، وليسوا مخلوقات غريبة هبطت فجأة من كواكب سماوية على الأرض لتعيث فيها وفينا فسادا بل هم أبناؤنا الضالون، ونحن من ضللناهم، وهم ضحايانا، ولسنا نحن ضحياهم فقط ؟
هم نبت ما زرعناه، وما بذرناه، وما سقيناه، وما رعيناه، وما صرفنا عليه المليارات تحت عنوان (التنمية)، و (التعليم)، و(التطوير)، و(النهضة) الخ؟
فلماذا كل هذه الحيرة والدهشة، وهذا (الاستعباط) أمام ما يجري من هذه الفوضى ومن هذه الدماء، والعالم العربي قد جهز نفسه منذ نصف قرن لكي يصل إلى هذا الوضع الذي هو عليه الآن؟

والمصيبة هي أن العالم العربي - العقلاء منه فقط - كان يدري بمثل هذه النهاية. أما المصيبة الأعظم، فهو أنه كان يزرع هذا الشوك كله، ولا يعلم بأنه في النهاية سوف يبلع هذا الشوك.
فإن كنت تدري فتلك مصيبة، وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم!

-2-

ماذا كنا ننتظر من مجتمع كالمجتمع العربي سيطرت عليه التربية والتعليم الديني الظلامي، وتم حقنه وشحنه بثقافة القرون الوسطى، ونصوص كراهية الآخر، وعداء الآخر، وتكفير الآخر، ومحاربة الآخر من الأديان والقوميات المختلفة الأخرى، كما جاء في كتب النصوص الدينية التي ما زالت تدرس حتى الآن في العالم العربي، والتي كتب عنها كل المعنيين بهذا الشأن من الحداثيين وعلى رأسهم العفيف الأخضر، وكشفوا زيفها وخطورتها والمصائب التدميرية التي تحملها بين صفحاتها، والكراهية العمياء التي تنبع من بين سطورها، ولون الدم الأحمر المكتوبة به هذه الصفحات وهذه السطور، وشرحوا الأخطار الجسيمة التي تحتويها، والتي كانت بمثابة قنابل موقوتة، ما إن جاءت لحظتها الموقوتة حتى انفجرت، كما هي عليه الآن من الانفجار المذهل الذي أصاب الجميع بالفزع والدهشة والدوار؟
ورغم ذلك، لم يعترف معظم العرب بهذا، بل هم حملوا الغرب، وحملوا أمريكا مسؤولية انفجار قنبلة الإرهاب في العالم العربي، وأخرجوا أنفسهم أبرياء أنقياء خلصاء، مما فعلت أيديهم، طيلة قرن كامل من الزمان كالقرن العشرين.
فمتى اعترف العرب بخطأ ارتكبوه، ومكانهم هو الصدر دون العالمين أو القبر؟

-3-

إن الأمة العربية، بعرف كهنتها، أمة لا تخطىء، ويخطىء الآخرون. ولم تكن يوما السياف بقدر ما كانت الضحية.
أما اليوم، فقد قلبت الأمة العربية ظهر المجن للعالم، وهتفت كما هتف من قبل الشاعر العراقي عبد القادر الجنابي في كتابه (مرح الغربة الشرقية):
ما أجمل أن نجعل العالم ضحية لنا، بدل أن نكون ضحيته!
ماذا كنا ننتظر من مجتمع كالمجتمع العربي، مارس الاضطهاد والاستبداد والظلم، وقتل المعارضة والتنكيل بها، طيلة 1400 سنة من عهد معاوية بن أبي سفيان (661-680م) إلى الآن، واغتصب فيه مئات الحكام الحكم بحد السيف وبالحيلة والغفلة، دون أن يكون للناس فيه أي خيار أو رأي أو مشورة؟
كيف لأمة على هذا النحو، كالأمة العربية، أن تلد أجيالا من الأسوياء العقلاء الأحرار في التفكير والتدبير؟

-4-

إن مجتمعات العبيد لا تلد إلا عبيدا
وما هؤلاء الإرهابيون غير عبيد وعابدين للطوطم العربي الديني الجديد المدعو (ابن لادن). وهي عبادة تدل على أن العرب ما زالوا أقواما بدائية حتى الآن.
يرى العالم الانثربولوجي جيمس فريزر، صاحب (الغصن الذهبي)المشهور، أن الإنسانية مرت بثلاث مراحل : السحر، والدين، والعلم. ونحن العرب ما زلنا في مرحلة ما بين السحر والدين، ولم نصل بعد إلى مرحلة الدين النهائية لكي ننتقل إلى مرحلة العلم. وما الإرهاب الذي يجري الآن في العالم العربي وفي العالم كله إلا بفعل السحر المختلط

بالدين، والمتمثل أوضح تمثيل وأبسطه بوعد الانتحاريين من الفقراء والعاطلين عن العمل والمشردين والمسحوقين بجنة فيها الحور العين، ومقام مكين، ومركوب ثمين، ولا يسأل فيها الإرهابي المنتحر عن معاصي السنين!

ألم يكن للأقوام البدائية طواطمها من النباتات والحيوانات وبني البشر، والتي لا تسال عما تفعل وهم يسألون. فمن يسأل الطوطم (ابن لادن)الآن عما يفعل من عبدته الأشرار؟

ألم يكن حكام الأقوام البدائية - كما يثبت لنا علماء الأنثربولوجيا - من السحرة والكهنة؟

من الذي يحكم العالم العربي والإسلامي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى الآن غير السحرة والكهنة؟

من الذي يسيطر على الشارع العراقي والفلسطيني الآن، ويتصدر المجالس السياسية والخطابات السياسية في العالم العربي غير السحرة والكهنة؟

قال أرسطو في كتاب (السياسة): (إن البشر يخلقون حكامهم وقادتهم على شاكلتهم. وكما تكونوا يولى عليكم).

فهل رأيتم الطوطم البدائي (ابن لادن) بلحيته الكثة في جبال أفغانستان أو باكستان، وهو يرتدي الزي البدائي الأفغاني، ويحمل مشعابا يتكىء عليه، ويجول بين الشعاب بحثا عن الطرائد والثمار، كما كان يفعل الإنسان الأول في الغابات والبراري؟

ألم يذكركم بالإنسان البدائي في العصور الحجرية؟

ليس المهم أن يعيش الإنسان في العصور الحجرية لكي يكون حجريا

فللعصر الحجري إنسانه، وللإنسان عصوره الحجرية كما يقول الشاعر العراقي عبد القادر الجنابي.

وها هو ابن لادن يأتي لنا بعصره الحجري في القرن الحادي والعشرين!

فأين الغرابة؟
هل استمعتم إلى خطبه العصماء في (الجهاد)، و(الدين)المخطوف؟
ألم تذكركم بمهابيل العصر العثماني والقرون الوسطى البدائية؟
هذا الطوطم هو الذي يقودنا الآن إلى النصر على (القوى الكافرة)في العالم، المتمثلة بالغرب وأمريكا، وهو الشيخ المجاهد الزعيم القائد، كما تطلق عليه الفضائيات وبعض الصحافة العربية!
ألم يذكركم الإرهابيون، عبدة هذا الطوطم (ابن لادن) بالأستراليين البدائيين Black Fellows الذين كانوا يعيشون على اللقاطة والقنص في الغابات؟
أليس معشر الإرهابيين هؤلاء هم مجموعة من القناصين الانتحاريين اللقاط، الباحثين عن الطرائد والأثمار والغياض، في جنات الآخرة، التي وعدوا بها؟
قال جيمس فريزر، أشهر الانثربولوجيين المعاصرين، أنه كلما انحطت الثقافة كلما تكاثر السحر، وأصبح الدين الحقيقي النقي أقل أهمية.
ألم تصل الثقافة العربية، كما قال تقريرا الأمم المتحدة لعامي 2002، 2003، إلى الدرك الأسفل، فتكاثر السحر وتم اختطاف الدين النقي، واختلط بتعليمات الطواطم الدينية الجديدة من أمثال الطوطم ابن لادن، والظواهري، والزرقاوي وغيرهم؟
ماذا كنا ننتظر من مجتمع كالمجتمع العربي بلغت فيه نسبة البطالة في الدول العربية الغنية وليست الفقيرة أكثر من ثلاثين بالمائة، وانحصرت الثروة في طبقة معينة من الناس لا جهد لهم فيها، ولا فكر لهم فيها، ولا فضل لهم فيها؟
هل تريدون من أبناء هذا المجتمع أن يحمدوا ويشكروا ويسبحوا بعدم زوال النعم التي أنعمها حكامه عليه، ويعيشوا بأمان واستقرار؟

لقد كان المجتمع العربي، منذ عهود الاستقلال في مطلع الخمسينات من القرن العشرين، مجتمعا قابلا للحريق والانفجار والإرهاب، نتيجة لعوامل الفقر والجهل وسيطرة السحر الديني والدين السحري عليه. وما منعه من هذا الانفجار المبكر كان حرب السويس 1956، وحرب حزيران 1967، وحرب أكتوبر 1973. والحروب الخارجية هي الوسيلة الوحيدة لمنع الانفجارات الداخلية كما يقول علم التاريخ البشري.
وعندما انتهت الحروب جاءت الطفرة المالية نتيجة لارتفاع أسعار البترول من خمسة دولارات للبرميل إلى ثلاثين دولارا للبرميل، فلجمت الأفواه، وأغلقت العقول، وأطفئت النيران، وهدئت العواطف والعواصف، وتلهت الناس بالاستهلاك المحموم وجمع الثروات. وما إن انتهت الطفرة المالية النفطية في بداية الثمانينات حتى دخل العالم العربي في حروب خارجية لكي تلهيه وتشغله وتصرفه من جديد عن حاله البائس في الداخل، كما حصل في الخمسينات والستينات والسبعينات. فانشغل العرب بحرب (الفرس)، و(عبدة النار)، و(الاستعمار الجديد)، وقامت القادسيات واليرموكيات والمؤتيات في 1980، و1991.
وعندما انفض كل هذا السامر السحري العجيب، جاء وقت الحساب والعقاب، حساب الشعوب مع أنفسها ومع حكامها. وبدأ الانفجار في مصر، وامتد إلى الجزائر، ثم إلى السودان، ثم إلى بقية أنحاء العالم العربي. وكان المفجرون هم السحرة والكهنة والطواطم، ولم تكن - للأسف الشديد - الفئات المثقفة الليبرالية العلمانية الحداثية، التي لم يكن لها آذان صاغية في هذا المجتمع البدائي الطوطمي الذي يحتاج إلى كثير من الشغل عليه، لكي يستمع إلى صوت العقل لا إلى أصحاب النقل.
وبعد، أليس كل هذا كافيا لكي نبطل العجب من الإرهاب السائر اليوم في أنحاء متفرقة من العالم العربي بعد أن عرفنا الأسباب التي ظهر

منها، وما بطن كان أعظم، وأشد إيلاما؟

-6-

مرة أخرى نقول، إن المراقبين والمحللين في داخل الوطن العربي وخارجه يتساءلون فاغري الأفواه، مشدودي الأعصاب، وقد انتابهم الخوف والجزع، وأخذتهم الدهشة مما يحصل الآن في العالم العربي من هذه السيول الدموية التي تجري في كل ناحية من الفضاء العربي والسلامي.

فلماذا كل هذا التجاهل؟

ولماذا كل هذا العجب، وقد قيل إذا عرف السبب بطل العجب؟

ماذا كنا ننتظر من مجتمع كالمجتمع العربي تسيطر على مقدراته وقرارته المؤسسات الدينية التي تحكم وتقرر بقوانين خارج المكان والزمان، وتعتبر نفسها فوق التاريخ، وليست إلى جانبه. لذا فهي مؤسسات إرادوية Voluntarist؛ بمعنى أن ارادتها فوق إرادة التاريخ. بل هي تلغي ارادة التاريخ، وتنفي كل إرادة ما عدا إرادتها المتمثلة بأيديولوجيتها المحصورة والقاهرة للآخرين؟

من يظن أن العالم العربي في معظم أجزائه، عالم علماني يحكم بالنظام العلماني فهو خاطىء جدا وما العلمانية التي نراها في بعض أنحاء الوطن العربي إلا قشرة سياسية، ما تلبث أن تزول، ويظهر تحتها حكم المؤسسات الدينية الحقيقية.

أم يكن النظام المنهار في العراق علمانيا ممثلا بحزب البعث؟

فهل كان العراق علمانيا حقيقة؟

انظروا إلى من يحكم العرب الآن حقيقة؟

إنهم أصحاب العمائم السوداء والبيضاء والخضراء.

لا صوت للسياسيين العلمانيين، بل الصوت للزعماء السياسيين

الدينيين، الذين يحكمون الشارع العربي من على منابر المساجد، ومن وراء ستائر الحوزات الدينية.
أنظروا إلى الذي يحكم الشارع العربي الآن، والذي يحركه؟
أليست الفصائل الدينية الأصولية المسلحة الظاهرة والمخفية؟
وانظروا أيضا إلى من يتصدى للإرهاب الديني الآن؟
أليست المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية، التي تصدر الفتاوى بتكفير هذا الإرهاب، وضرورة سحقه، والقضاء عليه، وتتوعد الإرهابيين بعقاب الآخرة، وبئس المصير؟
أليست المؤسسات الدينية و(فقهاء سفك الدماء)هم الذين يغذون الإرهاب بالفتاوى الشرعية؟
لقد أصبحت المؤسسات الدينية في العالم العربي هي الخصم والحكم
وانظروا إلى من يسيطر على الإعلام العربي المقروء والمسموع والمشاهد؟
أليست المؤسسات الدينية، ما عدا من رحم ربك؟
أليس موقف العالم العربي من معاهدة كامب ديفيد، وحرب الخليج 1991، ومن السلام المصري-الإسرائيلي، ومن السلام الأردني - الإسرائيلي، ومن تحرير العراق، ومن السلام الفلسطيني - الإسرائيلي الذي كان سيقع عام 2000، ومن مشروع (الشرق الأوسط الكبير)ومن مشاريع إصلاح التعليم، وخلاف ذلك، أكبر برهان على أن المؤسسات الدينية هي التي تحكم، وتتحكم في الرأي العام العربي؟
العالم العربي محكوم بالفعل للمؤسسات الدينية بشكل مباشر في أنحاء، وبشكل غير مباشر في أنحاء أخرى، رغم هذه القشرة العلمانية الرقيقة التي تقبع وتزول مع أول حكة رأس سكين. وهذه المؤسسات هي العقبة الكبيرة أمام الديمقراطية العربية، وهي المختبرات وماكينات التفريخ

الذي تفرخ الرأي الأصولي الديني الرسمي، والرأي الأصولي الديني الإرهابي الآخر.
ماذا كنا ننتظر من مجتمع كالمجتمع العربي مليء بالجروح النرجسية الدينية والقومية، والتي تحول دون انفتاحه على العالم الآخر، بل كراهيته وعدائه للعالم الآخر، والتي انتهت إلى مجابهة هذا العالم بالسلاح، ونشر الإرهاب في أركانه؟

-7-

لقد سقط مشروع الحداثة الذي قاده طه حسين وعلي عبد الرزاق واسماعيل أدهم وسلامة موسى ومحمد حسين هيكل وشبلي شميل وأنطون فرح وغيرهم، نتيجة للجرح النرجسي الديني الذي أحدثه نابليون فينا في الحملة الفرنسية عام 1798، وخشية من أن يتكرر هذا الجرح ويتسع. ونتيجة للجرح القومي الذي أحدثه محمد علي باشا في بداية القرن التاسع عشر، عندما استطاع - وهو الألباني غير العربي - أن يقود المشروع القومي الاتحادي بغزوه الجزيرة العربية وسوريا ولبنان، وبتحديه للسلطنة العثمانية والباب العالي، بل وبتهديد الباب العالي ووصوله إلى أبواب الآستانة ، والعشاء في قصر (التوب كابي)، لولا وقوف الغرب في وجهه ومنعه من تقويض الباب العالي العثماني. وأخيرا، نتيجة للجرح النرجسي الديني الذي أحدثته علمانية كمال أتاتورك في تركيا عام 1924 وإلغاء الخلافة الإسلامية.
وفي النصف الثاني من القرن العشرين سقط مشروع الحداثة من جديد، الذي قاده الطاهر الحداد والطاهر عاشور والفاضل عاشور، وبقي محصورا في تونس لا يتعداها. في حين فشل مشروع الحداثة في العالم العربي الذي قاده إدوارد سعيد وأنور عبد الملك وسمير أمين وفؤاد زكريا وقسطنطين زريق وعبد الـلـه العروي وعبد الـلـه القصيمي وحسين مروة

والبرت حوراني وهشام شرابي وغيرهم، نتيجة للجرح النرجسي الديني الذي أحدثته سيطرة حزب البعث العلماني على جانب كبير من الحياة السياسية العربية، وظهور عبد الناصر والقذافي وبومدين وحافظ الأسد، الذين حاولوا بناء دول علمانية قشرية على غير أسس متينة، ووقعوا في تناقض عجيب وقاتل، تمثل في معاداة الحضارة الغربية والسعي في الوقت نفسه إلى محاربة سيطرة المؤسسات الدينية على الحكم.
كما فشل مشروع الحداثة في النصف الثاني من القرن العشرين، نتيجة للجرح القومي الذي تمثل في الهزائم العسكرية في الأعوام: 1948، 1956، 1967، 1973، 1988، 1991، 2003.
والأهم من ذلك، أن بعض شعوب العالم قد نكبت بأهم وأفدح وأفظع مما أصابنا من نكبات وجروح دينية وقومية. فاليابانيون ألقيت عليهم قنابل ذرية لم يجر إلقاؤها على أي بلد في العالم العربي. وسحقت العسكرية والقومية اليابانية تحت البساطير الأمريكية، ووقعت استسلامها صاغرة وبمذلة تاريخية مشهودة، ورغم هذا لم يمنعها جرحها الغائر من القيام من الحطام، وبناء الوطن والأمة من جديد، والدخول في الحداثة من أوسع أبوابها. كذلك كان حال ألمانيا وكوريا وغيرهما.
ومن هنا، فإن عجز الأمة العربية عن لثم جراحها وتخطيها لهذه الجراح، التي هي عبارة عن كدمات بسيطة قياسا لما أصاب الأمم الأخرى، كان من أهم الأسباب التي أقامت الحال الذي نحن فيه الآن.
فوجدت هذه الأمة في الإرهاب القائم، خير تعبير وخير انتقام لما أصابها من جروح دامية في الماضي والحاضر، لم تتعد شكة الدبوس.

-8-

هل كان يمكن لحزب كالأخوان المسلمين أو جماعة (القاعدة)، أو أي حزب ديني متعصب أن يسود هذه السيادة الإرهابية المسلحة، ويبرز زعماء

مزيفين وخادعين كابن لادن - مثالا لا حصرا - في مجتمع كالمجتمع الفرنسي أو الألماني، أو في أي مجتمع مثقف وواع؟

لقد ساعد المجتمع الأمي العربي المتخلف، الذي نعيشه الآن، على تقوية ظاهرة الإرهاب المسلح الذي تقوده هذه الفصائل الدينية الأصولية المسلحة.

فالسبعون مليون أمي، الذين تحدث عنهم تقريرا التنمية البشرية للأمم المتحدة لعامي 2002، 2003، ساعدوا كثيرا الفصائل الدينية الأصولية المسلحة على ايجاد الكوادر التائهة الباحثة عن تبرير مزيف وشرير لوجودها وحياتها، كما ساعدها على الانتشار، وعلى البروز كقوة عسكرية تخاطب الاتحاد الأوروبي وتعرض عليه الهدنة والمصالحة إن أراد!

وهؤلاء السبعون مليونا هم فقط الأميون الأبجديون، يضاف إليهم سبعون مليونا آخرين من الأميين الثقافيين، الذين يجيدون القراءة ولكنهم لا يقرأون، وتتحكم فيهم الغرائز الدينية والقومية أكثر مما يتحكم فيهم العقل. وغدا هذا العدد من الأميين الأبجديين والأميين الثقافيين، يمثل القطيع الديني والقطيع القومي الذي كان يسوقه حسن البنا، ثم عبد الناصر، ثم صدام حسين، وأصبح يسوقه الآن ابن لادن والظواهري والزرقاوي ومقتدى الصدر وغيرهم من الرعاة البدائيين.

يقول الانثروبولوجي تروتر في كتابه (غرائز القطيع في الحرب والسلم، 1920، ص113) من أن الفرد الضائع - كالفرد العربي الآن - الذي يرتهن ارتهانا وثيقا بالقطيع يحقق وجودا أوسع وأقوى من وجوده الخاص، وبحيث يجد حلا لعقده، والأمن والسلام والنجاح لتطلعاته.

ألا ينطبق هذا تماما على عشرات الآلاف من الشباب العربي الذي ضاع بين البطالة والأمية الأبجدية والأمية الثقافية، والذي ينضم إلى صفوف (القاعدة)وإلى غيرها من التنظيمات الدينية الأصولية المسلحة؟

ألم تكن الأمية العربية الأبجدية - بناء على ذلك - كما سبق وقلنا

في (نعمة الأمية في العالم العربي - (زوايا حرجة في السياسة والثقافة)، 2004، ص 145) نعمة وأرضا خصبة لتكاثر الإرهاب تكاثر الفئران، ونبات الفطر؟
ماذا كنا ننتظر من مجتمع كالمجتمع العربي، وهو الذي يحتقر المرأة ويسجنها ويكرسها للعلف والخلف فقط؟
ألم يقل لنا تقريرا الأمم المتحدة للتنمية البشرية لعامي 2002، 2003، أن هناك أكثر من ستين مليونا من النساء أميات في العالم العربي؟
متى كنا نحرص على مساواة الرجل بالمرأة في العالم العربي إلا تحت ضغوط دولية مختلفة، ومن خلال منظمات حقوق الإنسان في العالم؟
لا كتاب عربيا أنصف المرأة العربية وأعطاها حقوقها كاملة. القوانين الموضوعة وحدها (تونس مثالا لا حصرا) هي التي أعطت المرأة بعض حقوقها.
الشعب الأردني رفض تمثيل المرأة في البرلمان. والدولة بقانونها الوضعي، هي التي أصرت، وبقوة (الكوتا)، على ادخال المرأة إلى البرلمان من خرم الإبرة العشائرية والدينية المتزمتة.
أمير الكويت المتفتح، طلب من مجلس الأمة الكويتي الموافقة على إعطاء المرأة حق الانتخاب والتمثيل النيابي، ولكن مجلس الأمة رفض ذلك، وما لم يتم فرض هذا الطلب بقانون أميري صارم كما فعلت الدولة الأردنية، فلن تدخل المرأة الكويتية مجلس الأمة.
الدستور العراقي الديمقراطي الجديد فرض فرضا أن تكون النساء ممثلات في سائر مرافق الدولة التنفيذية والتشريعية بنسبة 52 بالمائة.
وبعد، أليس كل هذا كافيا لكي نبطل العجب مرة أخرى، من الإرهاب السائر اليوم في أنحاء متفرقة من العالم العربي، بعد أن عرفنا الأسباب التي ظهر منها، وما بطن كان أعظم، وأشد إيلاما

لماذا أصبحنا لا نهتدي إلا بالعصا؟!

* لماذا أصبحنا لا نهتدي إلى الصراط المستقيم إلا بالعصا.. وبالعصا الغليظة؟
لماذا أصبحت الأنظمة العربية لا تقدم على أي إصلاح سياسي، أو تعتذر عن أي عمل إرهابي، أو نعترف بالخطيئة السياسية الأخلاقية، إلا إذا رفعت العصا الغليظة في وجهنا من قبل من يسلطه الـلـه علينا، لكي يقوم أمورنا، ويضع موازيننا في نصابها الصحيح، تصديقا لقوله تعالى {وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون}؟
لماذا لا تقوم الأنظمة العربية بإجراء الانتخابات التشريعية إلا عندما ترفع العصا الغليظة في وجهها، بعد أن تكون قد أجلتها سنوات وسنوات لأسباب واهية، منها الوضع الإقليمي تارة، والوضع العالمي تارة أخرى، والحرب مع إسرائيل تارة ثالثة، في حين أن إسرائيل التي تعيش معنا في المنطقة نفسها، والتي تتعرض للمشاكل نفسها، لم تؤجل انتخاباتها يوما واحدا عن موعدها المقرر، بل بكرت بها في أحيان كثيرة، ولكنها لم تؤجلها؟
إقرأوا ما قاله تقرير (مركز ابن خلدون)للدراسات الإنمائية بالقاهرة عن تقدم المسيرة الديمقراطية في العالم العربي عام 2004 من دون بقية الأعوام العربية السابقة منذ الاستقلال في الخمسينيات وإلى الآن، وذلك بفضل ما جرى في العراق، وبفضل ضغط الغرب على العالم العربي لتحقيق الإصلاحات السياسية اللازمة.
لماذا ترمي بعض الأنظمة العربية لجان الدفاع عن حقوق الإنسان بالتعصب، والتدخل في الشؤون الداخلية، وإدخال أنفها فيما لا يعنيها. ولا تسمح هذه الأنظمة لهذه اللجان بزيارة أقطارها، ودخول سجونها، والتعرف على أحوالها، وفتح مكاتب لها في عواصم هذه الدول، إلا

عندما ترفع العصا الغليظة في أوجه هذه الأنظمة؟
لماذا تقوم بعض الدول العربية الغنية بدعم الإرهاب، وإسقاط الطائرات المدنية، وقتل الأبرياء، ثم التنكر والتملص من هذه العمليات، والقسم بأغلظ الأيمان بأنها بريئة من هذه الفعلة الشنيعة. ولكن ما إن تفرض عليها العقوبات الدولية، وتتشدد الدول في عقابها، وتطرقها بالعصا الغليظة حتى تعترف، وتدفع المليارات تعويضا لضحايا إرهابها، ولا يتساءل الشعب من الذي سيدفع هذه المليارات وثمن ماذا ؟
لماذا لا تستجيب السلطة الفلسطينية لنداء الديمقراطيين والليبراليين الفلسطينيين والعرب والغربيين بضرورة إحداث منصب لرئيس الوزراء الفلسطيني، واعطائه الحق في تشكيل حكومة فلسطينية إلا عندما ترفع العصا الغليظة في وجه السلطة الفلسطينية لتعلم أن الـلـه حق؟
لماذا لا تقف بعض الأنظمة العربية عند حدها في دعم الإرهاب، وإسكات أصواته، وإغلاق مكاتبه، والكف عن التدخل في شؤون الجيران العرب وأنظمتهم السياسية، وتهدئة اللعب السياسي العبثي بالمنطقة، تمهيدا لإيجاد الطريق إلى حل القضية الفلسطينية، إلا عندما ترفع العصا الغليظة في أوجه هذه الأنظمة؟
لماذا لا تسقط الأنظمة الديكتاتورية وترحل عن الحكم بطوعها، وشرفها، وبأموالها، وبتابعيها ، وبخدمها، وحشمها، وتبقي لنفسها بعض العزة والكرامة التي كانت تفاخر بها في لماضي، وتضطر أمام العصا الغليظة أن تهرب وتنهار كما تنهار أبراج البسكويت، وكأنها نمور من ورق، أو أسود من قش؟
لماذا نسجن من يطالب بالإصلاح، ونعذبه، وننفيه، ونطرده من وظيفته، ونعتبره خارجيا من الخوارج، وعندما ترفع العصا الغليظة في وجوه بعض الأنظمة العربية تتصالح مع المعارضة، وتستقبلها، وتستمع إلى مطالبها، وتعتبرها جبهة وطنية تعمل لصالح الوطن والمواطن؟

لماذا ننام دهورا طويلة في العسل، ونهمل حرية المواطن وعقده الاجتماعي، ولا نقر له دستورا، وندعي أن القرآن هو سيد الدساتير ولا دستور غيره، وعندما ترفع العصا الغليظة في وجه بعض الأنظمة، تسارع مسارعة إلى وضع الدستور، وتدعي أنه موضوع من سنوات، ولكن لم تأت الفرصة المناسبة لطرحة للاستفتاء، ولا يطرح للاستفتاء الشعبي إلا عندما ترفع العصا الغليظة؟

لماذا نصادر مؤسسات المجتمع المدني، ونقفل النقابات والاتحادات والأندية، وندعي أنها عبارة عن مكاتب لخدمة الاستعمار، ولكن عندما ترفع العصا الغليظة، نتحول بقدرة قادر إلى حماة لهذه المؤسسات، ونتسابق إلى دعمها، وإفساح المجال أمامها لكي تعبر عن شؤونها وشجونها؟

إنها الديكتاتورية العربية بكل بساطة.

الديكتاتورية الحزبية، والديكتاتورية العسكرية، والديكتاتورية القبلية، والديكتاتورية العائلية، التي تحكم العالم العربي الآن.

بوركت أيتها العصا الغليظة، عصا (الشيطان الأكبر)، عصا (الانحلال الخلقي)، عصا العولمة، عصا الاستعمار الجديد، عصا الهيمنة، عصا القوة العظمى الأحادية، عصا الغزو الصليبي، عصا الإلحاد، عصا من علم العالم الإرهاب وسوقه، عصا امتصاص دم الشعوب، عصا السيطرة على ثروات الأمة العربية، عصا السيطرة على النفط العربي، عصا الاحتلال، عصا القواعد العسكرية، العصا المتآمرة مع الصهيونية، عصا اللوبي الصهيوني في واشنطن، عصا العصاة من الحكام العرب.

إن الديكتاتوريات التي قادت شعوبها بالعصا إلى عصور الظلمة والظلام والطغيان والقهر، هي التي تساق اليوم بالعصا لكي تقر الحريات والديمقراطية .

ماذا يحدث في عالم من السحر والشعوذة والجان عند العرب؟

* منذ نصف قرن ويزيد، تجتاح العالم العربي موجات متتالية من السحر والخرافة والشعوذة وعالم الجان. ومن الملاحظ أنه كلما اشتدت الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالعالم العربي، هرب العالم العربي إلى الوراء نحو الخرافة والسحر وعالم الجان. وأصبح الهذيان السياسي هو الدواء العربي الفعال للأزمات السياسية. وأصبحت الغيبيات هي الملجأ الوحيد للهروب من الفقر، والفاقة، وقلة المعرفة. وأصبح المستقبل محكوما لعالم غير واقعي وغير مادي، ينسجه خيال السحرة، والمشعوذين، والدجالين، وضاربي الودع، وقارئي الفنجان. فالوسائل الخرافية، والأساليب السحرية، لا تزال تشغل حيزا كبيرا داخل الذهنية العربية في مواجهتها للواقع، وردها على العجز والإحباط، ولا سيما في مجال اكتشاف المجهول. وكل ذلك نتيجة عدم قدرة العربي على التحكم الحقيقي بالواقع، والسيطرة على المستقبل.
لقد قال العفيف الأخضر في مقاله (كيف تضافر جرحنا النرجسي ونرجسيتنا الدينية على تدمير مستقبلنا؟) (أن نرجسيتنا الدينية المتحالفة مع جرحنا النرجسي جعلت الفكر السحري، بما هو]كن فيكون[وخلق الفكر للفعل، والكلمة للشيء، وقدرة الإرادة على خرق قوانين الطبيعة والعلم، سائدا وهو ما ترك المجال فسيحا للهذيان السياسي - الديني والاستخفاف بموازين القوى في الصراعات العسكرية والسياسية، والاتكال على الـلـه والإرادوية).

الوحدة المصرية - السورية والسحر
لقد اندفع السياسيون المصريون والإعلام المصري إلى اللجوء إلى

الخرافة والسحر والشعوذة في تفسير الأحداث العربية السياسية المهمة في الخمسينات من القرن الماضي. ففي أيام الوحدة المصرية - السورية يروي لنا رياض المالكي في كتابه (ذكريات على درب الكفاح والهزيمة) أن عددا من الوزراء السوريين في دولة الوحدة المصرية - السورية كانوا يقومون بادعاء تحضير الأرواح. وأن فاخر الكيالي، أحد الوزراء السوريين المركزيين في حكومة الوحدة، قد قال: (إننا نعمل في القاهرة مع بعض الوزراء المركزيين على عقد جلسات تحضير الأرواح. وأن هذه مسألة (علمية)لا شك في جديتها. والسلطات العليا في القاهرة والمسؤولون الكبار يهتمون بها ويمارسونها. وهي تساعدهم على حل عقد كثيرة في شؤون السياسة والحكم). وهو ما يدل على أن أكبر دولة عربية، وأطول وأعرض شارع عربي، كان يمارس الخرافة والشعوذة في ذلك الوقت.

حرب 1967 والجان

كما يروي لنا محمد حسنين هيكل في مقاله (تحضير الأرواح) الذي كان فضيحة كبرى، نشرها في جريدة (الأهرام)في 1971/5/4 حول اشتغال رجال القمة السياسية المصريين من كبار معاوني عبد الناصر بتحضير الأرواح، ومنهم وزير الحربية الفريق أول محمد فوزي، وسامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر للمعلومات، وشعراوي جمعة وزير الداخلية. وكان الوسيط بين هؤلاء وبين الأرواح المزعومة أستاذا جامعيا وحسب رواية هيكل، فإن هؤلاء كانوا يقومون بسؤال الجان للحصول على إجابات تتعلق بالوضع العسكري والسياسي!

العذراء ستحرر القدس وتعيد سيناء!

وبعد هزيمة 1967 ، انتشرت خرافة ظهور السيدة العذراء في كنيسة الزيتون في القاهرة في العام 1968 على إثر هزيمة 1967، وكيف أن السيدة

العذراء هي التي ستحرر القدس، وتعيد سيناء. وكيف تولت جريدة (الأهرام)في ذلك الوقت الترويج الإعلامي الواسع لهذه الخرافة ونشرت في 1968/5/5 صورا للعذراء تظهر بكاملها على سحاب ناصع البياض، أو بشكل نور يسبقه انطلاق أشكال روحانية، تشبه الحمام. وكيف أن عددا من أساتذة الجامعة تصدوا (لعلمنة)هذه الحادثة. وقام رجال دين ومفكرون وعلماء بكتابة مقالات (علمية)لإثبات هذه الحادثة وتعليلها، وذلك كله نتيجة لخيبة الأمل والهزيمة الكبرى التي حلت بالأمة العربية في العام 1967.
وهناك القصة التي روتها فتاة مصرية تقول فيها إن العذراء قد أجرت لها عملية جراحيـة ناجحة .
وقامت مجلة (روز اليوسف)في 1972/9/18 بالترويج لهذه القصة، ونشر تفاصيلها. وكان ذلك كله بوحي من السلطة الحاكمة لتخدير الشارع العربي المهزوم والمجروح في كبريائه القومي والوطني.
كما قام كثير من الكتاب والصحافيين المصريين بالانشغال بمسألة تحضير الأرواح، وعلى رأسهم أنيس منصور، في شرحه الوافي لطريقة تحضير الأرواح بالسلة في كتابه الذي نال عليه جائزة الدولة (حول العالم في 200 يوم). وكذلك قام مصطفى محمود بعقد مقارنة بين الكائنات الخفية وأشعة إكس والأشعة تحت الحمراء في كتابه (لغز الموت، ص 172). كما نشر أنيس منصور في كتابه الشهير (حول العالم في 200 يوم) كيف أن السفير المصري في جاكرتا في إندونيسيا وطاقم السفارة هناك، بما فيهم الملحق العسكري والملحق الصحافي والملحق الثقافي، كانوا يقومون بتحضير الأرواح بالسلة. وشرح لقرائه في جريدة (أخبار اليوم)كيف يمكن لأي قارئ أن يقوم بذلك بسهولة في بيته، ويستحضر من يريد من الأرواح بقليل من البخور!
ولم يكتف منصور بترويج (تكنولوجيا الأرواح)هذه، بل ذهب إلى

تقديم (مساهمة نظرية)في علم الأرواح عرضها في كتابه المذكور، كما يقول إبراهيم بدران وسلوى الخماش، في كتابهما: (دراسات في العقلية العربية:الخرافة، ص 272).

الشيخ الشعراوي وحروب الملائكة

من ناحية أخرى، كان الشيخ محمد متولي الشعراوي، الداعية الإسلامي المشهور، يكره الحكم الناصري، ويعده حكما شيوعيا، ولذا فقد صلى ركعتين شكرا لله على هزيمة 1967. وقال إن الملائكة هبطت من السماء، ودحرت قوات الإلحاد (القوات المصرية). في حين كان الشعراوي يحب السادات ويؤيده، وتولى في عهده وزارة الأوقاف. وقال كذلك، من أن الملائكة حاربت إلى جانب القوات المصرية في اكتوبر 1973. وكان ذلك سبب النصر الجزئي المحدود للجيش المصري.

صدام حسين الخرافة بعينها

أما صدام حسين فقد كان الخرافة بعينها من خلال شخصيته وتصرفاته وحماقاته وقرارته وحروبه. ولعل العالم العربي في العصر الحديث لم يشهد حاكما خرافيا كما شهد في شخصية صدام حسين.

كتب حمزة الحسن في مقاله (الروائي صدام حسين: مسخ الكائنات) يقول:

صدام حسين حين لا يكتب اسمه على رواياته فلأن السبب بكل بساطة هو أن الذي يكتب اسمه هو كائن بشري، وهو يعد نفسه أسطورة، وهوية الأسطورة هوية مغايرة، وما تقوله الأسطورة لا يقوله بشر. وصدام حسين حين يسبح في النهر فهو لا يسبح في النهر ـ حسب هذا الخيال المجنح ـ بل إن النهر هو الذي يسبح فيه، لأن من طبيعة الأساطير هو كونها أكبر من عالم الواقع، وهي التي تخلقه وتبدله وتنسفه

إذا تطلبت الأحوال.
إن جسد صدام حسين العاري في النهر يمثل انتصار الخرافة على الواقع، وسيطرة الأسطورة على الكائنات، وهيمنة اللابشري على البشر، وقدرة الجسد المفرغ من الشهوة والرغبة الآدمية على مسخ الكائنات.
وغرام صدام حسين بالأزياء لا يأتي من احترام التقاليد أبدا، بل هو غرام الجسد بنفسه، وهي فتنة الإغواء حين تستعرض قوتها وجسدها أمام الضحايا، الذين لا يملكون أمام جبروت الموت والقوة الغاشمة (الخرافة) سوى الصمت والسكوت.
وحين يبدل صدام حسين شكل الطبيعة - تجفيف الأهوار - فلأن الأهوار بالنسبة له ليست مستنقعات مائية تتضمن حضارة عريقة وشكلا من أشكال الحياة الموغلة بالقدم، ومصدرا للعيش والتناسل، بل إن هذه الأهوار كما يراها هي مصدر للخطر، والخطر يتعارض مع الآلهة ويتقاطع مع طموح الخرافة. هذا الكائن الخليط من السياسة وأيديولوجيا القتل والخرافة والأسطورة وتقاليد الشوارع الخلفية، هذا النازل على السلطة بمسدسات قديمة من المقاهي والحارات وبارات منتصف الليل، هل ولد من فراغ اجتماعي أو سياسي أو فكري، أم أنه ابن هذه المكونات؟
لا شك أن صدام حسين ابن حقبة من تاريخ العراق السياسي، كانت أيديولوجيا قتل الخصم والتنكيل به ومصادرته، روحا وجسدا، هي النـزعة الشرعية القائمة آنذاك، وهذه النـزعة كانت تعرف نفسها على أنها (النـزعة الثورية). وهي وليد مفاهيم كانت سائدة، ولا يزال بعضها يعيش في السلوك السياسي. وهي مفاهيم تصفية الخصم، والمبادرة الثورية، وقوى الثورة المضادة، ومهاجمة العدو وهو في مرحلة النوايا، وأعداء التاريخ، والأمة، والطبقة، والعقيدة، والجريدة، والرفيق، والصورة، والخطاب، والافتتاحية.. الخ.
وصدام حسين الخرافي في حروبه الدونكيشوتية، كان يعتمد على

الخرافة كذلك في قرارات الحرب. فبعد غزو الكويت في الثاني من أغسطس 1990 وعشية حرب الخليج الثانية، قال صدام حسين لـ (سي إن إن): (سأنتصر على بوش لأن الـلـه معي، وسيهزم بوش لأن الشيطان معه). وكان صدام يؤمن بكل كلمة قالها. وهذا هو السبب النفسي لغياب الواقعية والعقلانية لدي كثير من صانعي القرار السياسي والعسكري في العالم العربي.

وهل تعلمون كيف اتخذ صدام حسين قرار غزو الكويت، الذي كاد أن يتحول إلى حرب عالمية ثالثة؟ فحسب رواية سعد البزاز في كتابه (الجنرالات آخر من يعلم، ص 101) التقى صدام حسين في الكويت يوم 1990/8/10 بأخيه غير الشقيق سبعاوي ابراهيم، الذي كان مديرا للمخابرات، مع عدد من كبار ضباط هذا الجهاز ومديريه، وحدثهم مطولا عن دوافع دخول الكويت قائلا:

- هل تعتقدون أن قرار استعادة الكويت كان قراري؟

لا، إطلاقا

انها رؤية في المنام، وجدت نفسي ملزما بالاستجابة لها!

إنها إرادة الـلـه، ودورنا هو أن ننفذها.

وما إن انطلقت حرب الخليج الثانية حتى قام بعض شيوخ الدين في الأردن، الذين كانوا يتلقون مرتبات شهرية من صدام، بالوقوف في ليالي الصيف الصافية على أسطح المنازل والدعاء لصدام بالنصر على الشيطان الأكبر. وقالوا بأنهم رأوا صورة صدام على سطح القمر، يحمل سيفا، ويركب حصانا أبيض، وقد تكلل بهالة من النور.

وقد سبق لنـزار قباني أن قال لصدام قولا خرافيا، وهو يقبله على جبينه في أحد مهرجانات (المربد):

- أني أشم فيك رائحة عمر بن الخطاب!

ورغم هزيمة صدام في حرب الخليج الثالثة، إلا أنه سوف يدخل التاريخ العربي - على حد قول أوري أفنيري - كأحد الأبطال المحبوبين، الذين لم يهربوا من وجه الأعداء، رغم قوتهم الهائلة. أجيال من الأولاد في الدولة العربية كافة ستتعلم في المدرسة عن صدام، كأحد أبطال الأمة العربية، وكوريث صلاح الدين الأيوبي. فلقد انقضت أكبر آلية عسكرية في التاريخ، كما يعرفونها، على شعب عربي صغير، تم تدمير أغلبية أسلحته قبل الحرب، وقد قاوم هذا الشعب ببسالة القنابل والصواريخ، دون أن يكون لديه غطاء جوي. وهذا ما يبدو الآن بالنسبة لكل العرب أينما كانوا، وهم يقارنون صدام بزعمائهم. وابتداء من هذه اللحظة، ستتعاظم الخرافة، وستتحول إلى أسطورة وطنية!

دولة فلسطين تقام بعلم الغيب!

وفي العام 1999 صرح الشيخ ياسين، زعيم منظمة (حماس)الروحي، بأن إسرائيل حسب القرآن والتوراة ستزول سنة 2027؛ أي بعد أربعين عاما من قيام الانتفاضة سنة 1987، وعندئذ ستقوم دولة فلسطينية على كل فلسطين.

وفي (قناة الجزيرة)وفي برنامج (الاتجاه المعاكس)قال زعيم (الجهاد الإسلامي)عبد الـلـه شلح، ردا على العفيف الأخضر (إن الإخوة في حماس لا يشاطرون الشيخ ياسين هذا الرأي) لكن في العام 2001 عاد أخصائي بريطاني في الشؤون الفلسطينية من غزة مستغربا كيف أن جميع قادة حماس مقتنعون بحتمية زوال إسرائيل عام 2027 ، كما أكدت هدى الحسيني في جريدة (الشرق الأوسط).

كارثة 11 سبتمبر والتحليلات الغيبية

وعندما حلت كارثة 11 سبتمبر، تصدى كتاب الغيبيات لهذه

الظاهرة. فكتب فهمي هويدي الذي يعد نفسه من خبراء (المسألة الأفغانية)، ومن محللي السياسة الدولية، والمحيط بتاريخ الجماعات الإسلامية الأصولية وفكرها، مندهشا ومستغربا ومتسائلا بوعي المحقق البوليسي الخبير والعالم بالجرائم الكونية المدمرة عن كيفية ما تم وقال إن الطريقة التي تم بها ذلك تثير شكوكا قوية حول هوية الفاعلين، خصوصا أن الأداء في هذه العلمية يتجاوز بكثير سقف المحاولات التي قام بها ابن لادن وجماعته، ذلك أن العملية تتطلب تنظيما خارقا، كما تتطلب مستوى رفيعا من الكفاءة الفنية في قيادة الطائرات، ناهيك عما توفر لها من خيال وابتكار واسعين. وهذه العناصر لم تتوافر من قبل في أي عملية، ولم تجتمع، إن شئت الدقة، في أي عملية قام بها منسوبون إلى الشرق الأوسط خلال الأربعين سنة الأخيرة على الأقل، كما قال في مقاله (مشاهد مسكونة بالعبث). وكأن هويدي يريد بذلك أن ينسب هذه العملية البشعة بطريقة غير مباشرة إلى الجان، ويبرىء الأصولية الدينية منها.

كما تصدى مصطفى محمود، الكاتب الغيبي الآخر لهذه الحادثة، كعادته في التصدي للقضايا (المصيرية الكبرى)في جريدة (الأهرام)في مقاله (حقيقة ما حدث في أمريكا)، وهوم تهويمات خيالية بعيدة عن الشرق وجنونه وإسلام الجماعات الأصولية. وقال، إن من نفذ هذه العملية، وأوقع هذه الواقعة ليسوا من المسلمين، ولا من العرب، ولكنهم من أتباع المسيحيين السبتيين Adventist الأمريكيين. وهم أتباع (كنيسة السبت)التي تؤمن بقرب المجيء الثاني للمسيح. وهو لا يعتقد بأن ما حدث كان من عمل جماعات إسلامية، ولا يظن بأنه كان بأيدي جماعة ابن لادن. فقد كان الأداء فوق مستوى الحسابات الأمريكية. وكان المهاجمون ينفذون نصا مدرسيا بمهارة. والاحتمال الأكبر أن الذي فعل هذا الفعل وأوقع هذه الواقعة هم من اليمين الأمريكي، المعارضين لنظام

الحكم الأمريكي، الذين أقسموا بأن يذيقوا أمريكا أسود أيامها.
وخرج محمد حسنين هيكل (إمام الرأي السياسي العربي) بدراسة غيبية أخرى من 18 صفحة في 10/1/ 2001 ساح فيها وجاح، تدلل على أن الذين أوقعوا هذه الواقعة ليسوا عربا وليسوا مسلمين، وإنما هم من الصرب! وهو تخمين لا يجرؤ على القول به معلق محلي متواضع ولصيق بالرأي العام ونبض الشارع. وجاءت (تفانين)هيكل كالعادة في هذه (المناسبات والمنازلات الكبيرة)التي يكتب فيها ويحجب (يستطلع الحجب) ويفتح في الرمل والفنجان، وهو الذي يشكل الآن جزءا كبيرا من العقل السياسي العربي المعاصر، كما يساهم مساهمة كبيرة بتشكيل الرأي العام العربي المفتقد، كإمام للرأي العام العربي على حد تعبير وضاح شرارة. وينتظر الرأي العام العربي ملهوفا تفاسير وشروحاته إمامه هيكل للأحداث الجارية. ويتخذ من هذه التفسيرات والشروحات دليلا واضحا وهاديا يهتدى به في الصالونات السياسية والأندية الحزبية والمنتديات الفكرية، حيث تدور المساجلات وتحتدم النقاشات.
وقال هيكل بالفتوى السياسية الغيبية التالية في مقاله (حريق أمريكي وعالمي):
(إن ابن لادن ليس لديه قوة وحش فرانكشتين. فهو على وجه القطع لا يستطيع أن يخطط أو يدير أو يسيطر على عمليات من نوع صواعق نيويورك وواشنطن، فضلا عن أنه لا يظهر ما يؤكد أن صواعق نيويورك وواشنطن مسألة لها علاقة بحق عربي مغتصب في فلسطين أو بحق إسلام يتهم بما ليس فيه هذا الزمان. والواضح أن المسألة أوسع من ذلك وأعم. والأغلب أن تتصل بعولمة الرفض والإرهاب أكثر مما تتصل بخصوصية القضايا العربية أو الإسلامية. وأن ابن لادن وتنظيمه ليس مراقبا فقط ولكنه مخترق من أجهزة أمن محلية، أولها المخابرات الباكستانية العسكرية والمدنية، وهي الراعي الأساسي لطالبان، ثم

مخابرات الهند، بالإضافة إلى خمسة أو ستة أجهزة مخابرات عربية وأوروبية. والشواهد تكاد تنطق بأن الفاعل طرف مستجد على الساحة).
ورجح هيكل أن يكون من أوقع واقعة الحادي عشر من سبتمبر 2001 هم من الصرب! وساق حججه الواضحة والمبررة عبر حكايات طويلة وتهويمات سياسية غيبية كعادته.

عشرة مليارات جنيه مصري لقراءة الغيب!
وفي تقرير أعدته فابيولا بدوي في جريدة (الحياة)، 2003/6/29، قالت فيه:
إن الفقراء في مصر - وهم الآن غالبية الشعب - يعتبرون الدجل والخرافات والشعوذة الزاد الحقيقي لمعظمهم. فقد أثبتت أحدث الدراسات التي أجراها (المركز القومي للبحوث الجنائية بالقاهرة)أن المصريين ينفقون عشرة مليارات جنيه مصري سنويا على قراءة الغيب وفك السحر والعلاج من الجان. وهذا مبلغ يفوق فعليا ما تحصل عليه مصر من قناة السويس نتيجة عبور السفن فيها. كما أشارت الدراسة نفسها إلى أن هناك 274 خرافة تسيطر على سلوك أهل الريف والحضر، وأنه يوجد ما يقرب من 300 ألف شخص يدعون لأنفسهم القدرة على العلاج من الأمراض عن طريق تحضير الأرواح، و003 ألف آخرين يعالجون الأمراض والمس من الجن بالقرآن أو بالإنجيل. وأن هناك مليون مصري على الأقل يعتقدون أنهم ممسوسون من تحت الأرض. وأن نصف نساء مصر يعتقدن اعتقادا جازما بتأثير السحر عل جوانب الحياة، خاصة الاجتماعي منها.

دجال لكل 042 مصري
وتؤكد الدراسة المذكورة في إحدى فقراتها على أن هناك دجالا لكل 240 مواطنا، يعينه على كشف الغيب.

وليس بالغريب أو الجديد أن يسيطر تيار الخرافة والدجل على العقل الجمعي لمجتمع ما، كردة فعل على الأزمة الحياتية التي يعانيها. فبعدما فاقت نسبة البطالة التراكمية 32 في المائة من مجموع أفراد قوة العمل البالغين، تتفشى بيروقراطية من لا ينتجون، ممن يؤذيهم أن ينتج غيرهم. وبعض هذه العوامل، وليس كلها، كاف لأن يؤدي إلى احتراف الدجل والاحتيال على المستويات السياسية والدينية والاجتماعية كافة. وهو ما تبلور إلى مناخ معاش يحمل إلينا كل يوم الجديد من المفردات والأساليب والسلوكيات والتبريرات، التي تعكس مدى الخلل النفسي الذي يعيشه السواد الأعظم من الشعب المصري. وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى ما جاء في أحدث الدراسات النفسية المصرية من أن (19 مليون مواطن مصري يعانون من ظهور أعراض اكتئابية عليهم، بينهم خمسة ملايين شخص مريض بالاكتئاب بالفعل).

خمسة مليارات دولار على الشعوذة

وفي دراسة ميدانية حديثة قام بها محمد عبد العظيم بمركز البحوث الجنائية في القاهرة، أشارت إلى أن ممارسي السحر يخلطون بين السحر والدين، ويزعمون أن لهم القدرة على علاج الأمراض، وأن هناك زهاء 300 ألف شخص في مصر يدعون علاج الأمراض بتحضير الأرواح، وأن 250 ألفا أي ربع مليون دجال، يمارسون أنشطة الشعوذة في عموم الدول العربية، وأن العرب ينفقون زهاء خمسة مليارات دولار سنويا على السحر والشعوذة، وأن نصف نساء العرب يعتقدن بفعل الخرافات والخزعبلات ويترددن على المشعوذين سرا وعلانية.

الصحافة المغربية وإعلانات الدجل

وإذا كانت الدراسة السابقة قد كشفت عن صرف هذه المبالغ الكبيرة

على الشعوذة داخل المجتمع المصري، فإن عددا من الصحف المغربية، كما يقول (عبد لاوي لخلافة)، تقتات على مداخيل إشهارات للدجالين والمشعوذين، إذ تخصص هذه الصحف حيزا يوميا أو أسبوعيا أو شهريا في أسفل صفحاتها لإعلانات الشعوذة والصداقة الوهمية، وأرقام أصحابها الهاتفية لتسهيل الاتصال بهم.

هذا بالإضافة إلى وجود عدة محلات في مختلف مناطق المغرب مخصصة للشعوذة تقصدها شريحة متنوعة من المغاربة، كما أن بعض المشعوذين يستغلون مناسبة الأسواق التجارية والمناسبات الخاصة بالأولياء للترويج لتجارتهم، على مرأى من السلطات القريبة من أماكن هذه المناسبات.

وفي هذا السياق، قال صاحب جريدة مغربية، فضل عدم ذكر اسمه، إنه يتلقى ثلاثة آلاف درهم مقابل إشهاره لإعلانات الدجالين والمشعوذات ونشر أرقامهم الهاتفية، إذ يدعون قدرتهم على التنبؤ بالمستقبل وحل المشاكل العاطفية، والتسريع بالزواج والشغل.

وتكلف المكالمات الهاتفية مع هؤلاء المشعوذين والمشعوذات تسعيرة عالية، تتراوح بين ستة وسبعة دراهم للدقيقة الواحدة، ويتم استهلاك جل وقتها -حسب أحد المجربين لها- في مقطوعات موسيقية لمزيد من ابتزاز الضحايا المغفلين.

ولا توجد إحصاءات رقمية لعدد هؤلاء المشعوذين بالمغرب، مع العلم أنهم يمارسون خزعبلاتهم بشكل مريح لا تقلق راحتهم تدخلات أمنية، إلا ما كان من خطب ومواعظ علماء وفقهاء في مناسبات محدودة.

فتوى سعودية بشرعية الزواج من الجن

وفي السعودية، تنتشر الخرافة بشكل كبير، ويتوافد كثير من رجال الأعمال السعوديين وزوجات الطبقة الغنية إلى المغرب للالتقاء بالمشائخ

المغربيين، وعقد جلسات الشعوذة، والجلسات الصوفية المبتذلة والخرافية، وكتابة (الأحجبة)لطلاق فلان من فلانة، أو لعودة فلانة إلى فلان، أو للتفريق بين فلان وفلانة. وتقول منال الشريف في جريدة (الوطن)السعودية (2003/6/18) على لسان الشيخ عبدالحق المسفوي، أشهر الشيوخ المعالجين بالرقية الشرعية في المغرب (أن فصل الصيف في المغرب يعد موسما لصيد الزبائن الأجانب، وبالخصوص الخليجيون، من قبل المشعوذين والدجالين، الذين يوزعون السماسرة على المطارات والفنادق والشقق المفروشة، أو يستعينون بسائقي سيارات الأجرة أو عمال الفنادق أو حراس الشقق المفروشة).

وقد أصبح قول إن فلانة قد عملت (حجابا)لزوجها لكي يطلق ضرتها، أو لكي لا يتزوج غيرها، من الأقوال المتعارف عليها. بل إن بعض الأسر الثرية تحتفظ في منازلها بمشائخ من المغرب (مرفوع عنهم الحجاب)ومن (أولياء اللـه)لطرد الجان والشياطين، ودفع المكروه. وتقول منال الشريف في جريدة (الوطن)السعودية: (أحب أن أخبركم أنني في هذا الصيف التقيت، وبمحض الصدفة، رجل أعمال خليجيا على وشك شراء خادم جني بمبلغ خرافي، حيث أخبره مشعوذ أنه سيشكل الخادم على شكل خنفساء، ليتمكن من حمله وأخذه معه في الطائرة. فتصوروا أن يباع خنفس بآلاف الدولارات). كما أن العلاج بالقرآن من الدواء المأخوذ به لحالات الصرع والجنون والهستيريا والإفلاس المالي والعقلي. كما أن حلول الجان الشريرة في الإنسان من المسلمات بها في السعودية. وإذا كانت مصر تصرف عشرة مليارات جنيه على أعمال الشعوذة والسحر والخرافة، فالسعودية لا بد أن تصرف رقما مشابها، إن لم يكن أكبر.

إضافة لذلك، فقد أفتى مفتي السعودية الراحل الشيخ عبد العزيز بن باز بوجود الجان، وبأنهم يتزوجون، وأصدر فتوى دينية بشرعية الزواج من الجان، استنادا إلى فتوى ابن تيمية التي تقول إن صرع الجن للإنس قد

يكون عن شهوة وعشق، كما يتفق للإنس مع الإنس، وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد. وهذا كثير معروف. ويصف الشيخ عبد الخالق العطار في موقع (لقط المرجان في علاج العين والسحر والمرجان) على الانترنت، الواحد من الجن بأنه (جسم دقيق رقيق لطيف، وهذا النوع هو الذي يدخل بإذن الـلـه جسم الإنسان ويقترن به ، والنكاح بين هذا النوع من الجن وبين الإنس يتم بطريق الإثارة والتهيج من الجن إلى الإنس، في موضع الإثارة العظمى بفرج الإنسي ذكرا أو أنثى. وأطمئن بناتي من بني الإنس أن هذا التناكح لا يترتب عليه هتك غشاء البكارة، ولا ينجم عنه حمل، لأنه لا يعدو إثارة وتهيجا في موضع العفة للفتاة الإنسية). وقد وضع بعض علماء الدين الأشكال التالية لمناكحة الجن للإنس:

1. الاحتلام : وهذا لا يكون إلا في المنام ، وهو معلوم يوجب الغسل بسبب الإنزال.

2. الاستمتاع المنامي : يستمتع الجان بالإنسان في المنام بغير شعور الإنسان ولا يكون معه إنزال ، بكيفية يعلمها الـلـه.

3. المعاشرة الخفية : وهي أن يشعر الإنسان بمن يجامعه وهو في كامل وعيه، ولا يستطيع رده.

4. التشكل : يتشكل الجان على صورة إنسان، وتكون المعاشرة طبيعية، كما هو حاصل بين الإنس .

وقد أثارت فتوى الشيخ ابن باز بجواز زواج الإنس من الجن استنكار جزء كبير من العالم العربي، ودعا صحفا عربية لمهاجمة ابن باز، وعلى رأسها جريدة (القبس)الكويتية، التي قامت بحملة شعواء ضد هذه الفتوى، رغم أن جمعا من شيوخ الإسلام يعترفون بإمكانية التناكح بين الإنس والجن، كما ورد في (لقط المرجان في علاج العين والسحر والمرجان) ويحذرون الإنس من الجماع مع الجن باتخاذ الاحتياطات التالية:

1- يدهن القبل والدبر بالمسك الأسود، أو المسك الأبيض، أو زيت الزيتون الذي قرئ عليه القران، يوميا قبل النوم. كما ينبغي عليه أن يطيب ثياب النوم بالمسك أو دهن العود او الريحان .
2- لا ينام وهو عريانا من الثياب أو بثياب شفافة .
3- أن يقول بسم اللـه الذي لا إله إلا هو، بنية أن يستر اللـه عورته من أعين الجن عندما يخلع ثيابه .
4- يحافظ على أذكار الصباح والمساء والنوم خاصة .
5- يجتنب المعاصي ويحافظ على الطاعات .
6- لا ينام منفردا ويسأل اللـه تعالى أن يحفظه، وأن يكفيه شر من تسلط عليه من الشياطين .

***

وقد يقول قائل:
إن السحر والشعوذة والجان في السياسة والاجتماع غير قاصرة على العرب المحدثين فقط، فالعالم الغربي مليء بهذه الظواهر. بل إن بعض زعماء الغرب كالرئيس الأمريكي السابق ريغان وكارتر وغيرهما، كانوا مسكونين بالسحر والشعوذة والجان.
هذا صحيح.
ولكن الفارق بيننا وبينهم، أننا نحكم سياسيا بدون مؤسسات. فالحاكم لدينا، المتلبس بالسحر والشعوذة والجان، هو الذي يحكم ويصدر القرارات السحرية والمشعوذة والجنية، وليست المؤسسات الدستورية ومؤسسات المجتمع المدني. في حين أن المجتمع الغربي مجتمع ديمقراطي تحكمه المؤسسات الدستورية ومؤسسات المجتمع المدني. والحاكم بالنسبة لهم لا يعني أكثر من موظف يأتي ليحكم ويدير لفترة محددة، ثم يذهب ليأتي غيره. وقد قيل إن المجتمعات الغربية عبارة عن (طائرة بلا طيار)؛ أي أنها في أحيان كثيرة لا تحتاج إلى رئيس أو حاكم، لأن المؤسسات الدستورية هي التي تحكم. ومن هنا فإن الحاكم الغربي، مهما كان غارقا في السحر والشعوذة وقصص الجان، فهو لا يستطيع الانحراف السياسي لأن المؤسسات

الدستورية تضبطه، وتصحح مساره، وذلك على عكس الحاكم العربي. ومن هنا كانت خطورة السحر والشعوذة والجان على الحاكم العربي، وعلى القرار العربي بشكل عام.

وفي مقدمة كتاب (دراسات في العقلية العربية: الخرافة) للكاتبين إبراهيم بدران وسلوى الخماش، يقول المؤلفان بتفرد المجتمع العربي عن غيره في مجال الخرافة، ويكتبان : (نعتقد أن التركيب السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العربي، بكل ما يتضمنه من ضغوط فكرية وسياسية، هذا التركيب بكامله حين تتغلغل فيه الخرافة وخاصة المستندة منها إلى أصول الأيديولوجيا الدينية، سواء كان هذا الاستناد حقيقيا أو وهميا، يصبح تركيبا خاصا، ووضعيته منفردة يتميز بها المجتمع العربي عن غيره)

فأي عالم عربي نعيش فيه الآن؟

أي عالم، تحكمه الخرافة، والسحر، والشعوذة، والجان؟

من هم الليبراليون العرب الجدد، وما هو خطابهم؟

-1-

* ظهر التيار الليبرالي العربي أو التيار العقلاني التنويري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، على أيدي جيلين من المفكرين التنويريين. فكان الجيل الأول يمثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وفرح أنطون وغيرهم. وظهر الجيل الثاني في بداية القرن العشرين، وكان يمثل طه حسين وقاسم أمين ومحمد حسن الزيات وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل وغيرهم. وهؤلاء جميعا اشتركوا في تيار فكري وسياسي واحد كان ينادي بالمبادىء التالية:

- حرية الفكر المطلقة.
- حرية التدين المطلقة.
- حرية المرأة ومساواتها بالحقوق والواجبات مع الرجل.
- التعددية السياسية.
- المطالبة بالإصلاح الديني.
- المطالبة بالإصلاح التعليمي والسياسي.
- فصل الدين عن الدولة. وكان هذا المطلب خاصا بالجيل الثاني لليبراليين العرب في مطلع القرن العشرين.
- إخضاع المقدس والتراث للنقد العلمي.
- تطبيق الاستحقاقات الديمقراطية.

-2-

وفي النصف الثاني من القرن العشرين، ظهر تيار تنويري ليبرالي

قادته مجموعات كبيرة من النخب الثقافية في العالم العربي، استعرضنا فكرها في كتابنا (الفكر العربي في القرن العشرين 1950- 2000) في أجزائه الثلاثة التي صدرت في 2001. وكانت هذه النخب تتبنى خطاب التنويريين العرب في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وتضيف عليه المبادئ التالية:

- محاربة المجتمعات الديكتاتورية العسكرية والقبلية والحزبية المتسلطة، التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين بعد الاستقلال، وأحدثت ما نطلق عليه (كوارث الاستقلال).
- المناداة بإقامة المجتمع المدني.
- إحياء دعوة الإصلاح الديني من جديد.
- التأكيد على العلمانية، وفصل الدين عن الدولة.

وفي نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وبعد 11 سبتمبر 2001 على وجه الخصوص، الذي يعد فاصلا تاريخيا عربيا كما هو من الفواصل التاريخية الأمريكية أيضا كما بينا سابقا، ظهر جيل جديد من الليبراليين، أطلق عليهم الإعلام العربي (الليبراليون الجدد). وهؤلاء نادوا بعصر تنوير جديد، وهو مقدمة لفلسفة المستقبل، وتبنوا أفكار التنويريين الذين جاءوا في القرن التاسع عشر، والذين جاءوا في بداية القرن العشرين، وكذلك أفكار الليبراليين الذين جاءوا في النصف الثاني من القرن العشرين، وأضافوا إليها المبادئ التالية من خلال مواقفهم ومن خلال ما يكتبون، والتي تعد بمثابة مسودة أولى لمانيفستو الليبراليين الجدد:

1- المطالبة، بإصرار، بالإصلاح التعليمي الديني الظلامي، في ظل سيادة الإرهاب الديني، بعد أن تم خطف الإسلام وتزويره، وأدلجته أدلجة دموية مسلحة.

2- الدعوة إلى محاربة الإرهاب الديني والقومي السياسي والدموي المسلح

بسائر أشكاله.

3- تأكيد اخضاع المقدس والتراث والتشريع والقيم الأخلاقية للنقد العميق، وتطبيق النقد العلمي العقلاني بموجب مبدأ الجينيالوجياGenelogy الذي يتلخص بالسؤال التأويلي: من ؟ وبالسؤال التقويمي: لماذا ؟ وبحيث يكون النقد تأويلا وتقويما لا مجرد سخرية وسباب، باعتبار أن الجينيالوجيا هي أداة وعي الحداثة، حيث يصبح النقد الحقيقي سبيلا إلى الرشد الحقيقي.

4- اعتبار موقف الدين العدائي من الآخرين موقفا جاء بناء على ظروف سياسية واجتماعية معينة قبل أربعة عشر قرنا، ولم تعد هذه الظروف قائمة الآن، وانما تغيرت تغيرا كليا، ولذا، يجب عدم الاستعانة مطلقا بالمواقف الدينية التي جاءت في الكتاب المقدس تجاه الآخرين قبل أربعة عشر قرنا لمهاجمة الآخرين الآن وسفك دمائهم. فالمصالح متغيرة، والمواقف متغيرة. والتغير هو سنة الحياة.

5- اعتبار الأحكام الشرعية أحكاما وضعت لزمانها ومكانها، وليست أحكاما عابرة للتاريخ كما يدعي رجال الدين، ومثالها الأكبر حجاب المرأة، وميراث المرأة، وشهادة المرأة.. الخ.

6- إن الفكر الديني، وهو الفكر الذي جاء به علماء الدين وفقهاؤه ورجاله وليس الدين الرسولي نفسه، يقف حجر عثرة أمام الفكر الحر وتطوره، كما يقف حجر عثرة أمام ميلاد الفكر العلمي.

7- لا ولاء مطلقا للماضي المحكوم بماضيه فقط، ولا انغلاق عليه. وفهم الحاضر يدفعنا إلى إعادة النظر في قيم الماضي، وضرورة خلق المستقبل الذي هو لب الحداثة.

8- لا يمكن إنتاج الحاضر بتاريخ الماضي، وإنما بتاريخ الحاضر، والمستقبل كذلك. وشرط تخطي الماضي قائم في الحاضر، وليس في الماضي. وخاصة ماضينا وتراثنا الثقافي الذي أقام مجزرة معرفية لنفسه

بنفسه، وعادى الفلسفة بقيادة ابن تيمية والسيوطي وابن القيم الجوزية وغيرهم، وطرد العقل، واضطهد المعتزلة، وأغلق باب الاجتهاد، وحرم علم الكلام، ونفى أصحاب المنطق، ووضع النصوص الدينية المزورة، التي تحارب الفلسفة والحكمة وإعمال العقل (من تمنطق فقد تزندق)، وألغى العلوم الطبيعة والطب واعتبرها (علوما دخيلة)، واستبدل بها العلوم الدينية والطب النبوي، حتى أصبح النبي أشهر وأحذق من أبي الطب أبوقراط، وحرم الموسيقا والغناء والنحت والرسم والشعر، وسائر أشكال الفنون الإنسانية الرفيعة. فكيف يمكن الاستعانة بهذا الماضي للعبور من الحاضر إلى المستقبل؟

9- إن ضعفنا، وهزالنا، وقلة معرفتنا، وعجزنا العلمي والعقلاني هو الذي يؤدي بنا إلى الاتجاه، إما إلى الماضي للاستعانة به لبناء الحاضر، وهو أسوأ الخيارات، حيث لا يملك الماضي إلا ماضيه فقط الذي انتهت صلاحيته في وقت مضى، ولم يعد صالحا للحاضر، وإما اللجوء إلى الخارج لبناء الحاضر، وهو أقل الخيارات سوءا .

10- على العرب أن يتخلوا عن المثل الأعلى الموهوم الذي يتقمصوه تخيلا، ومكابرة، واستعلاء، وانتفاخا كانتفاخ الطواويس (لنا الصدر دون العالمين أو القبر).

11- الإقرار بأن التاريخ محكوم بالقوانين وليس بهوى الشعوب ولا بخيالها ولا بتعلقها بماضيها. ولا شعب يقدر على تشكيل التاريخ حسب رغبته بالعودة إلى الوراء، واستعادة أمجاد سالفة ومدنية وحضارة سابقة. وأن الكمال البشري، كما قال قاسم أمين، ليس موجودا في الماضي.

12- الإيمان بأن اغتراب العقل لا يحقق غير سيادة الهمجية والغوغائية والمجتمع الدموي.

13- طرح أسئلة على المستويات كافة لم يسبق طرحها في الماضي من قبل تنويريي القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، بدءا من الأفغاني وانتهاء بطه حسين، وكسر جوزة المسكوت عنه.

14- تبني الحداثة العربية تبنيا كاملا باعتبارها هي التي تقود إلى الحرية. والتفريق بين الحداثة الغربية والحداثة العربية. فلكل أمة حداثتها الخاصة بها.

15- تحرير النفس العربية من أوهامها، ومن السحر والتعاويذ والشعوذة التي تحيط بها.

16- تحرير النفس العربية من ماضيها، ومن حكم الأسلاف الذين ما زالوا يحكموننا من قبورهم.

17- عدم ادعاء المعرفة المطلقة والأحكام النهائية. وأن لا وجود لعلم مطلق، وضرورة أن نظل منفتحين على الحقيقة.

18- خلق شخصية عربية جديدة متحولة من العنف والذل واللاعقلانية والدروشة والقبلية والعرقية إلى شخصية عقلانية واقعية علمية وطنية لا عرقية.

19- العودة إلى الذات ونقدها، والعودة إلى الوعي بالذات لا كأفراد ولكن كأمة، وهزيمة الأساطير. ولا يكفي أن نهزم الأساطير، ولكن علينا ملاحقة ظلالها في الكهوف والمغارات أيضا

20- عدم الحرج من الاستعانة بالقوى الخارجية لدحر الديكتاتورية العاتية واستئصال جرثومة الاستبداد وتطبيق الديمقراطية العربية، في ظل عجز النخب الداخلية والأحزاب الهشة عن دحر تلك الديكتاتورية وتطبيق تلك الديمقراطية. وهذه ليست سوابق تاريخية، فقد استعانت أوروبا بأمريكا لدحر النازية والفاشية العسكرتاريا اليابانية في الحرب العالمية الثانية، وقامت أمريكا بتحرير أوروبا، كما قامت بتحرير الكويت والعراق.

21- لا حرج من أن يأتي الإصلاح من الخارج، ولكن بالطرق الديبلوماسية، والمهم أن يأتي سواء أتى على ظهر جمل عربي، أو على ظهر دبابة بريطانية أو بارجة أمريكية أو غواصة فرنسية. وقد سبق للفيلسوف العربي القديم، وهو الكندي، أن قال بأن (علينا أن نأخذ الحقيقة من أي كان سواء كان مشاركا لنا في الملة أو لا).

22- الإيمان بأن لا حل للصراع العربي مع الآخرين، سواء في فلسطين أو خارجها، إلا بالحوار والمفاوضات والحل السلمي في ظل عدم تكافؤ موازين القوى العسكرية والعلمية والاقتصادية والعقلية بين العرب وأعدائهم.

23- الإيمان بالتطبيع السياسي والثقافي مع الأعداء، والاعتراف بالواقعية السياسية وما يجرى على أرض الواقع العربي السياسي، وعدم دفن الرؤوس في رمال الصحاري العربية المحرقة والمهلكة، وأن التطبيع والتلاقح بين الشعوب والثقافات هو الطريق إلى السلام الدائم في الشرق الأوسط، وأن اتفاقيات السلام كاتفاقية كامب ديفيد 1979 واتفاقية اوسلو 1993، واتفاقية وادي عربة 1994 يجب أن تصبح اتفاقيات شعبية بين الشعوب، بدلا من أن تكون اتفاقيات دول فقط، ولا علاقة للشعوب بها. فذلك ضياع للوقت وللمصالح وتزوير للحقائق السياسية القائمة على أرض الواقع سواء رفضنا أم قبلنا، وأن نفور الانتلجنسيا العربية الممزقة من جهة والرثة من جهة أخرى من التطبيع، لن يلغي احتمالات السلام الحتمية في المنطقة، والذي هو السبيل إلى التغيير الشامل.

24- الوقوف إلى جانب العولمة وتأييدها، باعتبارها إحدى الطرق الموصلة إلى الحداثة الاقتصادية العربية التي يمكن أن تقود إلى الحداثة السياسية والثقافية.

25- المطالبة بمساواة المرأة مع الرجل مساواة تامة في الحقوق والواجبات

والعمل والتعليم والإرث والشهادة. وتبني مجلة الأحوال الشخصية التونسية التي صدرت 1957، والتي تعتبر النموذج العربي الأمثل لتحرير المرأة العربية، دون الحاجة إلى تبني قيم الغرب في تحرير المرأة، ومساواتها بالرجل.

-3-

وبعد هذا الخطاب (المانيفستو) الذي نكشف عنه لأول مرة بهذه الصياغة الأولية لليبراليين العرب الجدد، ما هي العلاقة بينهم وبين المحافظين الجدد في أمريكا، والتي يحاول الإعلام العربي وبعض المثقفين، ربط هذين الفريقين ببعضهما إساءة إلى كليهما، والحط من قدر كليهما، والاستخفاف بهما؟

وانطلاقا من هذا الربط المزور بين المحافظين الأمريكيين الجدد وبين الليبراليين العرب الجدد، يطلق الإعلام العربي على الليبراليين الجدد ألقابا وصفات دونية منها:

- إنهم يقومون بدور مقاولي الأنفار لإصدار صحف وإذاعات تروج للهيمنة الأمريكية، كما يقول موقع الإخوان المسلمين على الانترنت.
- إنهم كتاب المارينـز، كما يصفهم الكاتب (السلفي الجديد)رشاد أبو شاور وغيره من السلفيين الجدد المقنعين بقناع الليبرالية الكاذبة.
- إنهم الليبراليون المتأمركون، كما يصفهم أسامة عبد الرحمن.
- إنهم من فاقدي الرؤيا السياسية المنافقين، كما يصفهم سيد نصار.
- إنهم كتاب الطابور الخامس كما يصفهم كتاب حزب البعث.

والحقيقة أن لا علاقة سياسية ولا فكرية بين المحافظين الجدد في أمريكا وبين الليبراليين الجدد في العالم العربي، فيما عدا نقاط ثلاث فقط، يلتقي فيها الليبراليون الجدد مع المحافظين الجدد، وهي:

- تحدي أمريكا لنظم الحكم الديكتاتورية.

- تعزيز الإصلاح السياسي وحرية السوق في العالم ودعمهما.
- أن قيم الحرية والديمقراطية وحرية السوق ليست حصرا ووقفا على شعب دون الآخر.
وما عدا ذلك فكلا التيارين مختلفان. فالتيار الأول من المحافظين الجدد حكام وصناع قرار، أما التيار الثاني من الليبراليين الجدد فهم مجموعة من المثقفين غير المنظمين، وغير المنخرطين في أي تنظيم سياسي أو ثقافي، ولا رابطة مادية لهم، ولا زعيم ولا قائد ولا شيخ ولا أمير لهم، ولا يملكون القرار السياسي. إضافة لذلك، فإن الليبراليين الجدد يخالفون المحافظين الجدد في الأفكار التالية:
- يخالف الليبراليون الجدد المحافظين الرافضين للحداثة. فالليبراليون الجدد يرحبون بالحداثة، ويعتبرون الحداثة المفتاح الحقيقي للتقدم، ودحر التخلف.
- يرفض الليبراليون الجدد دعوة المحافظين الجدد في استخدام الدين للسيطرة على الجموع.
- يرى الليبراليون الجدد، عكس المحافظين الجدد، أن الوسائل الديبلوماسية والسياسية والاقتصادية هي أنجع من القوة العسكرية في وقف العدائية والديكتاتورية لدى البشرية. ومثال ذلك سقوط الاتحاد السوفياتي 1989، وانهيار جدار برلين، رمزي الديكتاتورية في الحرب الباردة، دون إراقة نقطة دم واحدة، أو إطلاق رصاصة واحدة.
- يرى الليبراليون الجدد، عكس المحافظين الجدد، أن الحرب الدائمة لا تولد الاستقرار.
- يرى الليبراليون الجدد أن السلام هو الحل المنشود، بينما يشكك المحافظون الجدد في عملية السلام.
- يؤيد الليبراليون الجدد بناء الدول التي تهدمها الصراعات السياسية بينما يعارض ذلك المحافظون الجدد.

- يؤمن المحافظون الجدد بالإرادة الأمريكية الخيرة المطلقة، بينما يرى الليبراليون الجدد أن الخير في ذلك يجب أن يقترن بالعدالة في المواقف السياسية والدعم المادي والعلمي المتوازن للأطراف المتصارعة.

في الإسلام السياسي

لماذا (دولة الرسول)و(الراشدين)لا تصلح لنا الآن؟!

-1-

* ركز خطاب الإسلام السياسي منذ أن نشأ على إعادة الخلافة الإسلامية ليس على الطريقة الأموية أو العباسية أو المملوكية أو العثمانية ولكن على طريقة (دولة الرسول)في المدينة، أو على طريقة (الخلافة الراشدية)بما فيها من فساد وتسيب ومحسوبية ونهب للمال العام، كما حدث في زمن عثمان بن عفان، الذي كان (أقل من ملك وأكثر من ملك بكثير) (هشام جعيط، الفتنة، 125) الذي لم يستجب لنداءات الإصلاح السياسي والمالي، وكان مصيره القتل الشنيع، وعدم دفنه في مدافن المسلمين، واللعنة التي أطلقتها عليه السيدة عائشة (أم المؤمنين)ولقبته بـ (نعثل)ومعناها (الضبع الذكر)، وكما حدث من انشقاق الأمة نتيجة للصراع الديني مع السياسي في ولاية علي بن أبي طالب، مما اضطر السيدة عائشة (أم المؤمنين) السجود شكرا لله عند مقتل علي بن أبي طالب كذلك، كما ذكر أبو الفرج الأصفهاني في (مقاتل الطالبين) عن أبي البختري· علما بأن دولة الخلافة الحقيقية لم تدم غير اثنتي عشرة سنة هي مدة حكم أبي بكر وعمر بن الخطاب (632-644م)· والخطاب السياسي الحديث، الذي تضمن الدعوة إلى إقامة الخلافة الإسلامية، نشأ عند قيام جماعة الإخوان المسلمين عام 1928 وبعد سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية على يدي كمال أتاتورك في 1924، ومحاولة الإخوان تنصيب الملك فؤاد الأول خليفة على المسلمين، وقيام الشيخ علي عبد الرازق برفض هذا التنصيب من خلال كتابه (الإسلام وأصول الحكم، 1924)، علما بأن إقامة الدولة الدينية على غرار (دولة الرسول)أو (الدولة الراشدية)لم تكن من ضمن وصايا حسن البنا العشر، التي أوصى بها عند قيام

جماعة الإخوان المسلمين، وإنما تمت المطالبة بإقامة الدولة الدينية وبالخلافة الإسلامية عندما تحولت الجماعة إلى حزب سياسي غير معلن في الأربعينات، وإلى قوة سياسية دينية في مصر وفي العالم العربي.

-2-

من يقول بأن الإسلام لم يكن دينا ودولة، فهو على خطأ كبير وجهل عظيم بالتاريخ.
وهي محاولة يائسة لإبعاد شبح الخلافة الديكتاتورية المتمثلة بالأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين، الذين حكمونا بالحديد والنار، وبالقرآن المديني السيفي وليس بالقرآن المكي السلمي، طيلة أربعة عشر قرنا
فقد أخطأ الشيخ علي عبد الرازق في كتاب (الإسلام وأصول الحكم، 1925) عندما حاول الإثبات بأن الإسلام لم يكن دينا ودولة، ومن الواضح أن هدفه من هذا الكتاب كان سياسيا وليس تاريخيا دينيا محضا وكان بصدد مراجعة أفكاره، على ذمة محمد عمارة، لولا أن أدركه الموت. كما أخطأ الشيخ خالد محمد خالد في كتابه (من هنا نبدأ، 1950) في هذا أيضا، وقد راجع أفكاره بعد ثلاثين سنة، واعتبر أن الإسلام دين ودولة في كتابه اللاحق (الدولة في الإسلام، 1981)، وأخطأ أخيرا محمد الشرفي، المفكر التونسي العلماني، في كتابه (الإسلام والحرية: الالتباس التاريخي، 2002) حين نفى في كتابه أن يكون الرسول قد أقام دولة في المدينة (ص156-167) وبأن القرآن لم ينص لا على دولة ولا على خلافة. ولكن القرآن كان أذكى من ذلك بكثير. ولو فعل ذلك لتحول الدين من دين سياسي إلى سياسة دينية، وفي ذلك فرق كبير سوف يغير مجرى التاريخ كله، بداية من القرن السابع

الميلادي. ومن هنا فإن كل من تصدى لإنكار ونفي أن الإسلام لم يكن دينا ودولة، كان على خطأ تاريخي وفكري فادح.

-3-

لقد كان الإسلام، تاريخيا ووقائعيا، دينا ودولة.
بل إن الإسلام كان دولة قبل أن يكون دينا كاملا!
وعلى العلمانيين - وأنا منهم - أن يعترفوا بذلك. ولكن عليهم في الوقت نفسه، أن ينفوا علميا ومنطقيا وواقعيا إمكانية قيام خلافة إسلامية الآن، أو دولة دينية الآن على غرار (دولة الرسول)أو (دولة الراشدين)التي تعد، في الأدبيات السياسية الدينية الكلاسيكية والحديثة، هي الدولة المثالية التي يسعى دعاة الإسلام السياسي؛ إلى اقامة مثيل لها. وهذه هي مهمة العلمانيين الأساسية الآن، وليس نفي وقائع تاريخية دامغة، لا مجال لنفيها أو إنكارها على الإطلاق.
فالنبي محمد، لم يكن نبيا فقط، كما قال كثير ممن نادوا بفصل الدين عن الدولة، وعلى رأسهم علي عبد الرازق الذي قال: (إن محمدا ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين. لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة. وما كان إلا رسولا كإخوانه من الرسل)(الإسلام وأصول الحكم، ص154) وهذا غير صحيح. كما أنه غير صحيح أن (النبي لم يكن في وقت من الأوقات ملكا أو رئيس دولة، وإنما ظل النبي الرسول)(محمد خلف الـلـه، النص والاجتهاد والحكم في الإسلام، ص43). وما قول الرسول لعمر بن الخطاب: (مهلا يا عمر، أتظنها كسروية، إنها نبوة لا ملك)إنما جاء ردا على الذين يريدون منه أن يحيا حياة باذخة مترفة كحياة الملوك العظام، وهو المرسل للفقراء والأشقياء. ولكن الرسول كان يظهر كرئيس وزعيم دولة ليس من خلال تصرفاته الاجتماعية والرسمية، ولكن من خلال أفعاله السياسية والعسكرية والإدارية والتنظيمية

والاقتصادية. فكان الرسول يريد إقامة دين ودولة في آن واحد، وإن كـانت غاية هذه الدولة نشر الإسلام بالدرجة الأولى. ذلك أن الدولة لم تكن ركنا صريحا أو أصلا رئيسيا من أركان الإسلام وأصوله، وإنما كانت مستلزما وواجبا ضمنيا من واجبات ومستلزمات وأدوات نشر الإسلام، والتي بدونها فإن الإسلام سيظل محصورا ومهددا، في مساحة محددة كما قال خالد محمد خالد، في (الدولة في الإسلام، ص25).

فالإسلام لم ينتشر بالدعـاة والهـداة فقـط وإنما بالفتح (الحرب) أيضا والفتــح لا بد له من دولة. فالدولــة أدت إلى الفتح، والفتح أدى إلى الغنائم، والغنائم كانت بسبب النصر الذي حققه المسلمون، فتعزز الديـن وانتشر وقوي. فحفظ الذكر لا بد له من سلطة، وهو ما توفره الدولة القوية.

ومن هنا لم يك النبي على هذا النحو نبيا فقط، وإنما كان حاكما سياسيا وقائدا عسكريا أيضا كما لم يكن أي نبي أو رسـول آخر من قبله. وكان الرسول (يدرك بأن بناء الدولة الإسلامية جزء من مهمته كنبي ورسول)كما قال خالد محمد خالد، (الدولة في الإسلام، ص25). كما أن براعته التي أظهرهـا في القيادة السياسية والقيادة العسكرية كانت من مستلزمات الحكـام العظام في العصور الكلاسيكية.

فالرسول عندما دخل المدينة مهاجرا كان أول عمل قام به وقبل أن يكتمل الإسلام، إذ كان أمام الإسلام عشر سنوات أخرى لكي يكتمل، وقبل أن يرسخ الإسلام، وقبل أن يدعو إلى الإسلام في المدينة، أن أسس (دولة المدينة)أو (دولة الرسول)في المدينة، وكانت دولة غير دينية وغير إسلامية. بمعنى أنه أشرك فيها الكفار من الأوس والخزرج، كما أشرك فيها اليهود وأقام لها كيانا سياسيا واضحا وكان الخليفة أبو بكر هو ولي العهد الذي تسلم حكم هذه الدولة بعد رحيل الرسول، وتبعه الخلفاء الثلاثة الآخرون الذين ذهبوا قتلا للأسف الشديد.

ومن هنا تكونت عناصر الدولة: الزعيم والقائد، والرعايا، والدستور الموضوع. وتمت إقامة أول دولة عربية - غير قاصرة على المسلمين - في التاريخ بزعامة الرسول من اليهود والعرب. وكانت أبرز القبائل اليهودية التي انضوت تحت راية هذه الدولة: بنو النجار، بنو عوف، بنو الحارث، وغيرهم.

2- (أعلن النبي أن اليهود والعرب يؤلفون أمة واحدة، دون تمييز بينهم في العرق أو الدين أو الانتماء القبلي)(جوزيف مغيزل، العروبة والعلمانية، ص139).

3- كان لدولة الرسول جهازها العسكري والمالي والإداري والقضائي. وكان للرسول - كحاكم أعلى وكرئيس دولة - مستشارون ووزراء يديرون مصالح ووزارات. فمن المستشارين كان (هيئة العشرة)من المهاجرين الأوائل، ومن (هيئة الإثني عشر)كان نقباء الأنصار. وهؤلاء كانوا بمثابة مجلس شورى أو برلمان النبي. أما التشكيل الإداري والسياسي لهذه الدولة، فكان على النحو التالي:

- وزارة التربية والتعليم، وتشمل إدارات: تعليم القرآن، تعليم الكتابة والقراءة، الإفتاء، تعليم الفقه، والإمامة.
- وزارة الحج، وتشمل إدارات: السقاية، وإمارة الحج.
- وزارة الخارجية، وتشمل إدارات: السفراء، والتراجمة.
- وزارة الإعلام، وتشمل إدارات: الشعراء، والخطباء.
- وزارة الدفاع وهي أقوى وأوسع وزارة، وتشمل إدارات: أمراء القتال وجنده (ما يعرف اليوم برئاسة الأركان) ، كتاب الجيش، فارضو العطاء (ما يعرف اليوم بالإدارة المالية) ، العرفاء من رؤساء الجند. الحرس النبوي، المستخلفون على المدينة (ما يعرف اليوم بالحرس الوطني) ، مستنفرو الناس للقتال (ما يعرف اليوم بدائرة التعبئة العامة)، صاحب السلاح (ما يعرف اليوم بأمين المستودعات

السياسي والإداري في دولته الجديدة.

4- من الملاحظ أن أخبار الرسول في التاريخ الإسلامي لم تكن أخبارا دينية خالصة فقط، بقدر ما كانت أخبارا سياسية وعسكرية وإداريـة أيضا بل إن معارك الرسول وحملاته العسكرية وغزواته وبعثاته السياسية إلى الدول المجاورة، احتلت حيزا كبيرا من السيرة النبويـة كما لم تحتلها في أي سيرة نبوية أخرى من قبـل. وهـو ما يشير إلى أن حياة الرسول كانت مكرسة، في جزء كبير منها، لإقامة دولـة ذات تقاليد عسكرية وإدارية وسياسيـة كذلك. وهو ما أورثـه الرسول للخلفاء الراشدين من بعده، الذين لم يبدأوا بناء الدولة من الصفر، ولكنهم وجدوا أمامهم أسسا أكملوا بناءها.

5- لم تكن صفات النبي في التاريخ الإسلامي أنه نبي فقط، ولكن كانت من صفاته الشخصية: القائد، سائس الأمة، الأمير، ولي الأمر، الإمام. فقد قام النبي أثناء حياته - كما لم يقم أي نبي آخر- بالبدء في بناء الدولة خارجيا فهو الذي عين باذان بن ساسان أول الأمراء الحكام من المسلمين في اليمن، وخالد بن العاص واليا على صنعاء أيضا، وابن أبي أمية المخزومي واليا على كندة والصدف، وزياد بن أمية الأنصاري واليا على حضرمـوت.. الخ. ولنلاحظ هنا أن الرسول هو الذي بدأ مبدأ (التعيين)في التاريخ السياسي الإسلامي للمناصب السياسية والإدارية والقضائية باختيار شخصي. ولم يترك الأمر في التعيين منذ البداية للانتخاب من قبل المحكومين. في حين أن مبدأ الانتخاب كان سائدا منذ زمن طويل، ومن أيام الإغريق كعنصر من عناصر الديمقراطية.

وهذه كلها إجراءات سياسية وإدارية بحتة، قام بها الرسول انطلاقا من اعتبارية شخصيته الدينية والسياسية في الوقت نفسه، وانطلاقـا من مهمته كمؤسس (لملك ديني)استمر قيامـه ستة قرون

(632-1258م) محصورا في قبيلة واحدة وهي (قريش). وهكذا فإن الرسول عندما مات (ترك دينا مكتملا ودولة مهيمنة على الجزيرة العربية كلها، مترابطين بشكل لا يقبل الانفكاك. كما أن وفاة النبي طرحت مسألة حقيقية واحدة، وهي مسألة الحفاظ على إنجازه من دين ودولة)، وليس على الإنجاز الديني فقط كما قال هشام جعيط في (الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ص33، 34).

-5-

من هنا، فإن القول بأن مهمة الرسول كانت مهمة دينية فقط، تنحصر في الدعوة الدينية فقط، مثله مثل باقي الأنبياء والرسل من قبله، قول غير سليم.
والقول بأن النبي كان نبيا فقط، وليس بذي سلطان سياسي قول غير صحيح أيضا والذين يقولون هذا القول ويرددونه ويركزون عليه، يريدون من وراء ذلك الخير والتكريم الجميل للرسول بأن يرفعوه إلى مرتبة روحانية مطلقة، بعيدا عن أوساخ السياسة ونجاسات الرئاسة، وتدعيما لمقولتهم في فصل الدين عن الدولة، وبأن النبي كان نبيا داعية لدين فقط، ولم يكن زعيما أو قائدا سياسيا وما فعله النبي محمد في أواخر حياته، من نشاط وإجراءات سياسية وإدارية ومالية، كانت إجراءات وقرارات لم يقم بها أي نبي أو رسول آخر في تاريخ الأديان البشرية كلها، حيث اقتصرت مهمة الأنبياء والرسل من قبل على الدعوة الدينية فقط، دون ممارسة أي سلطان سياسي أو إداري، كما فعل النبي محمد. وكان النبي محمد بذلك أول الأنبياء وأخرهم الذين جمعوا بين الدالين: الدين والدنيا (يستثنى من ذلك النبي داوود 1000-962 ق.م) الذي كان نبيا وملكا، وكذلك ولده سليمان من بعده. وقد كان داوود ملكا بأمر السماء لقول القرآن: {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق}.

وكـان الإسلام بذلك جامعا أيضا لهاتين الدالين: دال الدين ودال الدنيا. وتلك حجة قوية اليوم في أيدي الجماعات الإسلامية والتيار السياسي الإسلامي الداعي إلى إقامة الدولة الدينية. وهذه الحجة نفسها هي التي دحضت بقوة الدعوات الحديثـة المحدودة والقلقة لفصل الدين عن الدولة، كدعوة علي عبد الرازق وخالد محمد خالد ومحمد خلف الـلـه والعلمانيين عموما وغيرهـم. وجعلت بعض من قالوا بفصل الدين عن الدولة يتراجعون عن مقولاتهـم - بفعل عقدة الذنب الدينية المتأصلـة في المصريين كأمة دينية منذ أيام الفراعنـة - ويربطون بين الدين والدولـة وينادون بقيام دولة إسلامية، كما فعل صراحـة خالد محمد خالد في كتابه (الدولة في الإسلام)، وكما كان ينوي عمله علي عبد الرازق لولا أن أدركـه الموت، كما يقول محمد عمارة.

-6-

ومن هنا، كان الإسلام قد بدأ منذ أيامه الأولى سياسيا، واستمر كذلك إلى الآن. ومن الباحثين، كمحمد محمود المفكر السوداني، من يقول لنا بأن (دولة المدينة)التي أسسها النبي واستمـرت حتى نهاية العهد الراشدي كانت دولة (لا تختلف عن الدولة البيزنطية أو الدولة الساسانية من حيث علاقة المركز بالأقاليم المفتوحة. وكذلك من حيث سير دولة المدينة بعيدا عن الهيمنة الدينية وسيطرة الخطاب الديني. ومن هنا ظهر جيل من الولاة على الأمصار تشوب سمعتهم الدينية الشكوك، إلا أنهم فرضوا أنفسهم بحكم قدراتهم الإدارية).

ومن هنا أيضا، فإن الإسلام على خلاف مع الأديان الأخرى التي بدأت روحانية وانتهت سياسية كالمسيحيـة واليهودية. فالإسلام ابتدأ وانتهى سياسيا وما زال دينا سياسيا، بدليل هيمنة رجال الدين على القرار السياسي العربي الآن وفي أكثر الدول علمانية (مصر، الأردن، المغرب،

سوريا.. الخ)، ومنذ أربعة عشر قرنا ومن هنا كذلك، فمن الصعب على العربي المسلم في الماضي والحاضر أن يفصل بين الدين والدولة بعد مضي هذا التاريخ الممتد، والربط المتصل بين الدين - كأيديولوجية سياسية - وبين الدولة.

كانت السياسة والرئاسة في الدولة العربية - الإسلامية الأولى في العهد الراشدي لا تعني نشر الدين وتطبيق تعاليمه فقط، ولكن التوسع في الفتوحات وامتلاك الأراضي المفتوحة وجمع الأموال من الزكاة والجزية وغنائم الفتح، باعتبار أن الاقتصاد الإسلامي في ذلك الوقت قد تحول من (اقتصاد تجارة)إلى (اقتصاد حرب)، حيث لا نهضة اقتصادية ولا نهضة علمية ولا نهضة اجتماعية تعنى بها السياسة. فالدين هو السياسة والرئاسة باعتبار أن الحاكم السياسي كان (أمير المؤمنين)فقط، وليس (أمير المواطنين)كافة من المؤمنين وغير المؤمنين. وفي هذا اللقب السياسي/الديني - والذي ما زال ساريا حتى الآن - ما يشرح لنا كثيرا من المهام المنوطة بالحاكم السياسي في الحكم العربي - الإسلامي.

وهذه النظرة للحكام لم تك قاصرة على الدين الإسلامي وحده، بل هي شملت المسيحية أيضا في فترات مختلفة، وكانت تيارا سياسيا جارفا، عبر عنه الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا (1632-1677) حين ربط بشدة قوية بين الدين والسياسة، واعتبر السلاطين هم الأمناء والشراح ليس للحق المدني فقط، ولكن للحق المقدس أيضا

من جهة أخرى، (فإن الإسلام لا يتسع لمعرفة أي فصل ما بين الدين والدولة، فأفراد الأمة الإسلامية هم عبيد الـلـه، وشرائع الأمة إلهية؛ ملكها هو ملك الـلـه، وجندها هم جند الـلـه، وأعداؤها هم أعداء الـلـه. وهذا يلزم وجود حاكم واحد على رأس الأمة، إطاعته واجبة دينيا)على حد تعبير أيمن الياسيني.

وهكذا أجبنا على سؤال العرب الخالد والمحتدم الآن وهو:

هل الإسلام دين ودولة؟
ولكن بقيت الآن الإجابة الأصعب عن السؤال الأصعب وهو:
هل (دولة الرسول)و(دولة الراشدين)هذه تصلح لنا الآن، كما ينادي بها أتباع (الإسلام السياسي)؟
هذا هو السؤال الكبير.

للدول في التاريخ أحكامها وشروطها وسياقاتها.
أوروبا لا تستطيع الآن أن تكون دول الحكم الإلهي المطلق الذي كان قائما في القرون الوسطى، ولا تستطيع أن تعيد النظام الإقطاعي الذي كان سائدا أيضا في تلك الفترة. ليس لأنها تعارض قيام مثل هذه الدول، ولكن لأنه لا مكان في هذا العالم الجديد الآن لا للحكم الإلهي المطلق، ولا لنظام الإقطاع بعد أن قطع العالم أكثر من خمسة قرون في التنوير والتطوير والصناعة والعلوم وتقدم الفكر والفلسفة وخلاف ذلك.
طبيعة العصر ومنطقه، الذي تعيشه أوروبا الآن، لا مكان فيه لدولة الحق الإلهي المطلق، ولا مكان فيه لدولة الإقطاع.
شروط دولة الحق الإلهي ومقتضياتها انتهت وانقضت في زمانها وفي شروط ذلك الزمان، وتوقفت أوروبا عن البكاء على ما مات وفات من أمجاد ماضية، وبنت لنفسها أمجادا جديدا هي نتاج أجيال جديدة.
من الصعب على أوروبا أو على الغرب عموما الآن أن يعيش حياته بكل تفاصيلها وتعقيدها، وقد هندسها وأقامها له الأسلاف من الأموات الذين عاشوا لأيامهم، ثم قضوا.

-7-

كمال أتاتورك، عندما قام بثورته على الخلافة الإسلامية في 4291 وأسقطها، كان يدرك هذه الحقيقة التاريخية. وهي حقيقة أن عصر الخلافة

قد انتهى. وإن لم يسقطه أتاتورك لكان قد سقط من تلقاء نفسه كحبة الفاكهة الناضجة التي حان أوان قطفها. والدليل أن شيوخ الأزهر عندما أرادوا إقامة الخلافة من جديد، وتنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين، لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، بغض النظر عن الضجة التي أحدثها كتاب الشيخ علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم، 1925). ونفى فيه أن يكون الإسلام دينا ودولة، وكان عبد الرازق على خطأ بذلك. فكما قلنا سابقا، فإن الإسلام كان دولة قبل أن يكون دينا مكتملا وكتاب واحد ككتاب علي عبد الرازق، ما كان سيوقف رجال الأزهر، وعلى رأسهم الشيخ خضر حسين شيخ الأزهر آنذاك - والذي قام بالرد على عبد الرازق بكتاب مضاد - عن الاستمرار بالدعوة لإقامة الخلافة الإسلامية من جديد، ولا كان مثل هذا الكتاب يمكن أن يوقف ملكا متحفزا للخلافة كفؤاد الأول عن تنصيب نفسه خليفة جديدا للمسلمين، بدل الخليفة العثماني المخلوع عبد المجيد بن عبد العزيز. وإنما الذي حال بين الملك فؤاد وبين الخلافة هو أن شروط الدولة وقيامها بعد الحرب العالمية الأولى قد اختلفت عما كانت عليه قبل هذه الحرب. والقيم السياسية التي كانت سائدة قبل هذه الحرب اختلفت عن القيم السياسية التي جاءت بعد هذه الحرب. وهو ما أدركه معاوية بن أبي سفيان، الذي بدأ باقامة دولة علمانية عربية مختلفة كلية عن دولة الرسول ودولة الراشدين، وفاصلا فيها بين الدين والدولة، وقائلا: (أنا أول الملوك)(تاريخ اليعقوبي، ج2، ص276). حيث لا مكان لدولة الراشدين بعد 36 سنة من حكمهم. وهو ما لم يدركه أشياخ الأزهر والمؤسسات الدينية الأخرى في العالم العربي، ومنها جامع الزيتونة في تونس، الذين فزعوا ودب الخوف في قلوبهم من انهيار الخلافة الإسلامية العثمانية، وطفقوا يبحثون عن خليفة، حتى ولو كان طاغية كالملك فؤاد الأول.

-8-

لو افترضنا أن الإسلام السياسي في بلد ما من العالم العربي قد نجح في انتخابات ديمقراطية حرة فماذا سيحصل؟

إن هذا متوقع وأكيد، ولا شك فيه.

فأي بلد عربي تقام به انتخابات حرة ونزيهة، سوف يكتسح فيها الإسلامويون الانتخابات كما اكتسحوها في الجزائر عام 1990. وهذا ما يعلمه الغرب والعرب جيدا والدليل على ذلك الواقع السياسي المصري مثلا فلو سمح للإخوان المسلمين بأن يعلنوا عن أنفسهم رسميا كحزب سياسي معترف به ويخوضوا انتخابات حرة ونزيهة، لنجحوا واحتلوا مقاعد الحزب الوطني الاشتراكي الآن بكل سهولة. وهذا هو السبب وراء عزلهم والتضييق عليهم، وعدم السماح لهم بممارسة العمل السياسي كباقي أحزاب المعارضة الأخرى القومية واليسارية. وهذا هو الحال في كثير من البلدان العربية. وسببه الرئيسي ليس قوة خطاب وبرامج أحزاب الإسلام السياسي، ولكن ضعف الأحزاب القومية الأخرى، والفراغ السياسي الذي تعاني منه الأمة، والنكبات التي لحقت بالأمة نتيجة لحكم الأحزاب القومية والأحزاب غير الإسلاموية، واهتراء المعارضة وإفلاسها، وقيام الأحزاب الإسلاموية بتحمل جزء كبير من مسؤوليات الدولة العربية من حيث التعليم والطبابة ورعاية الأطفال وفتح مشاغل للعمل والتدريب.. الخ. بحيث أصبحت هذه الأحزاب هي (دولة الظل)القوية والمفضلة على (دولة النور)الرسمية والضعيفة والمكروهة.

إن أكبر امتحان وأقصر طريق للسقوط النهائي للأحزاب الإسلاموية هو توليها الحكم ومطالبتها من قبل ناخبيها ومحازبيها بتطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وتعليميا، دون تخل عن أي نص من نصوصها أو موادها، وكما تقول الآن خطاباتها السياسية والتي أبرزها:

1- سياسيا:

- حصر الخلافة في عائلة واحدة كما كان عليه الحال في عهد الراشدين، حيث حصرت الخلافة في قريش فقط، تنفيذا للحديث النبوي (الأئمة منا أهل البيت) و (الأئمة من قريش) وظل هذا الحصر قائما طيلة أكثر من ستة قرون (632-1258).

- اختيار الخليفة من ذوي العلم الديني وليس السياسي أو الاقتصادي أو العلمي ومبايعته بيعة أهل (الحل والعقد) فقط؛ أي عن طريق مجموعة من رجال الدين النخبة كما كان معمولا به في عهد الراشدين، لا عن طريق الانتخابات المباشرة المعمول بها في الغرب (الكافر). وهو ما يتم الآن في طريقة اختيار مرشد الإخوان المسلمين الذي يعتبر خليفة بلا خلافة.

- لا زمان محددا لترك الخلافة إلا بالموت. فالخلفاء الراشدون لم يتولوا الحكم من بعضهم إلا بالموت، والموت قتلا لثلاثة منهم. ومن هنا فلا تداول في السلطة لسنوات طويلة.

- اعتبار الدولة التي سيحكمونها (دار سلام)وباقي العالم الآخر (دار حرب)كافرة.

- قيام مجلس الشورى بالتعيين لا بالانتخاب، كما فعل الرسول في دولته في المدينة، وكما فعل الخلفاء الراشدون فيما بعد.

- عدم إلزام الخليفة بقرارات مجلس الشورى، واعتبار الشورى (معلمة)وليست (ملزمة)كما كان عليه الحال في عهد دولة الراشدين.

- خلط المال العام مع المال الخاص والنهب من الخزينة العامة للدولة، كما يشاء الخليفة، كما كان عليه الحال في عهد عثمان بن عفان، والذي كان السبب في الثورة عليه وقتله.

- تعيين الولاة من قبل الخليفة مباشرة، كما كان معمولا به في عهد الرسول وفي عهد الراشدين، وليس انتخابهم من قبل مواطني الولاية،

أو الإقليم.
وهذه كله يعني في قاموس السياسة المعاصر إقامة دولة دينية ديكتاتورية مطلقة تحتكم إلى نصوص سياسية ميتافيزيقية، ولا تمت إلى الواقع المعاش بصلة.

2- اقتصاديا:
- إغلاق سائر البنوك الربوية المحلية، وإحلال البنوك الإسلامية محلها التي تعمل بنظام (المرابحة)، وتعيين الشيخ القرضاوي وأمثاله كمستشارين شرعيين لهذه البنوك، كما هو حال الشيخ القرضاوي بالنسبة لأكثر من عشرين بنكا إسلاميا
- عدم التعامل مع البنوك الربوية الأجنبية، بحيث لا يختلط المال الحلال مع المال الحرام. فلا إيداع في البنوك الإسلامية الداخلية من قبل البنوك الربوية، ولا إيداع من البنوك الإسلامية في البنوك الربوية الخارجية. وبهذا فسوف نقيم عالما اقتصاديا خاصا بنا، لا شأن له بالعالم الآخر.
- إلغاء سائر الضرائب القائمة الآن، وإحلال الزكاة محلها، وهي نسبة 5و2؟
- إلغاء سائر استثمارات رجال أعمال الدولة الإسلامية في الفنادق والمنتجعات السياحية الداخلية والخارجية والتي تبيع الخمور، وتفتح في هذه المرافق البارات والملاهي الليلة المخالفة لتعاليم الدين.

3- اجتماعيا:
- اعتبار النصارى واليهود وغيرهم من الأديان الأخرى - إن وجدوا في العالم العربي- من الذميين، دافعي الجزية، ومواطنين من الدرجة الثانية، وعدم السماح لهم بممارسة حقوقهم السياسية كاملة،

وإخراجهم من الجيش كما طالب مصطفى مشهور، مرشد الإخوان المسلمين السابق.
- حبس المرأة في بيتها وتكريسها للعلف والخلف فقط كما كانت عليه في القرن السابع الميلادي. وفرض الحجاب على المرأة الحرة فقط، والذي هو تشريع مديني وليس مكي. واعتبار المرأة كلها عورة. فقد روي عن محمد بن المثنى عن النبي أنه قال (المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون المرأة برحمة ربها وهي في قعر بيتها).
- تفضيل البنين على البنات في المعاملة والإرث والشهادة.
- منع المرأة المسلمة من أن تكون شاهدة في حادثة قتل أو أي قضية جنائية تستوجب القتل.
- منع المرأة المسلمة من أن تكون قاضية أو رئيسة دولة، طبقا للحديث النبوي (لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)رغم أن تركيا والباكستان واندونيسا وبنغلادش ولوا أمرهم لنساء وفلحن وفلحوا.
- إباحة الزواج من الطفلة التي لم تبلغ سن المحيض. والإسلام هو الدين الوحيد الذي أباح ذلك لقول القرآن: {واللائي لم يحضـن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن} (الطلاق: 4). ويقول ابن كثير إن عدة الصغار من البنات اللائي لم يبلغن سن الحيض ثلاثة أشهر.
- والدولة الدينية لا تعترف بالاغتصاب. فإذا اغتصبت امرأة واشتكت فعليها أن تأتي بأربعة شهود ذكور، رأوا المرود في المكحل. وشهادة المرأة لا تقبل في هذه الحالة، كما لا تقبل شهادة DNA. فمن هو العاقل الذي يغتصب امرأة أمام أربعة شهود من الذكور، كما تساءل كامل النجار في كتابه المخطوط (قراءة نقدية للإسلام، ص 179). ولا يوجد في الشريعة الإسلامية تعريف للاغتصاب. ولهذا السبب، فإن أية امرأة مسلمة تدعي أن رجلا اغتصبها قد تنتهي مدانة بالزنا؛ لأنها لا

تستطيع أن تحضر أربعة شهود ذكور. وهذا ما يحدث في الباكستان الآن، كما تقول جمعية الأخوات المسلمات.

يقول المجاهد السلفي والمصلح الديني المغربي علال الفاسي في كتابه (دفاع عن الشريعة) : (إذا كان تطبيق الشريعة مضرا بالشريعة فتطبيق الشريعة حرام).

-9-

فمن أراد منكم أيها القراء أن يعيش في مجتمع يطبق مثل هذه الأحكام، فليصوت للجماعات الإسلامية والأحزاب الإسلامية في أول انتخابات تجرى في بلده، لكي يمكنها من تسلم الحكم من الحكومات العلمانية وشبه العلمانية والمحافظة القائمة الآن، وتطبيق ما تنادي به حرفيا في خطاباتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ودون استثناء أو تعديل أو تبديل، بحجة السياسة الشرعية والظروف الإقليمية والدولية، والتي تريد بها الوقوف في وجه العالم ووجه التاريخ، وتبحر في تيار مختلف ومعارض لحركة التاريخ، وكأنها تتصور نفسها بأنها تعيش في كوكب آخر منفصل عن الأرض، وليس لها أية مصالح خارج حدودها، ولا علاقة لها بما يدور في باقي أنحاء العالم.

فهل دولة كهذه يمكن لها أن تقوم، وإذا قامت فهل يمكن لها أن تستمر، في ظل النظام الدولي الجديد، وفي ظل القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة في العالم الآن؟

لماذا نصر على الديمقراطية لا الشورى؟

* كثر الحديث عن الشورى والديمقراطية، وكثر الخلط بين الشورى والديمقراطية. فالإسلاميون وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين لا يعترفون بالديمقراطية، ويصرون على الشورى، فلماذا؟

والعلمانيون يرفضون الشورى، ويصرون على الديمقراطية، فلماذا؟

وهل كانت الشورى نظاما سياسيا إسلاميا له قواعده وأحكامه، أم هي مجرد تجربة لم تدم أكثر من ثلاثين عاما من حكم الخلفاء الراشدين كانت فيه الشورى بدائية لأهل العقد والحل؛ أي لعلماء الدين والصحابة الذين كانوا ينوبون عن باقي أفراد الأمة، حيث لم يكن هنا تصويت للشعب، ولا انتخابات شعبية، بحيث يعبر كل فرد عن رأيه؟

وما هو الفرق بين الشورى والديمقراطية؟

لكي تتضح الفروقات بين الشورى التي كانت سائدة منذ أكثر من 1400 سنة ولمدة قصيرة جدا من عمر الزمن كما قلنا، وبين النظام السياسي الديمقراطي، نذكر النقاط التالية للتفريق بين الشورى والديمقراطية، حتى يفهم الجميع، لماذا يرفض الإسلاميون الديمقراطية، ولماذا يرفض العلمانيون الشورى؟

1- مفهوم الشورى بداية غير مؤسس نظريا، ولا تأصيل له في تاريخ الحكم الإسلامي وتجربته. ولا يمكن وصفه (بالنظام الاجتماعي الشامل)كما يقول عزيز العظمة، وهو من ضمن آليات الممارسة السياسية في التاريخ الإسلامي، ومرتبط باجتهادات الخلفاء والملوك والسلاطين والولاة، دون الانتظام في رؤية كاملة و(دون الانتقال من مستوى التقنية السياسية الجزئية إلى مستوى المؤسسة السياسية الراسخة في الواقع)، كما يقول كمال عبد اللطيف.

في حين أن مفهوم الديمقراطية مفهوم مؤسس نظريا، ومؤصل،

وله تاريخ وتجربة ممتدة في الحضارة الغربية منذ عهد الإغريق إلى اليوم. ويعتبر مفهوم الديمقراطية من أكثر المحاور السياسية أهمية في الفكر الغربي السياسي منذ قرون طويلة. واستطاع كبار المفكرين السياسيين أن يطوروا هذا المفهوم تطويرا علميا متقدما، انتهى بالغربيين إلى ما هم فيه الآن.

2- السلطة في النظام الشوري للسلطان، في حين أن السلطة في النظام الديمقراطي للأمة.

3- السيادة في النظام الشوري لله. و الله هو المشرع الأعلى في الدولة، وشريعته واجبة التحقيق. والحاكم هو الله وليس الإنسان، ولا حكم قبل ورود الشرع. وهو مفهوم يسلم بتعالي القانون الإلهي ونسبية الإرادة البشرية. أما في النظام الديمقراطي فالسيادة للشعب، والأمة مصدر السلطات، والحاكم هو العقل والإنسان الذي يضع لنفسه القوانين الملائمة. وهو قانون ومفهوم يسلم بتعالي الإرادة البشرية ولا مجال لنسبية القانون الإلهي فيه.

4- حكم الأغلبية ليس معيارا للحق والصواب في النظام الشوري. بينما حكم الأغلبية في النظام الديمقراطي هو معيار الصواب والحق.

5- الشورى المطبقة نظام رأسمالي. وكذلك الديمقراطية نظام رأسمالي.

6- الشورى مصطلح إسلامي، مستمد من دستور، موجه لحماية المغفلين قبل سواهم، كما قال الصادق النيهوم. أما الديمقراطية فهي مصطلح أوروبي، مستمد من دستور رأسمالي لا يحمي المغفلين.

7- لا يفصل النظام الشوري بين الدين والدولة، ولا يمنع رجال الدين من التدخل في السياسة. بينما يفصل النظام الديمقراطي بين الدين والدولة، ويمنع الدين ورجاله من التدخل في السياسة.

8- الأنظمة والقوانين والقواعد ثابتة في النظام الشوري. فلا تغيير ولا تبديل في أحكام الله، مهما اختلفت وتطورت الحياة. والدولة مقيدة

بها، وعليها أن تحكم بمقتضاها. بينما في النظام الديمقراطي، تكون الأنظمة والقوانين متحولة، وتتغير مع تغير الحياة والاحتياجات ومستويات الوعي والثقافة. والدولة لا تتقيد بأي نظام أبدي مطلق.

9- تطبق الشورى في دولة تحرم قيام الأحزاب السياسية، وتعتبر حزب الـلـه هو الحزب الوحيد المشروع. في حين تطبق الديمقراطية في دولة تفصل الدين عن الدولة، وتتخذ لنفسها قوانين وشرائع من صنع المفكرين والدارسين. وهي تخرج من فطرة الشعوب كما يخرج النبات من الأرض.

10- تمنع الدولة الإسلامية ذات النظام الشوري من قيام جبهة للمعارضة، لأنه لا تحالف في الإسلام. وأن المسلمين جميعا ينضمون في عقد واحد هو عقد الإسلام.

تطبق الديمقراطية في دولة تؤمن بتعدد الأحزاب السياسية، وتعتبر تعدد الأحزاب دلالة صحية على نقاء الحياة السياسية، وتعدد الآراء.

11- الشورى لا تتم بلقاء ممثلين عن الناس، بل لقاء الناس أنفسهم، لأن الإسلام لا يعترف بالنيابة، ولا يعترف بسلطة الحزب، مما يعني في لغة التطبيق أن تخضع الإدارة مباشرة لسلطة الأغلبية، وتعاد صياغة القوانين بلغة الجماعة. تسمح الدولة الديمقراطية بقيام المعارضة، وتعتبرها عين الرقابة على أداء الحكومات والإدارات. وكلما كانت المعارضة عاليـة المستوى العلمي والثقافي استفادت الدولة من انتقاداتها.

12- تتناقض دولة الشورى مع نفسها. ففي الوقت الذي تحرم فيه قيام المعارضة وتحريم الأحزاب تعود لتقول بقيام الأحزاب، وتستشهد بالآية {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين} (سورة هود، الآية 118). في حين أن الديمقراطيـة تتم بلقـاء ممثلين عن

الناس، فالناس أنفسهم لا وقت لديهم للقاء. ورغم هذا فالإدارة في الدول الديمقراطية الحقة تخضع لسلطة الأغلبية المنتخبة بالاقتراع الحر النزيه.

13- تتم إقامة مجلس الشورى - والذي هو مستحب وليس ملزما للحاكم في رأي أغلبية فقهاء السنة - منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى الآن بالتعيين من قبل السلطان للمؤيدين الطائعين المباركين كما كان يفعل السلف، وليس بالانتخاب الحر المباشر من قبل الجمهور. وقد أصبحت هذه المسألة خلافية بين رجال الدين في العصر الحديث. فمنهم من يرى وجوب اختيار أعضاء مجلس الشورى عن طريق الانتخاب الحر المباشر، ومنهم من يرى وجوب تعيينهم من قبل السلطان، ومنهم من يمزج بين الاختيارين.

لا تتناقض دولة الديمقراطية مع نفسها. فمن المبادئ السياسية التي لا يختلف عليها اثنان أن روح الديمقراطية هي قيام الأحزاب الحاكمة والأحزاب المعارضة، وأن الدولة الحرة هي دولة الأحزاب الحرة.

14 - تتمسك الشورى بحرفية الآلية البدائية العفوية التي لا تتعدى النصيحة والاستشارة والقول الحسن، والتي درجت عليها في العهد الراشدي القصير، ولا تغيرها حسب ما يستجد في الحياة السياسية كل يوم من تطورات، وتغيرات، ومتطلبات، ومستلزمات. بينما تتم إقامة المجالس النيابية الديمقراطية على أساس الانتخاب المباشر الحر من الشعب، ولا تعيين فيها من قبل السلطان إلا في الدول ذات القشرة الديمقراطية الرقيقة المزيفة، حيث يتم تعيين أعضاء مجلس الشيوخ (الأعيان) من قبل السلطان ومن المؤيدين، الطائعين، المباركين أبدا أما في البلدان الديمقراطية العريقة فلا تعيين يتم وإنما يأتي مجلس النواب ومجلس الشيوخ بالانتخاب الحر النزيه المباشر. كذلك فإن الديمقراطية لا تتمسك بمنهاج معين،

بل هي مرنة أشد المرونة، وتطور وتعدل من قوانينها من حين لآخر بما يتماشى واحتياجات الحياة السياسية وما يستجد لها وما يتغير فيها. ولا تقف عند حد النصيحة بل إقرار الأنظمة، وإجبار السلطة على تنفيذها والرقابة على التنفيذ السليم.

15- تتغير مفاهيم الشورى من عهد إلى آخر ومن فقيه إلى فقيه، بحسب نوعية السلاطين، وبحسب طبقة الفقهاء ونوعيتهم وتقواهم. في حين تتغير مفاهيم الديمقراطية من عهد إلى آخر بحسب تغير الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتطورها ومتطلباتها ومستلزماتها.

16- يقترن النظام الشوري دائما بالسلطة السياسية الوراثية. فكما أنه لا انتخاب في مجلس الشورى، فكذلك لا انتخاب في رأس السلطة التنفيذية. أما الديمقراطية فتقترن دائما بالسلطة السياسية التداولية. فكما يتم انتخاب رأس الدولة لمدة محدودة، يتم كذلك انتخاب الهيئات التشريعية.

17- مجتمع الشورى الإسلامي يرفض الاستبداد المطلق الممنوع شرعا أما الاستبداد المقيد فهو غير ممنوع في هذا المجتمع، وهو غير ممنوع في الشرع والعقل كما يقول أصحابها. في حين أن مجتمع الديمقراطية الحقة يرفض سائر أنواع الاستبداد المطلقة والمقيدة، بل إن الديمقراطية الحقة ضد الطغيان وتنادي بالعدالة على مستويات الحياة سائر. وأن الديمقراطية والاستبداد لا يجتمعان.

18- الشورى تمارس دائما في سياق حكم ديني. والديمقراطية تمارس غالبا في سياق حكم لا ديني.

19- الشورى ليست ممارسة سياسية معزولة، وإنما هي نظام حياة كامل في الأسرة والمجتمع والمعاملات والعلم والسياسة، كما يقول أصحابها. الديمقراطية ليست ممارسة سياسية فقط، وإنما هي أيضا نظام حياة كامل تبدأ من البيت وتنتهي تحت قبة البرلمان.

20- وأخيرا فالشورى لا تنفصل عن الدين ومن ثم يظل نظامها مؤسسا على رعاية المسؤولية أمام اللـه الذي يراقب النيات والأعمال والأسرار والظواهر. أما الديمقراطية فهي نظام ينطوي على طلاقة الهوى والشهوات السياسية من قيود الأخلاق، كما يقول أعداؤها من المفكرين الإسلاميين.

***

من المعروف أن الفقهاء لم يتفقوا على حكم موحد للشورى، وانقسموا إلى فريقين: فريق يرى الندب (الاستحباب) وفريق يرى الوجوب. وكان أقوى هذين الفريقين هو فريق الندب الذي يرى أن الشورى ليست من المبادئ التي تلزم الحكام، ولكنها مستحبة. فإذا قام بها الحاكم استحق الثواب في الآخرة والثناء في الدنيا، وإذا لم يقم بها وتركها فلا حرج عليه في ذلك.

وقال هؤلاء إنه لا يوجد في القرآن نص صريح على وجوب الشورى، وإن قوله تعالى {وشاورهم في الأمر} (سورة آل عمران، أية 159) نزلت في أبي بكر وعمر بن الخطاب فقط. ويرى معظم المفسرين أن هذه الآية ليست من النوع الواجب اللازم ولكنها من المستحب الحسن، وذلك لأن النبي المؤيد بالوحي من قبل اللـه ليس بحاجة إلى الشورى، حيث أغناه اللـه بتسديد خطاه وتوفيقه للصواب. ويفسر المفسرون سبب نزول هذه الآية بأنها للاستحباب وتطييب القلوب عن طريق إظهار التقدير لآرائهم واحترامهم.

وقال ابن كثير:

(إن الرسول كان يشاور أصحابه في الأمر تطييبا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه).

هل الخلافة الإسلامية ما زالت قائمة ؟

-1-

* من ضمن الخطاب السياسي المبهم، المضمر منه والمعلن للفصائل الدينية الإسلاموية المسلحة، الدعوة إلى اقامة الخلافة الإسلامية التي ألغاها كمال أتاتورك عام 1924. ونجد هذه الدعوة معلنة في خطاب (حزب التحرير الإسلامي)كما نجدها في خطاب (القاعدة)وأنصارها. وكانت معلنة في خطاب الإخوان المسلمين في الثلاثينات، وهم الذين دعموا دعوة تخليف الملك فؤاد الأول في مصر، والتي أسقطها كتاب علي عبد الرازق الشهير (الإسلام وأصول الحكم، 1925).

والخلافة الإسلامية هي أيضا من بين أهداف فصائل دينية فلسطينية مسلحة، كحماس والجهاد الإسلامي وغيرهما. فهي سبب (الجهاد المقدس)في فلسطين وعلى المدى البعيد. وكانت هي سبب (الجهاد المقدس)في العراق من قبل السنة والشيعة على السواء. وهي سبب التفجيرات الإرهابية التي جرت في السعودية وفي المغرب وربما ستجري في أنحاء أخرى من العالم العربي مستقبلا

فهل زالت الخلافة الإسلامية لكي تطالب بإعادتها هذه الفصائل الدينية المسلحة من شتى الأطياف الدينية، وفي مختلف بلدان العالم العربي؟

-2-

عندما ألغى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية عام 1924 وطرد الخليفة عبد المجيد بن عبد العزيز من تركيا، الذي انتقل إلى العيش على الشواطىء اللازوردية في نيس وكان، في الجنوب الفرنسي، كان أتاتورك بذلك قد ألغى رسميا الخلافة الإسلامية في تركيا فقط، ولم يلغها فعليا

في باقي أنحاء العالم الإسلامي. فظلت الخلافة الإسلامية قائمة بعد العام 1924 في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، وخاصة في مصر أكبر بلدان العالم الإسلامي خارج الدولة العثمانية. وما الدعوة إلى تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين في مصر إلا تحصيل حاصل. فقد كان الملك فؤاد هو خليفة المسلمين بحق، ودون أن يخلف دينيا بذلك. ولعل ما منعه من أن يتخلف (أي يصبح خليفة) هو علي عبد الرازق كما ذكرنا، وما أثير حول كتابه من قبل شيوخ الإزهر الداعين للخلافة، وما تعرض له عبد الرازق من تجريد لمشيخته كشيخ من شيوخ الأزهر، وإقصائه عن سلك القضاء، وعزله اجتماعيا وسياسيا الخ.

إذن، فالخلافة الإسلامية ظلت باقية واقعيا في العالم العربي وإلى يومنا هذا، رغم إلغائها رسميا منذ 1924. ولعل تسمية الرؤساء بالرؤساء، والملوك بالملوك، والأمراء بالأمراء في هذا العصر، ما هو إلا ضرب من ضروب التحديث السياسي المزيف الذي يغطي العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه.

فهل ما زالت الخلافة الإسلامية قائمة حتى الآن في العالم العربي ولها تجلياتها المختلفة؟

-3-

تتجلى مظاهر قيام الخلافة الإسلامية في العالم العربي اليوم بالتالي:

1- الخلافة الإسلامية بعد العهد العمري (عهد عمر بن الخطاب 634-644م) لم تعد نظاما دينيا وهي لم تكن نظاما دينيا منذ البدء، بقدر ما أصبحت نظاما سياسيا تحكمه المصالح والمنافع السياسية أكثر مما تحكمه القيم الدينية التي لم تأت لنا بأي نص سياسي أو دستور سياسي. فالقرآن يخلو من ذكر الخلافة السياسية. وما السورتان اللتان أتيتا على ذكر الخلافة (سورة البقرة، الآية 30)

التي قالت: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة} وسورة صاد، الآية 26 التي قالت: {يا داؤد إنا جعلناك في الأرض خليفة} إن هما إلا سورتين ذكرتا الخلافة في باب التقوى والعدل والقسطاط والرحمة، إلى آخر هذه القيم الدينية ولم تكن تعني بالخلافة الحكم السياسي. وإن الأحاديث النبوية، التي كانت تتحدث عن الخلافة السياسية، ما هي إلا أحاديث مختلقة وموضعة، وضعها الفقهاء في بداية العصر الأموي والعباسي، لتثبيت الحكمين الأموي والعباسي. إذن، لا نظام إسلاميا سياسيا تم وضعه جنبا إلى جنب مع أنظمة اجتماعية أخرى، كالزواج والطلاق وخلاف ذلك، وأنظمة اقتصادية أخرى كالميراث والحقوق المالية وغير ذلك. فلا يوجد نظام سياسي إسلامي. وكل خليفة جاء، بدءا بأبي بكر (632م) وانتهاء بعبد المجيد بن عبد العزيز (1924م) آخر خلفاء بني عثمان، كان يحكم ويدير شؤون الدولة بطريقة تختلف عن الآخر، فيما يتعلق بالمال العام والإدارة والعلاقات الخارجية.. إلخ. ونحن في العالم العربي لا يوجد لدينا كتاب يعالج المسائل السياسية غير الكتاب اليتيم لأبي الحسن الماوردي (الأحكام السلطانية والولايات الدينية)، الذي كتبه في القرن الحادي عشر الميلادي، وكتاب ابن تيمية (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) الذي جاء في القرن الثاني عشر الميلادي، بعد سيطرة المماليك غير الشرعيين على السلطة. وهي كتب قاصرة على الفترة التي كتبت فيها، وموجهة لسلاطين ذلك الزمان لحثهم على العدل واتباع الحق، وليس لها أي امتداد فكري سياسي تاريخي. ومن هنا يتبين لنا أن لا تراث سياسيا لدى العرب والمسلمين لكي يرتكزوا عليه في إدارة شؤون الحكم الآن، حيث كانت السياسة أسلوب حكم، وليست علما أو فكرا سياسيا كما يقول أحمد البغدادي في (تجديد الفكر

الديني، ص 300) مما جعل الخلافة تمتد من 632 إلى 2004م على نمط واحد، وهو النمط القبلي والبدائي البسيط (بيعة النخبة من أهل الحل والعقد) واللاديمقراطي والاستبدادي والدموي في معظم أزمته، باستثناء فترة قصيرة (12 سنة) التي تغطي عهدي أبو بكر وعمر بن الخطاب. ومن هنا نرى أن الخلافة الإسلامية، منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى عهد آخر سلاطين آل عثمان عبد المجيد بن عبد العزيز (661-1924م)، كانت خلافة دموية أخذت بقوة الساعد وبالسيف، وهي الآن كذلك في العالم العربي ما عدا لبنان تقريبا وقبل العام 1975.

2- إن الخلافة الإسلامية، بنظامها السياسي التوارثي الذي حكم العالم العربي أكثر من عشرة قرون مختلفة (الأمويون والعباسيون والعثمانيون)، ما زال قائما إلى الآن في العالم العربي من خلال الأنظمة الملكية والجملكية (الجمهورية الملكية)، والأنظمة الجمهورية التي تورث الخلافة لمن هم من قيادات الحزب الواحد الحاكم لهذا البلد أو ذاك منذ سنوات طويلة، قد تصل إلى أكثر من نصف قرن من الزمان. ومن الملاحظ أن الخلفاء في العالم العربي، في النصف الثاني من القرن العشرين، كانوا في معظمهم على شاكلة الولاة في التاريخ العربي- الإسلامي الكلاسيكي، خاصة أولئك الذين يحكمون دولا صغيرة وعدد سكان قليلا وإن بعض خلفاء العصر الحديث كانوا أقوى كثيرا من خلفاء كثيرين في العصر الأموي والعباسي. وإن خلفاء في العصر الحديث سبقوا الخليفة عثمان بن عفان في تفضيله لأقاربه من بني أمية على باقي قريش، وهو القائل ما معناه: (لو كان لدي مفاتيح الجنة لسلمتها لبني أمية). وإن خلفاء العصر الحديث كانوا أحرص من كثير من الخلفاء الكلاسيكيين في العصرين الأموي والعباسي على الأبهة والفخامة في القصور والملبس

والمشرب. وكانوا مزواجين، محبين للنساء والشهوات والمال، على شاكلة أعدل الخلفاء الراشدين، وهو عمر بن الخطاب، الزاهد المشهور بصاحب الثوب الواحد (تزوج تسعا من النساء من ذوات المهور المرتفعة، منهن أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وعمرها لا يتجاوز عشر سنوات، ودفع فيها مهرا أربعين ألف دينار ذهبيا) (المغني لابن قدامة، المجلد الثامن، ص68) وكان الدينار الذهبي في ذلك الوقت يزن 228 درهما (المعجم الاقتصادي الإسلامي، للشيخ أحمد الشرباصي، 1891). كما أن الخليفة الزاهد عمر بن الخطاب أوصى لأمهات أولاده بـ 4000 دينار لكل واحدة. وكان بعض أبناء خلفاء المسلمين أكثر غنى من آبائهم. وعبد الله بن عمر بن الخطاب ابن أعدل الخلفاء في التاريخ الإسلامي، يعد واحدا منهم. فقد روي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، أنه اعتق ألف عبد عندما مات (الرياض النضرة في مناقب العشرة، المحب الطبري، ص467) وكان هؤلاء - عدا من لم يتم عتقه - يعملون في مزارعه وقصوره وأملاكه، فتخيل حجم ثروته من خلال ذلك، وهو ابن أعدل خليفة.

3- لا يوجد في الحضارة العربية أو في علم السياسة العربية أي مفهوم للدولة. والدولة في التاريخ السياسي العربي الكلاسيكي ارتبطت بالعائلة المالكة للحكم، كبني أمية وبني العباس، الذين حكموا كخلفاء طيلة ستة قرون (661-1258م) فيقال الدولة الأموية والدولة العباسية. ولم يختلف الأمر لدي العثمانيين الذين حكموا طيلة سبعة قرون (1281-1924م) فيقال الدولة العثمانية. كذلك الحال الآن في العالم العربي، فكثير من الدول تسمى بأسماء الأسر الحاكمة فيها.

4- كان أبرز مظهر من مظاهر الخلافة الإسلامية الكلاسيكية الشورى وهي نظام بدائي قبلي متخلف تخلفا شديدا وهي ليست من اختراع

الإسلام، وإنما وجدت قبل الإسلام بعدة قرون، حيث كان شيوخ العرب يجتمعون للبحث والتشاور في قضاياهم. وقد عرفت مكة التجارية (دار الندوة)التي كانت بمثابة برلمان العرب قبل الإسلام، ولكنه ليس برلمانا سياسيا وإنما كان برلمانا تجاريا، أو قل (غرفة تجارية)بمفهوم اليوم، وظيفتها حل المنازعات وعقد الصفقات التجارية. وقد استمر هذا الأسلوب البدائي التشاوري منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا. وهو علامة لا تفارق الخلافة الكلاسيكية والخلافة المعاصرة، حيث يوجد في معظم الدول العربية مجالس للشورى المعينة بالتعيين إما وحيدة، أو إلى جانب مجالس النواب. كما ظلت الشورى في الخلافة المعاصرة معلمة وليست ملزمة كما كانت في الخلافة الكلاسيكية.

5- لم يكن للشعب رأي في اختيار الخليفة الكلاسيكي بدءا من أبي بكر وانتهاء بالسلطان العثماني عبد المجيد بن عبد العزيز. وكان الترشيح يتم لشخص واحد لا منافس له (ما عدا ما تم في خلافة عثمان حيث تم ترشيح ستة، وفاز عثمان). ومن هنا فلم يكن للشعب رأي فيمن يحكمهم، إما خوفا وإما صدودا ونتيجة لتباعد الأقطار قرر الفقهاء أنه لا لزوم للشعب لكي ينتخب الخليفة انتخابا مباشرا من قبل الشعب. وفي الخلافة المعاصرة، يتم أيضا في معظم الأحيان ترشيح شخص واحد فقط، وفي بعض الأحيان لا نائب له، فيما لو لم يكن الملك ملكيا وراثيا كما أن ولي العهد في الحكم الملكي واحد لا خيار لأحد فيه.

فلماذا كل هذا (الجهاد المقدس)لإعادة الخلافة، والخلافة لم تغادرنا لحظة واحدة منذ عام 632 م وإلى الآن.

ألا يصدق في الفصائل الدينية المسلحة وغير المسلحة المنادية بعودة الخلافة الكلاسيكية، بينما الخلافة ما زالت تحكمنا إلى الآن، قول الشاعر:

كالعير في الصحراء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول!

-4-

منذ أربعة عشر قرنا حتى الآن، والعرب ما زالوا يحكمون بنير الطغاة والعتاة.
لم تضأ السماء العربية بالحق والعدل والحرية إلا في سنوات قليلة متقطعة، تقطع المطر في الصحراء العربية الشاسعة.
كان التاريخ السياسي العربي أجدب، قاحلا، ماحلا من العدل والحق والحرية، مليئا بالظلم، والطغيان، والسرقات، والعدوان. ولم يكن فيه غير تلك الواحات (العمرية)الصغيرة المتباعدة من الحق والعدل، والتي جاءت رياح طغيان الصحراء العربية المترامية العاتية واستبدادها فطمرتها، وساد (الطوز)(رمال الصحراء التي تهب في بداية الصيف) الديكتاتوري العاتي العرب زمنا طويلا، فتحولت الخلافة الكلاسيكية المطلقة المدعمة بـ (الحق الإلهي)وبنظرية (الجبر)التي جاء بها الأمويون إلى النظام الديكتاتوري العربي العاتي الآن، بسائر صوره الحزبية والعسكرية والقبلية.
فما هي أوجه الشبه بين ماضي الخلافة الكلاسيكية ذات الحكم المطلق، وبين الديكتاتورية العربية القائمة الآن بسائر صورها الثلاث: الحزبية والعسكرية والقبلية؟

-5-

كانت الخلافة الكلاسيكة تعني الحكم المطلق.
فالخليفة الكلاسيكي كان يمسك بالسلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية. ومن هنا جاء الاستبداد والظلم الذي كان يقويه السلطان والمال في الوقت نفسه. وكان الخليفة هو (ظل الـلـه على الأرض)

كما قال الخليفة المنصور، وهو الأمين على بيت المال الذي هو مال الـلـه، باعتباره ظل الـلـه وخليفة رسوله، كما قال معاوية بن أبي سفيان.

والخليفة المعاصر، الآن يفعل الشيءذاته. بيده السلطات الثلاث، وإن بدت هذه السلطات - ظاهريا - مستقلة ومنفصلة عن الخليفة، ولكنها في حقيقة الأمر ليست كذلك، وإنما كلها بيد الخليفة المعاصر. وما انتشار الاستبداد الحالي في العالم العربي إلا نتيجة لذلك. وفي هذا يقول السيد العلوي عن الخلافة المعاصرة في كتابه (أضرار الحكم القبلي في دول الخليج العربية، 2003) (لقد اعتمدت الديكتاتوريات على مر التاريخ على فلسفات واهية لتبرير احتكارها للسلطة وحرمان الآخرين، كالحق الإلهي في الحكم، وكحق الأسرة والسلالة. في القرون الغابرة وفي القرون المتأخرة، تنامت فلسفة المجموعة الطليعية والريادية التي تقود الأمة ولو بالقهر إلى تطورها المأمول على مختلف الأصعدة. ونشأت على ضوئها الدول الشمولية، وتحورت في شكل سياسي عبرت عنه بوضوح دولة الحزب الواحد. وقد حاولت مختلف هذه الصور التلبس بالدين عندما ترى احتياجا لذلك، فتوظف الأحاديث والمفاهيم الدينية من أجل تبرير وصولها إلى السلطة واحتكارها لها. إلا أن أقبح الفلسفات في نظري هي فلسفة الحق الإلهي في الحكم المنحصر في شخص بعينه أو أسرة بعينها اعتمادا على جدلية كاذبة، تتمحور حول ادعاء أن الـلـه تعالى خص هذه الأسرة بالحكم والسيطرة على القرار، وأن باقي الأسر أو التشكيلات أو الأمة بأسرها عليها التسليم والرضى بذلك. ولا يجوز لها العمل على تغيير هذه الرغبة الإلهية).

-6-

لو دققنا الفكر في معنى الرشد الذي أطلق على العهد الراشدي (632-661م) لوجدنا أن الرشد كان يعني (الحرية دون إكراه). أي؛ عدم

إكراه الناس على الإيمان، وعدم فرض الأيديولوجيا الإسلامية فرضا على الناس. أي؛ لا إكراه في الدين، ولا في السياسة أيضا والدين في الحضارة العربية سياسة، والسياسة هي الدين.

فالإسلام ليس دينا أولا ثم دولة ثانيا، ولكنه دين سياسي أولا وآخرا

والإسلام دولة أولا، ثم دين ثانيا

والدليل أن أول عمل قام به الرسول بعد هجرته إلى المدينة، أن أقام (دولة المدينة)قبل أن يبدأ بنشر الدين فيها، وأشرك في هذه الدولة العرب المسلمين، والعرب الكفار، واليهود أيضا لقد حقق الرسول بذلك، أول دولة علمانية في تاريخ العرب، وهي (الدولة اللادينية)المكونة من مسلمين، وكفار، ويهود. فكانت أول دولة في الإسلام (دولة سياسية)، وليست (دولة دينية).

والفتوحات الإسلامية التي تمت بعد ذلك، جاءت من هذا المنطلق السياسي، وليس الديني. وهي فتوحات عسكرية سياسية بكل المقاييس، أكثر منها فتوحات دينية. وتلك واحدة من أهم مبادئ الديمقراطية الإنسانية، وهي إتاحة الحرية للفرد لكي يؤمن بما يشاء، ويكفر بما يشاء، حيث {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} (البقرة، 256/2).

إذن، فقد كانت الديمقراطية تعني الرشد في جزء من العهد الراشدي. وبدلا من أن يطلق على عهد الراشدين، العهد (الديمقراطي)، اطلق عليه العهد (الراشدي). علما بأن حروب الردة التي قام بها أبو بكر خلال العامين من حكمه، ولم يكن بعض الصحابة مؤيدين لها، ومنهم عمر بن الخطاب، أنقصت من التطبيق الديمقراطي بمعنى الرشد. ولعل عهد عمر بن الخطــاب (634-644م) هو العهد الوحيد الذي يتسم بالرشاد (الديمقراطية) أكثر من أي عهد راشدي (ديمقراطي) آخر. وبعد

العهد الراشدي لم يكن هناك رشاد (ديمقراطية)، وامتد عهد الغي (الديكتاتورية العائلية والقبلية) منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى الآن، باستثناء واحة الحرية والديمقراطية التي أتاحها لمدة سنتين حكم الخليفة الأموي الثامن، عمر بن عبد العزيز (717-720م).

لقد قال مفكرون إسلاميون مستنيرون كالمفكر السوري جودت سعيد في كتابه (الإسلام والغرب والديمقراطية، ص152) من أن (في المسلمين الآن عجزا ديمقراطيا حقيقيا يفقأ العين. فهم في الحاضر برفضهم للديمقراطية واعتبارها كفرا، إنما يلجأون إلى الغي من دون الرشد لحماية الإيمان الخرافي الذي هم فيه. والسبب أن في المسلمين الآن جهلا وظلاما واختلاطا، ليس في الشباب المتحمس إلى درجة الانتحار فحسب، وإنما في أشياخ الدين الذين ينتحرون بالبرودة والعجز عن الفهم والخوف من الرشد والاحتماء بالغي).

-7-

لقد حاولت الفرق الإسلامية السياسية الكلاسيكية، كالخوارج والمعتزلة وغيرهما، طرح تصور مثالي للخلافة الإسلامية، لم يؤخذ به في العصور الخلافية الكلاسيكية، بل إن ما حدث هو عكس ذلك، حيث تمت مطاردة هذه الفرق، واضطهادها، واعتبارها فرقا معارضة للنظم السياسية، يجب القضاء عليها.

وما حصل في الخلافة في العصر الحديث هو نفسه. فقد حاولت فرق إسلامية سياسية معاصرة، كجماعة الإخوان المسلمين وحزب التحرير وغيرهما، طرح مفهوم الخلافة الإسلامية للتطبيق السياسي الفعلي كبديل للديمقراطية الغربية المطبق جزء صغير منها في العالم العربي للتزويق السياسي فقط، ولكنها فشلت في ذلك. وتم اعتبارها من الفئات المعارضة والخارجة على القانون ونظام الدولة. ومن هنا يتبين لنا أن الخلافتين

الكلاسيكية والمعاصرة لم يتم تطبيقهما كما ترى وتريد الأحزاب السياسية الإسلامية، ولكن كما يريد الحاكم، وبما يتماشى مع مصالحه الشخصية، وبما يضمن له ولأسرته طول الحكم، وصونه.

-8-

كانت حقوق المرأة في العلم والتعليم مغيبة في الخلافة الإسلامية الكلاسيكية. فلم يتم تعيين المرأة في منصب حكومي رفيع إلا في عهد عمر بن الخطاب الذي ولى امرأة (الشفاء بنت عبد اللـه العدوية) شؤون (حسبة السوق)في مكة، وهو ضرب من الولاية العامة، كما يقول الأمام ابن حزم في (المحلى). كما كانت أم سلمة زوج الرسول، مستشارة للأمن القومي الرسولي، وهي التي أشارت على الرسول بعقد (صلح الحديبية) المشهور، رغم معارضة أصحابه. وكانت حفصة بنت عمر بن الخطاب مستشارة الخليفة ابن الخطاب لشؤون المرأة. وبعد هذا العهد، لم نسمع للمرأة شأنا في دولة الخلافة الكلاسيكية، وكرست المرأة للخلف والعلف فقط، وإن كانت المرأة العربية قد لعبت دورا مهما في الفرق السياسية الإسلامية المعارضة، كفرقة الخوارج، كما لعبت دورا مهما في الأدب العربي.

وحين جاءت الخلافة العثمانية، لم نسمع صوتا للمرأة، التي اقتصر دورها داخل أسوار القصور على الخلف والعلف، ونشأ مصطلح (الحريم)العثماني، الذي كان يعني الجواري والسراري التابعات للسلطان العثماني. وبلغت المرأة في الخلافة العثمانية أدنى وأحط درجات الإنسانية والعلم والعمل.

وفي الخلافة المعاصرة، لم يتحسن وضع المرأة كثيرا حتى الآن. وما زالت المرأة في كثير من البلدان العربية لا تتمتع بأي حقوق سياسية أو اجتماعية، ولا تمارس الأعمال التي يقوم بها الرجال سواء بسواء. كما

حرمت من التعليم، وبلغ عدد النساء الأميات في العالم العربي أكثر من ستين مليون امرأة، حسب تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية لعام 2002. وهذا كاف لوضع المرأة العربية في قاع العالم، وفي أسفل السلم، كما أشار التقرير المذكور.

-9-

ما زال موضوع الشورى والخلاف عليه في الخلافة المعاصرة، هو كما كان عليه في الخلافة الكلاسيكية. فقد انقسم الفقهاء الكلاسيكيون فيما بينهم حول هذا الموضوع. فمنهم من اعتبر الشورى ملزمة للخليفة، ومنهم اعتبرها معلمة، للحاكم أن يأخذ بها أو يدعها.
وفي الخلافة المعاصرة الآن، ما زال هذا الخلاف مستعرا ففريق كالشيخ خالد محمد خالد ومحمد الغزالي وأحمد صبحي منصور وجمال البنا وغيرهم يقولون بوجوب إلزام الخليفة بالشورى، وبما تشير. وفريق آخر كالشيخ عبد العزيز بن باز ومتولي الشعراوي ويوسف القرضاوي ومعظم شيوخ المؤسسة الدينية الرسمية التابعة للدولة، يقولون بأن الشورى معلمة وليست ملزمة. ويبدو أن العرب والمسلمين لم يحسموا أمرهم في قضية الشورى بعد، هل هي ملزمة أو معلمة، منذ عهد معاوية بن أبي سفيان حتى الآن!

-10-

كان علماء الدين في الخلافة الكلاسيكية هم أصحاب القرار الفعليين، وهم الذين يستشارون فقط، من دون بقية الشعب وفئاته الأخرى. وكان هؤلاء العلماء والفقهاء هم الذين يحتكرون (الاجتهاد)وتفسير الدين، بالطريقة التي يرون أن الحاكم سوف يرضى عن هذا التفسير المريح له ولحكمه. وكانت تفسيرات هؤلاء العلماء والفقهاء، ترفع

فورا للحاكم، دون أن يكون للشعب رأي فيها. وللخليفة الكلاسيكي أو العصري أن يسمح بالاجتهاد الديني أو يغلقه، كما فعل آخر خلفاء بني العباس، أبو أحمد بن عبد الله المستعصم بالله (1525-1258م) الذي أوقف (الاجتهاد)، وما زال (الاجتهاد)موقوفا حتى الآن في الخلافة المعاصرة، عملا بقاعدة (ما أغلقه السلف لا يفتحه الخلف).

وفي الخلافة المعاصرة، يتم العمل ذاته، ولعل كثيرا من المشاهد التلفزيونية تذكرنا بهذه الصورة الكلاسيكية لأهمية ورفعة مقام الفقهاء والعلماء من رجال الدين فقط، وهم يحيطون بالحاكم. وفي الدول ذات النظام الجمهوري، أو ذات النظام الملكي المتقدم قليلا، يبقى علماء الدين والفقهاء يعملون من وراء الستار، دون أن يظهروا جليا على سطح الحياة السياسية. ولا يقدمون الفتاوى الشرعية اللازمة إلا إذا طلب منهم ذلك.

وكما كان الفقهاء وعلماء الدين يعينون من قبل الحاكم في الخلافة الكلاسيكية، فكذلك يتم الأمر الآن في الخلافة المعاصرة.

-11-

كان العلماء والفقهاء في الخلافة الكلاسيكية يطلقون على الخليفة ألقابا دينية تبجيلية وتقديسية كثيرة، لكي يلقوا خوف الهيبة ورعبها في قلب الشعب. فكانوا يطلقون على الخليفة ألقابا مثل: أمير المؤمنين، خليفة رسول الله، خليفة الله على أرضه، المنصور، المعتصم بالله، الواثق بالله، المتوكل بالله، المنتصر بالله، المستعين بالله، المعتمد على الله، المعتز بالله، المهتدي بالله، المعتمد على الله، المعتضد بالله، المكتفي بالله، المقتدر بالله، القاهر بالله، الراضي بالله، المتقي لله، المستكفي بالله، المطيع لله، الطائع لله، القادر بأمر الله، القائم بأمر الله، المستظهر بالله، المسترشد بالله، الراشد بالله، المقتفي لأمر الله، المستنجد بالله، الناصر لدين الله، الظاهر بأمر الله، المستنصر بالله، المعتصم بالله.. الخ.

كذلك فقد أطلق العلماء والفقهاء على الخلفاء المعاصرين ألقابا شبيهة، منها دينية ومنها قومية، كخادم الحرمين الشريفين وكان أول من أطلقه العثمانيون، الإمام، السلطان، صاحب الجلالة، صاحب الفخامة، صاحب السيادة، صاحب السمو، أمين القومية العربية، الخالد الذكر، بطل القومية العربية، بطل التحرير، الأب، القائد، الضرورة، الحارس، قائد المسيرة، المنقذ، بطل القادسية، المهيب، الزعيم، رافع لواء الإسلام، رافع لواء العروبة.. الخ.

-12-

كانت الخلافة الكلاسيكية في حكمها وفي أحكامها متناقضة مع نفسها.
ففي حين أنها كانت تدعي أنها تحكم باسم الإسلام وباسم العدالة الإسلامية، كانت ظالمة لشعبها ورعاياها. وفي حين أن الخليفة الكلاسيكي، كان هو المؤتمن على مال الـلـه - كما كان يدعي - كان هو السارق والناهب الأكبر لبيت المال، دون حساب أو عقاب. وفي حين أن الخليفة كان هو المؤتمن على دين الـلـه، فقد كـان في معظم الأحيان هو الخـارق، وهو المخالف لتعاليم الـلـه في شتى نواحي الحيـاة.
والخليفة المعاصر الآن، يقع في تناقضات كثيرة، اضافة للتناقضات التي كان يقع فيها الخليفة الكلاسيكي.
فمن تناقضات الخلافة المعاصرة الآن، أنها تجيز الربا بالقانون وتمنع الخمر بالقانون. وكلا الربا والخمر محرمان شرعا فكيف يتفق هذا مع ذاك؟
ومن تناقضات الخلافة المعاصرة الآن، أنها تبيح العمل للبنوك الإسلامية التي هي ربوية في حقيقتها، حيث أنها تتعامل مع النظام البنكي العالمي الربوي، وتودع أرصدتها في هذه البنوك العالمية الربوية،

فيختلط الحلال بالحرام، حسب شرائع (إسلام الفقهاء)القديم والجديد.

-13-

كان المال الخاص للخليفة الكلاسيكي مختلطا بالمال العام. وكان (بيت المال)هو صندوق الخليفة. ولا يعلم أحد كم يصرف الخليفة وكم من الأموال ينهب من (بيت المال). وكان راتب الخليفة ومصروفاته هو وعائلته من أسرار الدولة التي لا يعرفها أحد سواه. والخليفة في الخلافة المعاصرة يفعل الشيء ذاته. فمن منا يعلم رواتب الملوك ورؤساء الجمهوريات العرب، وكم هي مصروفاتهم السنوية هم وعائلاتهم. وكما كان الخلفاء في الماضي لا يؤدون الزكاة، ولا أي ضريبة أخرى، فكذلك يفعل خلفاؤنا في العصر الحديث. فلا أحد منهم يدفع ضريبة أو زكاة للخزينة العامة، كما قال السيد العلوي في كتابه (أضرار الحكم القبلي في دول الخليج العربية، 2003).

ولقد ربطت الخلافة الكلاسيكية بين المال وبين الدين. واعتبرت أن تحكمها في المال العام (بيت المال) هو أساس حفظ كيانها السياسي - الديني. لذا، فقد كان الخليفة دائما هو وزير المالية الإسلامي الحقيقي (أمين بيت المال) ولا رقابة عليه مطلقا فيما يقبض، وفيما يدفع. كذلك كان الأمر الآن بالنسبة للخلافة المعاصرة. فالخليفة المعاصر في العالم العربي هو وزير المالية الحقيقي، رغم وجود وزير مالية آخر، هو عبارة عن محاسب وظيفته التدوين فقط، والبصم فقط، وليس المحاسبة الفعلية عما يدخل وعما يخرج من أموال. ولا أحد يعلم كم هو المصروف السنوي للخليفة المعاصر. على عكس الدول الديمقراطية الغربية التي تعلن عن راتب الحاكم ومصاريفه، كما تعلن عن دفعه للضرائب المتوجبة عليه، بإظهار صورة سند دفع الضريبة المتوجبة عليه في الصحافة علنا، لكي يكون المثال الصالح للجميع.

هل العرب مسلمون؟!

-1-

* إنه سؤال من أسئلة الحمقى!
ولكن أين أسئلة العقلاء هذه الأيام في الفضاء العربي والإسلامي؟
عندما جاء الإسلام إلى العرب قبل أربعة عشر قرنا، كان العرب في أشد الحاجة إليه. ولولا خوفهم من أن الدين الجديد سوف يهدد أمنهم ويقضي على تجارتهم والسياحة الدينية التي كانت تجلبها الأصنام لهم، ويثور عليهم العبيد والأجراء والمستخدمون والمعذبون في الأرض، وهو ما عبر عنه القرآن بقوله: {وقالوا ان نتبع معك الهدى نتخطف من أرضنا} (سورة القصص، آية 58) لدخلوا في دين الـلـه أفواجا منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام، ولما بقي الرسول يدعوهم في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة، دون أن يستطيع إدخال أكثر من 150 مسلما فقط في الإسلام. وخاصة أن قبيلة قريش كانت هي المستفيدة الوحيدة من الإسلام، كما لم تستفد أية طائفة أخرى في التاريخ من أيديولوجية أرضية أو سماوية. وهي التي عبأت خزائنها بفضل الغزو الديني المسلح بمال وفير لا حصر له، وامتلأت بيوتها وشوارعها وتجارتها بالعبيد والجواري والقيان والسبايا، الذين بلغ عددهم أضعاف أضعاف ما كان عليه قبل الإسلام، وحكمت إمبراطورية تمتد من الشرق إلى الغرب طوال ستة قرون متوالية (632-1258م) ومن أبي بكر إلى آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله.
ولكن قريشا والعرب من ورائها استفادوا من الإسلام حضاريا وثقافيا، رغم هذه المظاهر المادية الصرفة التي استفادت منها قريش واستفاد منها العرب من بعدهم على وجه الخصوص، حيث لم يحكم الإمبراطورية الإسلامية طوال ستة قرون غير حكام عرب مسلمين وقرشيين، علما بأنها كانت (إمبراطورية إسلامية)وليست عربية فقط؛ أي

يحق لعبد ذي زبيبة أن يحكمها فيما لو كان صالحا للحكم، ولكن يبدو أن لا حاكم صالحا من غير قريش كان صالحا للحكم، وهو ما ينطبق الآن على العالم العربي، حيث لا حاكم صالحا غير ما هو ظاهر على الشاشة، يحكم عشرات السنين، دون نائب منظور، ثم يفاجأ القوم بأن النائب كان في كم الحاكم الساحر، وهو الابن الشاطر.

دخلت الإسلام شعوب متقدمة في حضارتها وعمرانها وآدابها وفنونها وعلومها، وتشكلت فيما بعد ما يعرف بالحضارة الإسلامية، وما كان الإسلام غير قشرة ذهبية روحانية طليت بها هذه الحضارات التي كانت قائمة قبل الإسلام، كالحضارة اليونانية والفارسية والهندية وغيرها، كما لم يكن الإسلام غير عنوان جديد لهذه الحضارات التي تخلت عن أسمائها ورضيت، نتيجة لظروف تاريخية معينة ومختلفة، التخلي عن اسمها والعيش تحت اسم جديد وهو (الحضارة الإسلامية)التي قاد مسيرتها فيما بعد - في أغلب العصور والحقول - علماء ومفكرون وشعراء وفلاسفة ولغويون من غير العرب.

-2-

رضي العرب بالإسلام ورحبوا وتمسكوا به طيلة ستة قرون من بداية العهد الراشـدي حتى نهايـة العصر العباسي، لأنه كـان (الكنـز)و(مفتاح الثراء)و مصدر السلطة في الحياة. فهو الذي مكنهم من السلطة والمال. وكان عليهم أن يتشبثوا به، وإلا ماتوا جوعا وتشردوا في الأرض، حيث لا صناعة لهم تغنيهم، ولا زراعة لهم تطعمهم، ولا ثروة طبيعة في باطن الأرض تسعدهم، وليس لهم من مصدر رزق غير الجزية، وغير ما يكسبونه في الغزوات من مال وأرض ونساء وعبيد. وكان الاقتصاد الإسلامي، على هذا النحو، هو بحق (اقتصاد حرب)طيلة ستة قرون من حياة الإمبراطورية الإسلامية. لذا، كان يتوجب على العرب طوال ستة قرون أن

يكونوا تحت السلاح دائما، وفي حالة حرب دائمة وغزو مستمر، تأكيدا لقول الرسول: (جعل رزقي تحت ظل رمحي)؛ أي لا عيش ولا حياة إلا للمحاربين! وكان كل ذلك في ظل عدم وجود أيديولوجيات عظمى تتحدى الملك الإسلامي وتنتزع منه الأرض، ودون وجود قوى سياسية وعسكرية عظمى تتحدى الإمبراطورية الإسلامية وتهددها، وتنتزع منها السلطة والمال.

-3-

في العصر الحديث لم يعد الإسلام - كدين للعرب - قادرا على أن يستخدم كسلاح لغزو الآخرين في ظل وجود أيديولوجيات أرضية جديدة وقوية، وفي ظل وجود قوى عظمى وصغرى متفوقة على العرب ليس بالدين، ولكن بالقوة العسكرية وبالعلم والصناعة والفكر والمعلومات والإعلام.. الخ.

كما أن العرب المسلمين لم يعودوا قادرين على تجييش الجيوش لغزو الآخرين والاستيلاء على أراضيهم، وسبي نسائهم، وتعيين الولاة عليها بحجة نشر الدين، بل هم غير قادرين على استرجاع ما انتزع منهم من أراض من قبل دول إسلامية كتركيا وإيران، ومن قبل دول أوروبية كأسبانيا، ومن قبل إسرائيل.

وفي العصر الحديث انحط العرب ليس بالشعارات والخطب فقط، ولكن بالحقائق العلمية والتاريخية إلى الدرك الأسفل، علميا وماليا واقتصاديا واجتماعيا، وأصبحت قيمهم قيما غاباتية ليست إنسانية ولا رحمانية، ولم يصدق العرب وجههم القبيح في مرآة تقريري التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة لعامي 2002، 2003، فتعالوا، وأنكروا، واستكبروا، وكابروا، واتهموا معدي التقريرين (وكلهم قاطبة من النخب العربية الأقحاح ذات الكفاءات العالية) بأنهم من (الصهاينة)ومن

(عملاء المخابرات الأمريكية)، وبأن هذين التقريرين (مؤامرة جديدة)على العرب والإسلام.

-4-

منذ زمن طويل، والعرب كانوا أمة حاكمة غير محكومة، وسيدة غير مسودة، وغازية غير مغزية، ومرسلة غير متلقية، وهادية غير مهدية، وقاضية غير متهمة، وظالمة غير مظلومة، ولها الصدر دون العالمين أو القبر.. الخ. ولكنها وجدت نفسها في هذا العصر الحاضر على عكس ذلك، وأنها في الدرك الأسفل من الأمم، وليس تحتها في قائمة العالم غير الصحراء الإفريقية الجنوبية فقط. فما العمل لكي تحاول أمة العرب ولو في الخيال والأحلام أن تعيد مجد الماضي، وتصبح شغل العالم الشاغل، والسيف المهاب، وقاطعة الرقاب؟
عليها أن تخطف الإسلام أولا، وهو كل ما تملكه في دنياها، ثم تأسره بعيدا في جبال أفغانستان وكهوفه، وتسرقه من قبل حفنة من المفترين على الدين، وتؤوله، ثم تحيله إلى موجات من العنف والإرهاب وقطع الرقاب. وتأتي بإسلام عربي جديد لا علاقة له بإسلام الآخرين في العالم، الذين يمثلون 81%، بينما لا يمثل العرب غير 19% من العالم الإسلامي. وإسلام العرب الآن هذا، له فرسانه الملثمون الظاهرون على شاشات الفضائيات، وله فضائياته وصحفه وكتبته، وله فقهاؤه المعممون ذوو الوجوه الثلاثة: وجه للعرب، ووجه للغرب، ووجه ثالث للتراجع، وله فقهاء سفك الدماء، وفقهاء الفتاوى والفتاوى المضادة، وله أصوليوه المقنعون بقناع الدين المخطوف والمزور، كما قال المفكر الليبي المرحوم الصادق النيهوم في كتابه (الإسلام في الأسر).

فماذا يفعل باقي العرب الآن من المسلمين الصامتين، وهم الأغلبية الصامتة، لكي ينقذوا الإسلام مما هو فيه من محنة على يد الفقهاء والخاطفين والسارقين له، والمنتفعين به؟
على العرب أن يعترفوا الآن بأنهم غير مسلمين، وأنهم أبرياء من الإسلام، والإسلام بريء منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب، حماية وصيانة لشرف الإسلام، ولكي يفوتوا على الغرب اتهام (الإسلام العربي)بالإرهاب، ولكي تبقى الحقيقة ساطعة وهي أن العرب - بعيدا عن الإسلام - هم الإرهابيون، وليس الإسلام ورسالته الإنسانية التي لم تعرف الإرهاب. ومن هنا أقر المؤتمر الدولي للإرهاب الذي عقد في الرياض في فبراير 2005 بأن لا علاقة للدين بالإرهاب.
فالمسلمون من غير العرب ليسوا ارهابيين. فالأتراك ليسوا إرهابيين، وكذلك الباكستانيون، والإندونيسيون، والماليزيون، والبنجلادشيون، وسائر مسلمي العالم. وما جرى في تركيا والباكستان وإندونيسيا ليس من فعل المسلمين الآسيويين ولكنه من فعل العرب المسلمين وبأموالهم وبتخطيطهم. فتركيا وشعوب آسيا المسلمة لم تعرف الإرهاب قبل ظهور جماعة الإخوان المسلمين، وجناحها العريض والطويل: (القاعدة)، وقبل انتشار العربان الأفغان في العالم.
إن الجرائم الإرهابية الفظيعة، التي ارتكبت في الجزائر والمغرب والسعودية واليمن والأردن ومصر والعراق وروسيا واسبانيا وأمريكا وفرنسا، كانت من تدبير عرب مسلمين، وليس من تدبير مسلمين من غير العرب. وإن هذه البلاد التي انتكبت بالإرهاب الدموي لم تعرف الإرهاب على هذا النحو من العنف والوحشية (باستثناء مصر، قاعدة الإرهاب المتأسلم قبل عام 1990 لوجود المركز الرئيسي لجماعة الإخوان المسلمين ، مركز إشعاع الإرهاب في العالم الآن) قبل أن يخطف العرب الإسلام ويكونوا

(التنظيمات السرية الخاصة)، ويهربوا به الى تورا بورا وكهوف أفغانستان وسراديب الفالوجة.
فهل ما زال العرب مسلمين إسلام محمد عليه السلام؟

-6-

لا يغرنك هذا العدد الكبير من المساجد في العالم العربي.
ولا يغرنك هذا العدد الهائل من رجال الدين، وهم الذين يطلق عليهم (العلماء)والأكثر عددا من (الخبراء)في العالم العربي!
ولا يغرنك هذه الملايين من المسلمين التي تملأ المساجد كل يوم جمعة، ولا هذه الملايين التي تفد إلى الحج كل عام، ولا هذه الملايين التي تصلي التراويح في كل ليلة من ليالي رمضان.
ولا يغرنك الآلاف من كتب اجترار الدين دون نقده، التي تصدر كل عام في العالم العربي، والتي يتغرغر بها (المسلمون)غرغرة، دون تفكير، أو تأمل، أو تدبر.
لقد تحول الإسلام عند هؤلاء من قيم أخلاقية، وواقعية سياسية، وعقل، وتدبر، ودين حوار، وقبول، ورضى بالفكر الآخر، إلى تعاويذ، وسحر، وشعوذة، وفتاوى سياسية مدفوعة الثمن، وإلى دين شعائر وطقوس، تؤدى كما تؤدى الألعاب الرياضية الروتينية المفروضة، في طوابير الصباح على طلبة المدارس.

-7-

نحن نعلم أن محمدا عليه السلام كان خاتم الأنبياء والمرسلين. وكان ذلك الختام ذا معنى كبير، وهو أن البشرية قد شبت عن الطوق بعد ذلك، وبلغت سن الرشد، ولم تعد بحاجة إلى أنبياء، وأنها بهذا الختام مدعوة لأن تتولى أمرها بنفسها دون أنبياء أو مرسلين. ولكنا اكتشفنا نحن العرب

الآن، بأننا ما زلنا قصرا، ولم نبلغ سن الرشد بعد، وبأننا رددنا إلى أرذل العمر، وهو إما الشيخوخة أو الطفولة، وأننا بحاجة إلى رحمة من الـلـه لإنقاذ دينه من سوء ما فعلنا به.
فهل يبعث الـلـه فينا محمدا من جديد، لكي يحارب هذه الجاهلية التي نحن فيها كما حاربها من قبل؟
وهل يبعث الـلـه فينا محمدا من جديد، لكي يحارب أصنامنا وطواطمنا الجديدة أمثال ابن لادن والظواهري والقرضاوي والغنوشي والترابي والرفاعي والبيومي والزيدان وغيرهم، كما حارب أصنام الجاهلية الأولى؟
هل يبعث الـلـه فينا من يجدد له دينه، ويعيده من سارقيه ومختطفيه ومشوهيه ومزوريه ومن فقهائه المرتزقة، أصحاب الفتاوى والفتاوى المضادة، ويصفيه من الإرهاب والاستغلال، وينقيه من المتاجرة وطلب السلطان؟
فيا محمد الهادي، انهض لتر ماذا فعل الفقهاء بإسلامك.
لقد شرعوا ما لم يأت به قرآنك، وما لم تأت به أحاديثك، وقالوا ما لم تقله، وفعلوا ما لم تفعله، وجاءونا بإسلام جديد هو (إسلام الفقهاء)وليس إسلامك.
قم يا أبا عبد الـلـه لكي تخلصنا، وتعيد هذا الدين إلى دنيانا المعاصرة بعد أن أصر الفقهاء على سجنه في الماضي السحيق، بين مكة والمدينة فقط.
تعال لتر ماذا فعل الفقهاء بأصحاب الكتاب، فسوف ترد هذا الدين من غربته ومن مختطفيه في الجبال والكهوف والسراديب، دون هجرة، ودون قطع لطريق قوافل المشركين، ودون غزوات، ودون هدر دماء، وسوف تعقد صلحا حضاريا جديدا بشجاعتك مع (الكفار)، كما عقدت (صلح الحديبية)مع مشركي قريش رغم اعتراض الصحابة. وسوف تسخر ممن يريدون رفع راية الإسلام فوق قصر بكنجهام في لندن، وفوق البيت

الأبيض بواشنطن، وأقامة الخلافة الإسلامية هناك.
تعال أيها الحبيب، وأنظر ماذا فعل المسلمون والفقهاء بإسلامك منذ أن رحلت عن دنيانا إلى اليوم. لقد أصبحوا مسلمين بلا إسلامك، ولكن بإسلام الفقهاء، بل هم بدون إسلام أيا كان، كما قال الشيخ محمد عبده منذ قرن من الزمان.
انهض أيها الهادي، لكي ترد الإسلام من غربته، فلا أحد غيرك قادر على رده.

ما هو الالتباس التاريخي في إشكالية الإسلام والحرية؟

-1-

* تظل إشكالية الإسلام السياسي من أكثر الاشكاليات إغراء على البحث من قبل المفكرين العرب والغربيين وخاصة في هذا الوقت، حيث تتصاعد موجات الإرهاب الأصولي الديني، التي انطلقت أساسا عندما تم تسييس الإسلام تسييسا حزبيا وعقائديا من قبل جماعة الإخوان المسلمين منذ العام 1942، عندما ترشح حسن البنا، مرشد الإخوان المسلمين، للانتخابات النيابية في مصر، وتراجع بعد ذلك نزولا عند رغبة مصطفى النحاس باشا ونصيحته، الذي نصح الإخوان بأن يبقوا هداة لا قضاة. وهذا ما ردده فيما بعد مرشدهم المستنير حسن الهضيبي، ولكن ما من مجيب. فإغراء الكراسي السياسية لا يقل قوة وتأثيرا عن إغراء النساء. وإذا كان هناك عاملان حاسمان في تشكيل التاريخ البشري فهما السياسة والجنس، ويضاف إليهما المال.

-2-

أهداني صديقي العزيز الأستاذ محمد الشرفي، المفكر التونسي الليبرالي، ووزير التربية والعلوم السابق، كتابه (الإسلام والحرية: الالتباس التاريخي) الذي سبق وصدر بالفرنسية ثم تمت ترجمته إلى العربية. والمفكر الشرفي صاحب تاريخ طويل في السياسة والثقافة والتعليم التونسي. وكان من العقول السياسية والتربوية اليسارية البارزة في تونس في حقبة ما بعد بورقيبة، كما لعب دورا مهما وتاريخيا في إصلاح التعليم التونسي وإصلاح التعليم الديني التونسي، خاصة ما يتعلق بإعادة هيكلة مناهج التعليم في (جامعة الزيتونة)الدينية، التي تعد أقدم جامعة دينية إسلامية في العالم، مما أثار عليه حفيظة الأصوليين التونسيين، وعلى

رأسهم زعيم (حركة النهضة)راشد الغنوشي. وقد أثمرت جهود المفكر الشرفي التربوية والتعليمية الإصلاحية في أن تصبح تونس الآن هي النموذج العربي المحتذى في الإصلاح التعليمي والتعليم الديني على وجه الخصوص.

أنا من أسوأ النقاد في عرض الكتب عرضا صحافيا، فلهذا فنه وطرائقه التي لا أجيدها، رغم أنني ناقد أدبي، جئت من النقد الأدبي إلى النقد السياسي، وحالي في ذلك حال طه حسين والعقاد ولويس عوض وسيد قطب وغالي شكري ورجاء النقاش وغيرهم. فأنا لا أجيد العرض بقدر ما أجيد النقد، ولهذا استطعت كتابة ستة كتب في نقد الشعر ، وستة كتب أخرى في نقد الرواية ، وكتابين في نقد القصة.. الخ.

لن أعرض كتاب (الإسلام والحرية: الالتباس التاريخي) عرضا صحافيا ولكني سأنقد بعض أفكاره. سآخذ لباب الكتاب وأتحدث عنه، علما بأن كتاب الشرفي كله لباب، من لم يأخذه كله فاته كله.

يتألف كتاب الشرفي من أربعة فصول مهمة وحساسة هي: الأصولية الإسلامية ، والإسلام والقانون، والإسلام والدولة، والتربية والحداثة. وكل فصل من هذه الفصول العامة والشائكة والمتفرعة والجدلية يحتاج إلى كتاب كامل لكي يناقشه، ويلم بأطرافه التي شغلت الفكر العربي الإسلامي منذ العصر الأموي حتى الآن.

-3-

أهمية كتاب محمد الشرفي أن مؤلفه يكتب فيه من خلال التجربة وليس من خلال النظر فقط. لذا نرى أن في الكتاب أمثلة تونسية كثيرة واستعراضا لتطبيقات تونسية في التربية والتعليم، عاشها وخبرها بل وشارك في هندستها وإقامة صرحها محمد الشرفي، أثناء توليه لوزارة

التربية والتعليم التونسية (1989-1994)، ومن خلال ترؤسه لجمعية حقوق الإنسان التونسية، ومن خلال ممارسته كأستاذ للحقوق في الجامعة التونسية.

إذن، نحن أمام مؤلف جمع المجد الفكري من طرفيه: طرف النظر وطرف التجربة الواقعية الطويلة.

في فصل (الأصولية الإسلامية)، وكنت أفضل أن يكـون عنوان الفصل : (الأصولية الإسلامية السياسية)، فذلك عنوان أدق لما يحتويه هذا الفصل من بحث في دور وأثر الأصولية الإسلامية السياسية، التي يقول الشرفي بأن سرعان ما تبين للجميع أن الأصولية الإسلامية إنما هي مشروع سياسي قد يكون مدخلا للعنف والرعب والظلم، وأن اللجوء إلى العنف باسم الدين ليس أمرا نظريا، بل إن سلوك الإسلاميين سواء كانوا في صفوف المعارضة أو كانوا في السلطة سلوك مفعم بثقافة العنف. ويخلص الشرفي في هذا الفصل إلى نتيجة أن (اللجوء إلى العنف باسم الدين ليس أمرا نظريا، بل إن سلوك الإسلاميين هو سلوك مفعم بثقافة العنف).

ويضرب الشرفي أمثلة على ذلك من إيران والسودان ومصر والجزائر وغيرها. ويخلص الشرفي إلى القول إلى أن (مشكل العالم الإسلامي هو غياب الوضوح في خصوص المسألة الجوهرية المتعلقة بالعلاقة بين الإسلام والقانون والدولة).

-4-

كان مطلب تخليص الإسلام من (إسلام الفقهاء) مطلبا متداولا وملحا منذ مطلع هذا القرن، مع ظهور انتشار الفكر العلماني على أيدي رواد الحداثة العربية في مطلع القرن العشرين، بقيادة شبلي شميل وعبد الرحمن الكواكبي واسماعيل أدهم وفرح أنطون وسليم وسليمان البستاني، وعبد العزيز الثعالبي، ثم طه حسين ومحمد حسين هيكل

ومنصور فهمي ولويس عوض وغيرهم. فقضيتنا الكبرى، كما يقول الشرفي في فصل (الإسلام والقانون)، هي السجن الجماعي الذي أودعنا به أنفسنا بأنفسنا. فلا تطور لنا، نحن المسلمين دون حرية، ولا حرية دون الإفلات من هذا السجن التاريخي. والمعركة الملحة اليوم هي حرية المسلم في أن يجتهد في فهم الإسلام ويؤوله كما يدركه. وهذا يقتضي إلغاء دور الفقهاء، الذين يرمون كل مجدد ومجتهد بالردة التي تهدد حياته، باعتبارها أداة ظلت مستعملة حتى الآن لمنع كل تفكير قد يؤدي إلى التجديد والابتكار. ولعل القول بأن (ما أغلقه السلف لا يفتحه الخلف)هو تلخيص لمشكلة الحرية الكبرى في التفكير الإسلامي المعاصر. فشرعية الفقهاء نابعة من كونهم محسوبين على احتكار الحقيقة الدينية. ومن هنا حرص الفقهاء دائما على ربط القواعد التي ابتدعوها بالتعاليم الدينية، حيث أن مهمتهم محصورة في تأويل الإرادة الإلهية.

-5-

يسود محمد الشرفي عشر صفحات (ص80-90) لكي يثبت أن الحدود والعقوبات في الشريعة الإسلامية كانت لذاك الزمان الذي جاءت فيه، ولم يعد لها مكان الآن. وهو بهذه المحاجة يخوض في قربة مقطوعة، حيث أن الموضوع قد استهلك من قبل مفكرين وكتاب كثيرين بتوا فيه البت الديني والمدني، وعلى رأسهم المصلح المصري الشيخ خالد محمد خالد في مختلف كتبه الأولى ((من هنا نبدأ)، (لكي لا تحرثوا في البحر)، و(هذا أو الطوفان)) كان عليه أن يستغل هذه الصفحات الطوال التي أهدرها في قضية باتت مستهلكة ومن الماضي، ولم تعد قائمة إلا في أدبيات الجماعات الإسلامية الساعية إلى الحكم. فمن يطبق حدود الزنا والسرقة وغيرها الآن في العالم العربي غير السعودية نتيجة لظروف سياسية واجتماعية معينة، في وجه مطالبة لجان حقوق الإنسان في

العالم وجمعيات العفو الدولية لإلغاء هذه العقوبات واستبدالها بعقوبات مدنية تمت إلى العصر الذي نعيش فيه. فالشريعة، مثلها مثل القانون الروماني بالنسبة لأوروبا، تم وضعها في ظروف معينة، وخدمت تلك الظروف. لكن الظروف تجاوزتها الآن كما تجاوزت القانون الروماني الذي تخلصت منه أوروبا.

كذلك انشغل الشرفي في كتابه بضرورة إلغاء تعدد الزوجات في العالم العربي، وأهدر الكثير من الصفحات في استعراض الأقوال والحجج. وهذا الموضوع مثله مثل موضوع الحدود. فما هي نسبة الذين يتزوجون أكثر من واحدة في آن واحد في العالم العربي؟ إنها فئة قليلة من الأغنياء وأصحاب الجاه والثراء، وهي ظاهرة أخذت بالانحسار في العالم العربي. وكان الأجدى أن تخصص الصفحات التي أهدرت في محاجة هذا الموضوع في الحديث عن مساواة الرجل بالمرأة، فذلك أكثر فائدة ونفعا

-6-

العدل أساس القوة السياسية.

فلو لم يكن عمر بن الخطاب عادلا لما استطاع إيقاف تطبيق بعض ما شرعه الـلـه، كقطع يد السارق ودفع المال للمؤلفة قلوبهم، ومنح الأراضي للمقاتلين، والسماح للمسلمين بالزواج من المسيحيات واليهوديات.. الخ.

ولو لم يكن كمال أتاتورك عادلا لما استطاع إسقاط الخلافة الإسلامية، رغم أن هناك من يقول بأنه لو لم يسقط أتاتورك الخلافة لسقطت هي من تلقاء نفسها بحكم الحتمية التاريخية التي تشعل الثورات وتسقط الإمبراطوريات.

في الفصل الثالث يتحدث الشرفي عن جدلية الإسلام والدولة، ويقرر أن لا دولة في الإسلام، وهو ما قاله من قبل الشيخ علي عبد الرازق في كتابة (الإسلام وأصول الحكم، 1925)، وقاله معظم المفكرين

العلمانيين، لكي يواجهوا به دعاة الخلافة الإسلامية، وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين الذين تخلوا أخيرا عن إقامة الدولة الدينية، وطالبوا بإقامة دولة مدنية، كما جاء على لسان محمد السيد حبيب عضو مكتب الإرشاد في مصر الذي قدم شعارات سياسية حداثية وليبرالية جديدة للإخوان في مقابلة صحافية مهمة (موقع الإخوان المسلمين على الانترنت، 2004/2/28) .

والحقيقة التي يجب أن يعترف بها العلمانيون وغيرهم من منكري أن الإسلام دين ودولة ومنكري الدولة الإسلامية، سواء كانت دولة الرسول في المدينة أو دولة الخلافة الراشدية، بأن الإسلام دولة، وبأن الإسلام كان دولة قبل أن يكون دينا مكتملا، وأن الخلفاء الراشدين كانوا سياسيين أكثر منهم رجال دين، فلم يضيفوا فكرا جديدا إلى الدين بقدر ما أضافوا افكارا جديدة إلى السياسة وبناء الدولة. ولكن السؤال ليس هنا، ولكنه في هل هذه الدولة تصلح لنا الآن؟ لقد أجبنا عن هذا السؤال في مقالنا (لماذا دولة الرسول والراشدين لا تصلح لنا الآن؟ (إيلاف)، 2004/10/4). وهذا هو الهدر الآخر للصفحات الطوال التي سودها الشرفي لإثبات غير مقنع أن لا دولة في الإسلام. وكان من الأفضل أن تكرس هذه الصفحات بالاعتراف البسيط والسريع بأن هناك دولة في الإسلام، ثم الانتقال للإجابة عن سؤال:

لماذا هذه الدولة لا تصلح لنا الآن؟

وبيان الأسباب التي تجعلها لا تصلح لنا الآن، فذلك أبقى في الأرض وأنفع للناس.

هناك الكثير الكثير من الآراء التي طرحها هذا الكتاب بجرأة وشجاعة، وهي جديرة بالنقاش في عدة مقالات. ويظل هذا الكتاب إضافة متميزة في الفكر السياسي الديني، يحاول أن يزيل الالتباس التاريخي عن علاقة الإسلام بالحرية.

هل كان الإخوان المسلمون عقبة
في طريق الديمقراطية العربية؟

* أثارت الأحزاب السياسية الإسلامية، وعلى رأسها (جماعة الإخوان المسلمين)، كثيرا من اللغط اللغوي غير المفهوم حـول الشورى والديمقراطية. وقالوا بأن الشورى ليست الديمقراطية الليبرالية، وبأن الديمقراطيـة الاشتراكية ليست الشورى. وكانوا قريبين في شوراهم من الديمقراطية الشعبية التي لا تمثيل فيهـا، ولا أحزاب، ولا مجالس نيابية، ولا انتخابات. وهي المطبقة الآن في ليبيا من خلال النموذج السويسري المعروف.

إلا أن فكر هؤلاء في الشورى وفي الديمقراطية ظل غامضا ملتبسا غير مفهـوم، وذلك كباقي الشعارات العامة التي أطلقتها هذه الجماعة. وحين بـدأ هذا الفكر في نهاية الثلاثينيات يتضح قليلا قليلا، أدركنا أن هذه الجماعة ليست دعاة هداية بقدر ما هي سعاة سلطة. تسعى إلى السلطة السياسية من خلال الدين، وأنها تهيئ نفسها لتسلم الحكـم مثلها مثل أي حزب سياسي آخر، ولكن من خلال أيديولوجية معينة، عبارة عن خلطة دينية فيها بعض الأفكار السياسية المعاصرة المستمدة بالدرجـة الأولى من مبادئ الديمقراطيـة الشعبيـة السائدة الآن في سويسرا، والتي بدأت تسود في ليبيا أيضا، والتي نقرأ بعض نصوصها في (الكتاب الأخضر).

ففي المراحل الأولى لنشوء (جماعة الإخوان المسلمين)كان الغموض الذي اكتنف شعاراتهم يتمثل في قول مفكري هذه الجماعة: (نحن مسلمون وكفى، ومنهاجنا نهج الرسول وكفى، وعقيدتنا مستمدة من كتاب الـلـه وسنة رسوله وكفى). و (أيها الإخوان أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبا سياسيا ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم

روح جديدة، ونور جديد، وصوت داو).

وفي العام 1938 بدأت الجماعة تكشف عن وجهها السياسي، فقامت بإصدار مجلة (النذير)السياسية الدينية مبشرة بأن فصل الدين عن السياسة ما هي إلا بدعة غربية. وقالوا بأنه لا بد من الجديد في الأمة، والجديد الذي يعنونه هو إقامة دولة دينية والاشتراك في الحكم السياسي القائم. ومن هنا كانت نهاية مطاف النصف الأول من القرن العشرين قيام المرشد العام للإخوان حسن البنا (1906-49) بترشيح نفسه للانتخابات النيابية في العام 1942. ولكنه انسحب بعد ذلك بناء على طلب رئيس الوزراء الوفدي مصطفى النحاس، الذي رفض أن تتحول هذه الجماعة من جمعية خيرية دينية إلى حزب سياسي، وطلب منهم أن يبقوا في حدود الدعوة الدينية.

ولم يتوقف الإخوان المسلمون عند هذا الحد، بل إنهم تابعوا السباق نحو الكراسي السياسية باللين أحيانا وبالعنف أحيانا أخرى طوال النصف الثاني من القرن العشرين. وانتهى النصف الثاني من القرن العشرين وجماعة الإخوان المسلمين والأحزاب الإسلامية الأخرى تطالب في مصر والجزائر وتونس وسوريا والأردن وفلسطين وبلدان عربية أخرى بالاشتراك في الحكم السياسي، وتظهر جوعا سياسيا فاضحا، كان آخره ما أعلنه عبد اللطيف عربيات الأمين العام لحزب الجبهة الإسلامية الأردنية (حزب الجبهة الإسلامية هو ائتلاف بين الأحزاب الإسلامية المختلفة بقيادة جماعة الإخوان المسلمين) من عتب شديد على السلطة الأردنية لأنها أهملت الجبهة الإسلامية ولم تشاركها في الحكم، رغم اعتدالها وخفضها لجناح الذل من الشهوة، بينما أشركت في السابق من تآمروا على النظام، وأمروا بقصف القصور الملكية بالمدفعية. وقال عربيات (إن رموز التيار الإسلامي هم الأنظف يدا والأكفأ إدارة، والأكثر حرصا على المصلحة الوطنية، فلماذا لا ينادينا الحكم لمشاركته؟)، علما بأن هذا

الحكم، الذي يطالبون بمشاركته لا ينفذ حدود اللـه -كما يقولون في خطابهم الديني - من منع للخمر وقطع ليد السـارق وجلد للزاني والزانية وخلاف ذلك، وقد عقد الصلح مع إسرائيل الذي هم يعارضون ويرفضون وينادون للجهاد في سبيله!

وبهذا ظلت شهـوة الحكم لدى الإخوان مشتعلة فائرة أكثر من نصف قرن من الزمان. وما زالوا يصارعون ويلتمسون ويدارون حتى الآن لنيل الكراسي والقبـض على المراسي، مرة بمحاربة السلطة القائمـة ومرة بالتواطؤ معها. وكان لهـم في الشورى والديمقراطية من جراء ذلك باع طويل.

هذه أهم ملامح الخطاب الإسلامـي عامة في الديمقراطية والشورى:

1. لا يخرج الخطاب الإسلامي في مسألة الديمقراطية عن تجربة الشورى الراشدية العمرية كورقة وحيدة رابحة طوال أربعة عشر قرنا فكـل حديث عن الشورى الإسلامية يدور حول هذه التجربة اليتيمة، التي تم نقضها في عهد عثمان وما تبع بعد ذلك. وفيما يقول أحد كبار رجال المؤسسة الدينية وشيخ من شيوخ الأزهر من أن (عمر بن الخطـاب أخذ جادة الرسول في الشورى شبرا بشبر وذراعا بذراع وهو القائـل في الولاية : من قام بهذا الأمر فإنه تبع لذوي الرأي، فيما رأوا ورضوا به. وكذلك فعمر بن الخطاب يشدد على أنه حق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم، وبين ذوي الرأي منهم).

ومن الملاحظ هنا، أنه لا يوجد في التراث الإسلامي أو التراث العربي طيلة أربعة عشر قرنا مضت من تحدث عن الشـورى وضرورتهـا كعمر بن الخطاب. وكأن هذا الزعيم الديني والسياسي كان نسيجا وحده، ومن بعده تقطعت أوصال الديمقراطية أو الشورى، وغدت صدى، وذكرى موجعة وحزينة.

2. يرفض الإسلاميون السلفيون الديمقراطية بمعناها الغربي، لا عن

كراهيـة، ولا عن أنها تعارض الشورى العمرية الإسلامية، ولكنهم يرفضونها لأن آلياتها المعقدة الحديثة متعسرة الفهم على الأحزاب الإسلامية، كما أن تنفيذها يستدعي استعدادا ثقافيا واجتماعيا وحضاريا غير متوافر في الأحزاب السياسية الإسلامية.

إضافة لذلك، فإن الموقف السلفي يرفض الديمقراطية الغربية لأن كثيرا من قيمها يتناقض والقيم الإسلامية السياسية، التي تدعو إلى (المستبد العادل)وأن الشورى تعمل برأي (أهل الحل العقد)، وفي مقدمتهم (علماء الدين)الحاملين للواء الموقف التراثي نفسه، والذين يعتبرون (ورثة الأنبياء)وأصحاب السلطة العليا في المجتمع، كما قال محمد الخضر حسين، (الحرية في الإسلام، ص22).

3. لم يكن خالد محمد خالد حزبيا أو متحزبا، وإن كان يتعاطف كثيرا مع حزب الوفد المصري إلى أبعد الحدود، ولكنه لم ينضم إليهم في يوم من الأيام. إلا أن خالدا، بفكره ومنهاجه، كان حزبا قائما بذاته غير معلن. بل إن كتبه وأبحاثه التي تشكل برنامجه السياسي والاجتماعي أكثر وضوحا من معظم برامج الأحزاب السياسية على الساحة العربية. ومن هنا فإننا ندرجه ضمن الأحزاب السياسية الإسلامية، وهو صـاحب (الحزب الإسلامي المستنير)، والذي من خلاله قال معرفا الديمقراطية بأن الإسلام هو الديمقراطية والديمقراطية هي الإسلام. ولكنه بحث هو الآخر في التاريخ الإسلامي عن شاهد لقوله، فلم يجـد غير الفترة العمريـة الراشدية اليتيمة، ومقولة عمر بن الخطاب اليتمية (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟). وبنى عليها خـالد وخلص في كتابه (دفاع عن الديمقراطية، ص 212) إلى أن عمر بن الخطاب كان يطوع مسلكه العظيم لمنهـج الإسلام وحقيقته وروحه وضميره. ومن هنا فإن الديمقراطية إسلام وهو ما قاله أيضا رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده

وحسن الترابي، من أن الشورى هي الديمقراطية. وعبر عنه مؤخرا عصام العريان، أحد قادة الإخوان مؤخرا في موقع (شفاف الشرق الأوسط)على الانترنت في 2004/9/14 بقوله: (الديمقراطية لا يمكن فصلها عن ثقافة الشعب. وبالتالي فالأبعاد الفلسفية للديمقراطية تخضع لطبيعة المجتمع التي تنشأ فيه، فهناك ديمقراطية إنكليزية تجعل الملكة رأس الكنيسة، ويقال عنها إنها أم الديمقراطيات، وهناك ديمقراطية فرنسية تجعل الكنيسة ملعونة، ولا يجوز أن تتدخل. وهناك ديمقراطية أمريكية لها نظام رئاسي. إذا، هناك تنوع مختلف من الديمقراطية، لكن هذه الديمقراطيات تتفق في أسس عامة، وهي ما نتفق عليها نحن الإخوان. وهي أن الشعب من حقه أن يولي الحاكم وأن يحاسبه وأن يعزله لفترات محددة، وفصل السلطات الثلاث في الدولة: السلطة التشريعية، السلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، وأن رأي الأمة محترم في انتخابات دورية وحقوق الأفراد مكفولة بحكم الدستور، وهذه الأسس الثلاثة وما يتفرع عنها هي جوهر البناء الديمقراطي، وهو ما نتفق عليه. ولكن نضيف عليه الإسلام أي البناء الديمقراطي الإسلامي في الدول الإسلامية، بمعنى أن الديمقراطية في المجتمعات الإسلامية تخضع لثقافة هذه المجتمعات الإسلامية، فإذا كان المجتمع الإنكليزي يقر حق تغيير الجنس، فلا يمكن مثل هذا الحق أن نقره في مجتمع إسلامي؛ لأن هناك سقفا لهذا المجتمع، وثقافته وشريعته الإسلامية التي يحتكم إليها، التي يحترمها كل أفراد المجتمع بمن فيهم المسيحيون؛ لأنها شريعة محترمة.

أي لا بد من وجود سقف لما هو الحلال والحرام في الدين وما هو الصواب والخطأ في القانون. وبالتالي فإن هذا السقف لا تحدده ثقافة المجتمع فقط بل يحدده الدستور أيضا، وان يصبح الدستور هو الحكم. ولا بد من وجود تداول للسلطة، وأن يكون هناك رئيس دولة مسئول، وله

صلاحيات محددة حسب ما يتفق عليه الناس ويبحثون عنه ولا يبحثون عن الأبعاد الفلسفية. الشعب يبحث عن الإجراء الذي يحق له تولية الحاكم وعزله).

***

من جانب آخر، قال خالد محمد خالد، إن الشورى والديمقراطية تلتقيان في أوجه مختلفة منها:

أن الشورى تلزم - كما تلزم الديمقراطية - الأخذ بنتيجة إجماع أهل الرأي أو الذي انتهت إليه غالبيتهم. وأن الشورى والديمقراطية تكفلان حق إبداء الرأي، وقيام أغلبية حاكمة، وأقلية معارضة.

ولكن خالدا اعتبر ونبه إلى أن هناك نوعين من الشورى: الشورى المزيفة أو الشورى المطوعة/المزيفة، والشورى الحقة التي هي ديمقراطية اليوم. وفرق خالد محمد خالد بين الشورى (المطوعة/المزيفة)لصالح السلاطين وبين (الشورى الحقة)التي جاء بها الدين الحق على الوجه التالي:

1. في الشورى المطوعة/المزيفة، السيادة في الفكر الإسلامي محدودة من جانب واحد. أما الشورى الحقة فهي كذلك، ولكنها من جانب آخر متروكة لاستنباط الأحكام القادرة على استيعاب المشاكل.

2. لا تلتقي الشورى المطوعة/المزيفة مع الديمقراطية الغربية بوجوب عدم تولي أمر السلطة لمن يخالف عقيدة الأمة ولا يلتزم بمنهاجها. في حين تلتقي الشورى الحقة مع الديمقراطية الغربية بوجوب عدم تولي أمر السلطة لمن يخالف عقيدة الأمة ولا يلتزم بمنهاجها.

3. لا تعترف الشورى المطوعة/المزيفة بالديمقراطية الليبرالية الغربية، وتعتبرها من الأفكار المستوردة الخبيثة. الشورى الحقة هنا هي الديمقراطية التي تختار السلطان من الأمة بالإجماع الحر النزيه.

4. تنادي الشورى المطوعة/المزيفة بالعادل المستبد. بينما تنادي الشورى

الحقة بالعادل المفوض.

5. لا تلزم الشورى المطوعة/المزيفة الحاكم. بينما تلزم الشورى الحقة الحاكم.

6. الشورى المطوعة/المزيفة شكلية لا تحد من إرادة السلطة الفردية. ويبقى المسلمون فيها رعايا لا مواطنين. بينما الشورى الحقة هنا فعلية تحد من إرادة السلطة الفردية. والمسلمون فيها مواطنون لا رعايا.

لماذا يسعى الإخوان المسلمون
إلى تغيير الجلود والعهود؟

-1-

* من خلال قراءتنا المتتابعة للفكر السياسي الديني الأصولي الإسلاموي، تبين لنا أن هذا الفكر، الذي تمثل معظمه جماعات الإخوان المسلمين في العالم العربي وفي العالم الإسلامي وفي أوروبا، يغير جلده السياسي من وقت إلى آخر، وذلك لمحاولة الوصول إلى كراسي الحكم بأي شكل من الأشكال، حتى وإن كان ذلك على حساب المبادئ الثابتة، والشعارات السابقة.
وقد قرأنا في تطور الفكر السياسي الديني الأصولي الإسلامي نماذج عديدة لتغيير الجلد هذا. وهذا في واقع الأمر ليس معيبا في السياسة. بل إن التغيير ضروري، والذي لا يتغير هو الحجر. بل حتى الحجر يتغير بفعل ظروف مناخية وعوامل الطبيعة المختلفة.
فالسياسة ليست كالدين. فهي متغيرة والدين ثابت. وهي نجسة والدين مطهر. وهي من المدنس والدين من المقدس. وهي من الأرض والدين من السماء. وهي تقضي والدين يهدي.. الخ.

-2-

وجماعة الإخوان المسلمين تجنح في كثير من الأحيان إلى البراجماتية. وقد سئل عصام العريان، أحد قيادي الإخوان في (شفاف الشرق الأوسط)2004/9/14، هل سيقبلون بالتعددية الحزبية، فيما إذا تولى الإخوان الحكم في مصر ؟ فرد: بالطبع سنقبل. وعندما سئل بأن المرشد العام للإخوان المسلمين السابق مصطفى مشهور قال: (إننا نقبل بمبدأ التعددية الحزبية الآن، لكن عندما يقوم حكم إسلامي فإننا نرفضها

ولن نقبلها). وأن هذا الرأي مذكور في كتاب (ضد التأسلم)للدكتور رفعت السعيد. فرد العريان: (أن هذا النقل غير صحيح. والمرشد قال هذا الكلام في إطار ندوة، وخلاصة الندوة صدرت في كتاب (التعددية والشورى في المجتمع المسلم). وهذا الكتاب يعتبر الوثيقة الملزمة للمرشد ولمكتب الإرشاد ولكل الإخوان، وهي تقر بالتعددية الحزبية في المجتمع الإسلامي. وجماعة الإخوان المسلمين، نتيجة لتبنيها في هذه المرحلة البرجماتية السياسية، والتي لخصها عصام العريان بقوله: (الاتفاق على التعددية السياسية والموقف من المرأة أمور فيها اجتهادات جديدة من جانب الإخوان تتماشى مع المستجدات التي تعيشها الأمة الإسلامية الآن)، متهمة بأنها تنازلت عن أهم أركان عقيدة المسلمين، ألا وهو ركن التسليم بحاكمية الـلـه التي نادى بها سيد قطب، واتباع أصول الجاهلية الديمقراطية في التشريع، والتي تعني التسليم بحق البشر في اختيار ما يرونه من تشريعـات وعقائـد (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الـلـه حكما لقوم يوقنون). وهو تنازل مرحلي في رأينا ورأي رفعت السعيد أيضا، لا تلبث بعده حركة الإخوان إلى العودة إلى شعارات الأربعينات والخمسينات ومبادئهما، فيما لو استولت على الحكم رغم نفي العريان لهذا التوقع. وهو ما قام به الترابي عند تسلم الحكم في السودان في عهد النميري. وهو ما يؤكده القرضاوي في سؤاله: (كيف يستغل الإسلاميون الديمقراطية وهم غير مؤمنين بها - حتى يصلوا إلى الحكم فقط - وحينئذ يحكمون على غيرهم بالإعدام؟)(أنظر: التعددية السياسية: رؤية إسلامية، ندوة نظمها مركز الدراسات الحضارية في القاهرة، ، مركز الإعلام العربي، القاهرة 1994، ص 55).

إذن، فلا اعتراض على جماعة الإخوان المسلمين - وهي زعيمة الحركة الدينية السياسية الأصولية الإسلاموية في العالم العربي - أن تغير من شعاراتها ومن مبادئها، وتجاري الظروف التاريخية السياسية المحلية

والإقليمية والدولية المتغيرة. فهذا ذكاء من الجماعة وليس غباء، وهذه حصافة من الجماعة وليست (لقافة)، وهذا بعد نظر سياسي محض لا علاقة له بالدين على الإطلاق من جماعة تستعمل الدين كسلاح وغطاء لكسب مكاسب سياسية، وتحاول أن تؤقلم هذا السلاح وتطوعه كلما اقتضت الظروف السياسية ذلك.

وهذا كله محمود للجماعة التي لا تثبت على موقف سياسي واحد، ولكنها تغير مواقفها كأي حزب سياسي متمرس في أية بقعة من هذا العالم. وفي هذا الصدد صرح محمد عاكف مرشد عام الإخوان، بأن الأولوية عنده الآن لملف الحريات، وأن قضية الحرية يجب أن تسبق قضية المطالبة بتطبيق الشريعة!

فهل هناك توجه جديد لتحويل الإخوان المسلمين من جماعة إسلامية كانت تطالب بتطبيق الشريعة كمطلب أولي إلى حزب سياسي يؤجل تطبيق الشريعة، ويسارع بالمطالبة بالحرية السياسية التي هي ليست من التراث الإسلامي، ولا علاقة لها به؟

وهل ستتحول الجماعة إلى حزب سياسي (مدني)لا (ديني)، كما يسعى محمد عاكف نفسه المرشد العام للإخوان؟

جماعة الإخوان المسلمين، مثلها في هذا مثل أية فرقة أو طائفة دينية من الطوائف التي نشأت وتكاثرت فجأة في صدر الإسلام، والتي بدأت أصلا على شكل أحزاب سياسية وصراعات على السلطة والحكم كما يقول جمال حمدان في كتابه (العالم الإسلامي المعاصر، ص125، 126). وفي العصر الحديث ظل الدين أداة ميسورة للسياسة تستغله القوة لتشريع وجودها غير الشرعي مرة ولتبرير مظالمها مرة أخرى. وهذا ما يبشر بأن جماعة الإخوان المسلمين ربما تنتهي بعد عشر سنوات من الآن، أو بعد عشرين سنة، أو بعد نصف قرن إلى المطالب نفسها التي يطالب بها الليبراليون الجدد الآن، من فصل الدين عن الدولة نهائيا، وتبني الدولة

العلمانية، وتبني آليات الديمقراطية الغربية، والانتهاء من أسطورة الشورى، ذات المحتوى السياسي الفارغ، التي أصبحت مسخرة سياسية في العصر الحديث، حيث لم يكن لها وجود حقيقي أو تنظير سياسي علمي، لا في التاريخ العربي الإسلامي القديم، ولا في التاريخ العربي الحديث.

وهذا كله لصالح معركة الحداثة العربية على سائر المستويات. وهو يدفع بعجلة الديمقراطية إلى الأمام عندما تتصالح الجماعات الإسلاموية الأصولية مع نفسها ومع الليبراليين الجدد، وتتحد الشعارات والأهداف. وهو ما يبشر بالخير، ويبعث على التفاؤل، وإن كان كله سيأتي متأخرا بعد زمن طويل. ولكن لا بأس أن يأتي متأخرا، من أن لا يأتي أبدا

-3-

إذن، لم تعد جماعة الإخوان المسلمين حركة دينية ولكنها أصبحت حركة سياسية محضة، لا تأخذ من الدين أي جانب سياسي، حيث لا سياسة في الدين تؤخذ لهذه الأيام. وإنما تتبنى أفكارا سياسية غربية مائة بالمائة (الديمقراطية، الانتخابات، الحريات السياسة، النضال الدستوري، إقامة المجتمع المدني، إقامة الدولة المدنية وليست الدينية.. الخ)، وهو ما جاء مؤخرا على لسان محمد السيد حبيب، عضو مكتب الارشاد في مصر، الذي قدم شعارات سياسية حداثية وليبرالية جديدة للإخوان في مقابلة صحافية على موقع (الإخوان المسلمون) في الانترنت في 2004/2/28، فيما يعد انتفاضة سياسية إخوانية مثيرة. وكان من أهم هذه الشعارات الجديدة:

1- أن (الإخوان لا يسعون لأن يكونوا بديلا لأحد، وهم حريصون على أن يكون لهم حزب سياسي). وحبيب لم يقل: (أن يكون لهم حزب ديني سياسي)، ولكنه قال: (حزب سياسي)فقط. كما أن حبيب

تخلى عن فكرة الإخوان لمحق الآخر ومحوه عندما يتسلمون الحكم. فعندما تسلم الإخوان الحكم في السودان مثلا، شنقوا المفكر الإصلاحي الكبير محمود طه بقرار من حسن الترابي زعيم الإخوان في السودان. كما استهدف الخط السياسي التعبوي، الذي انتهجته جبهة الميثاق الإسلامي، تصفية الدستور القائم وقتها، ومن ثم تصفية أساس الديمقراطية السودانية. وقد تجلى ذلك في امحاء الخطوط الفاصلة بين السلطات الثلاث، التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، الذي تجسد في قضية حل الحزب الشيوعي الشهيرة.

2- يرفع حبيب شعار: (تدرج الخطوات من ثوابت منهجنا، والنضال الدستوري سبيلنا عبر القنوات القانونية). وهذا اعتراف صريح بأن القرآن ليس دستورا سياسيا إذ لا دستور سياسيا في الإسلام. وكلمة (الدستور)ليست عربية أصلا وإنما فارسية. والدستور نظام سياسي جاءنا من الغرب. والنضال عبر القنوات القانونية تعني هنا، أن الإخوان قد اقتنعوا أخيرا، بأن لا قوانين سياسية في الإسلام، وإنما هناك قوانين سياسية موضوعة وضعها البشر. وبذلك انتفت نظرية (الحاكمية)، التي كان يدعو اليها سيد قطب من خلال كتابه (معالم في الطريق) والتي اقتبسها عن الفكر الباكستاني أبي الأعلى المودودي، الذي أصبحت بلاده الآن بلادا ديمقراطية علمانية بارزة، لا أثر للحاكمية فيها، وتولت فيها المرأة رئاسة الوزراء. فلقد شدد سيد قطب، أكثر ما شدد، على الإستعلاء بالإيمان، بزعم أن المجتمع في مجمله، لا يعدو كونه قبيلا من الجاهليين. وشدد عن ألا يجيب السائرون على دربه لفكرة إقامة الدولة الإسلامية، على الأسئلة المتعلقة، بتفاصيل الدعوة، وإنما عليهم أن يكتفوا فقط بالدعوة إلى العقيدة.

3- يرفع حبيب شعار: (تبني الدعوة لإنهاء الخصومة بين الحكومات

والشعوب من خلال الإصلاح السياسي وتفعيل مؤسسات المجتمع المدني). وهناك اعتراض كبير على هذا النهج من قبل السلفيين، الذين يرون أن نبذ (الجهاد العيني)الواجب ضد تلك الحكومات المرتدة التي تحكم بلاد المسلمين، بل ومعاداة من يدعو إلى ذلك وتسفيهه، والتشنيع عليه، ودعوة الحكومات إلى القضاء عليه، والتبرؤ منه أمام هؤلاء الطواغيت. وأن دعوة حبيب مناقضة لقوله تعالى {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}. وبذا، فقد خرجت - على هذا النحو - جماعة الإخوان المسلمين من عصبة السلفيين ودخلت - ولو من طرف خفي - في عصبة الليبراليين الجدد الذين يسعون إلى المسعى نفسه. وهو مكسب جديد لليبراليين الجدد فيما لو صحت دعوة الإخوان هذه، وتمت المعجزة.

-4-

من ملامح الوجه الجديد لجماعة الإخوان المسلمين، أن الجماعة في الأربعينات كانت تقف موقفا معارضا تماما وقويا من الانتخابات النيابية، وتنادي بالبيعة من قبل أصحاب (الحل والعقد) من الفقهاء الذين ينوبون عن الأمة في البيعة، علما بأن لا أحد أنابهم في ذلك. وما زال الإخوان حتى الآن في تنظيمهم الداخلي يأخذون بالبيعة، ولا يأخذون بالانتخاب. فالمرشد العام يجب أن يكون مصريا (المرشدون من مصر، على غرار شعار: الأئمة من قريش). والمرشد العام الذي يحكم الملايين من الإخوان في خمسين بلدا في العالم، يختاره بالبيعة 15 شخصا فقط من مكتب الإرشاد، وهم (أهل الحل والعقد)! وهذه هي الشورى التي ينادي بنا الإخوان المسلمون، والتي لا يستشار فيها أحد، والتي هي معلمة كما يقول الشعراوي والقرضاوي والغنوشي وغيرهم، وليست ملزمة كالديمقراطية الغربية، كما يقول خالد محمد خالد ومحمد الغزالي وجمال

البنا وأحمد صبحي منصور وغيرهم. ولكن حسن البنا عاد ووافق على مبدأ الانتخابات ورشح نفسه في العام 1942 للانتخابات، ولكن النحاس باشا رفض ترشيحه، وطلب منه الانسحاب وقصر نشاطه على الدعوة الدينية للهداية فقط. فانسحب في صفقة مكاسب سياسية مع حزب الوفد. وما زالت بعض حركات الإخوان في العالم العربي تؤمن بالبيعة لا بالانتخابات. وآخرها كانت بيعة الإخوان السودانيين لجعفر النميري، التي وصفها ياسين عمر الإمام، أحد قياديي الإخوان بأنها بيعة كبيعة الرضوان، وأنها تستعيد ذكرى السيرة العطرة ومواقف الصحابة في بيعة الرضوان (أنظر: محمد القدال، الإسلام والسياسة في السودان ، ص122). كما أن السنة عموما - والإخوان منهم - لا يؤمنون بالانتخابات بل يعتبرونها كفرا، كما أفتى الشيخ السعودي فوزان الفوزان، وكما قال مفتي فلسطين عكرمة صبري في خطبة الجمعة بالمسجد الأقصى في 2005/1/7 وقبل الانتخابات الرئاسية الفلسطينية بيومين. وكما قال كذلك الإرهابي الزرقاوي في 2005/1/22 في شريطه المسجل، وقبل الانتخابات التشريعية العراقية بأسبوع، حيث اعتبر كل من يقترع في الانتخابات كافرا، وأن مهمته ومهمة أتباعه هي (إعلان حرب مدمرة على الديمقراطية).

-5-

ومن المتغيرات الجوهرية التي طرأت على فكر الإخوان السياسي البراجماتي، الذي حول الإخوان الآن إلى حزب سياسي في الواقع، لا علاقة له بالدين إلا بالاسم، التخلي عن (الدولة الدينية)والمطالبة بقيام (دولة مدنية)كما أكدت مجموعة من قياديي الإخوان. وهكذا تقترب جماعة الإخوان من الأحزاب الغربية المسيحية الاشتراكية والديمقراطية المدنية في أوروبا (حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي الألماني، والحزب

الديمقراطي المسيحي الهولندي، والحزب الديمقراطي المسيحي بسويسرا وغيرها) التي تأخذ من الدين اسمه لا فعله، حيث لا فعل سياسيا في الدين.

وفي هذا الخصوص، قال عصام العريان أحد قياديي الإخوان المسلمين في حديث له لموقع (شفاف الشرق الأوسط)على الانترنت 2004/9/14: (إن الدولة الدينية الوحيدة في العالم هي الدولة الصهيونية، وعند التدقيق في ممارسات هذه الدولة نجدها تدعي أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في العالم، ويوافقها العالم على أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. وهذا رأي جدلي لفكرة اجتماع الدولة الديمقراطية مع الدولة الدينية، ولكن دعني أقول نقطة واضحة ومحددة، هي أن الفكر الإسلامي لم يعرف مفهوم الدولة الدينية رغم ما شاب التاريخ الإسلامي من مخالفات، وهناك مخالفات لا يستطيع أحد أن ينكرها، ولكن هذه المخالفات كان علماء الدين الإسلامي وعلماء الشريعة يتصدون لها، بل وتعرضوا إلى الاضطهاد بسبب التصدي لهذه المخالفات. ومن هنا أقول إن فكرة الدولة الدينية عرفت في التطبيق التاريخي في مرحلتين، الأولى مرحلة تاريخية وهي دولة الكنيسة في العصور الوسطى بأوروبا، والمرحلة الحديثة المطبقة في الدولة العبرية الآن. بدون ذلك لم يعرف التاريخ الدولة الدينية).

وفي هذا الخصوص أيضا، أصدر عبد المنعم أبو الفتوح، عضو مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين، وثيقة بعنوان (المفهوم الإسلامي للإصلاح الشامل)، تحمل مؤشرات على تطور رؤية جديدة من داخل التيار الإسلاموي تتحدث عن (الدولة المدنية)باعتبارها بدهية، لا بديل عنها لتحقيق المواطنة الحقة!

وفي رؤيته التي وزعها على هامش (مؤتمر أولويات وآليات الإصلاح في العالم العربي)الذي عقد بالقاهرة في 5 /2004/7، يؤكد أبو الفتوح

أن (الخطاب الإصلاحي الإسلامي بشكل عام هو خطاب بشري)!
وأشار أبو الفتوح إلى أنه، فيما يتعلق بالإصلاح السياسي، ليس لدى التيار الإسلامي، وفي القلب منه الإخوان المسلمون، أي تصور لتنفيذ أي إصلاح سياسي سوى صناديق الانتخابات!
والسؤال هنا: لماذا لا يبدأ الإخوان المسلمون بأنفسهم، ويجروا انتخابات شاملة ونزيهة، لانتخاب المرشد العام وأعضاء مكتب الإرشاد، بدلا من قصر الموضوع على 15 شخصا من أهل (الحل والعقد) كما جرى ويجري الآن؟!
وأين صدقية الإخوان في ذلك؟

-6-

وبعد، فهل نأخذ بهذه التصريحات التي صدرت عن قياديين كبار في جماعة الإخوان المسلمين، والتي تمثل انتفاضة فكرية سياسية في نهج وفكر الإخوان المسلمين، نأمل أن لا تكون مناورة سياسية من مناورات الإخوان السابقة؟
أم أن الأمر لا يعدو كونه مناورات سياسية، درج على الأخذ بها وترديدها الإخوان المسلمون في معظم أنحاء العالم العربي، لكي يحاولوا الخروج من عنق الزجاجة الذي هم فيه الآن، نتيجة لاندحار التيار السلفي الديني المسلح في فلسطين والعراق والسعودية وغيرها من العالم العربي، وافتضاحه كرمز لسفك الدماء وانتهاك الحرمات والفساد والسطحية والجهل وقلة العقل والجنون، وانتصار التيارات الداعية إلى العلمانية والعولمة والحداثة السياسية والانفتاح على الآخر؟
وهل كانت هذه التغيرات، التي طرأت على فكر الإخوان المسلمين نتيجة لفقدانهم أكبر سند لهم في الماضي ماليا وسياسيا وهو السعودية، التي أمنتهم من خوف واطعمتهم من جوع في الستينات وما بعدها، والتي

أعلنت على لسان وزير داخليتها، بأن جماعة الإخوان المسلمين أصبحت بلاء على العالم العربي بعد أن كانت عزاء ((السياسة)الكويتية، سبتمبر 2002)؟

وهل هذه التغيرات نتيجة لانتصار الشعب العراقي على طاغيته الأكبر فجر التاسع من نيسان 2003، والنهاية السعيدة التي انتهى اليها العراق الآن، والتي لا ترضي جماعة الإخوان المسلمين الذين وقفوا إلى جانب الطاغية المنهار، وساندوه في اعتدائه الأثيم على الكويت والسعودية؟

وهل هذه التغيرات نتيجة لوعد من الحكومة المصرية بالتصريح لجماعة الإخوان المسلمين بإقامة حزب سياسي نتيجة للتغيرات التي طرأت في القيادة المصرية، فيما إذا هم بدلوا وغيروا من شعاراتهم ومبادئهم للحصول على هذا التصريح، الذي يجاهدون من أجله منذ سنوات طويلة مضت؟

كل هذه الأسباب واردة، وهي أسباب سياسية مبررة على المستوى السياسي، وغير مبررة دينيا ولكن المهم في النهاية أن تكون هذه هي القناعات الفكرية السياسية لجماعة الإخوان، ولا تكون الجماعة عصية على التغيير والتطوير.

لماذا نكفر المطالبين بإلغاء تفاسير القرآن؟

* إن العالم الإسلامي إذا أريد له أن يخفف من حدة الصراع المزعوم بينه وبين الغرب، عليه أن يسلك طرقا كثيرة، ومنها طريق إلغاء سائر تفاسير القرآن، التي تستعمل هذه الأيام لأغراض سياسية شيطانية وأعمال إرهابية مجنونة، والقيام بحملة علمية ولغوية وتفكيكية واستقصائية، حسب المناهج العلمية الحديثة، لتنخيل الأحاديث الدينية الموضوعة في العهدين الأموي والعباسي، وخاصة فيما يتعلق بالأحاديث النبوية السياسية التي تتعلق بعلاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المسلمين بالآخرين من أصحاب الديانات والملل الأخرى.

إلغاء تفاسير القرآن

فمن المعروف أن الشيخ محمد الغزالي، كان الوحيد من بين شيوخ عصره ممن قاموا بتنخيل عدد لا بأس به من الأحاديث النبوية، في كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) الذي أثار ضجة كبيرة في العالم الإسلامي. والأهم من هذا أنه بين لنا كيف نميز بين الحديث النبوي الصحيح والحديث النبوي الموضوع والمدسوس. ولكن ما فعله الشيخ الغزالي لم يكن كافيا، في ظل هذا الاستخدام العشوائي القسري للقرآن والحديث. ومن هنا تكررت الدعوات الدينية وغير الدينية، التي نادت بإلغاء كل تفاسير القرآن السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي تمت في ظل ظروف وحقب سياسية وعقائدية واجتماعية معينة، وتحت ضغط السلطة السياسية، حتى لا تستعمل هذه التفاسير لأغراض غير دينية خالصة تتعلق بالصلة بين المسلم وربه، دون وسيط أو وساطة من أحد. وهذا ما دفع الخليفة عمر بن الخطاب، الذي كان أول من اعترض على تفسير القرآن بما يحلو لمصالح الفقهاء وأهواء المفسرين. وقال قولته الشهيرة

بأن لا نحمل هذا الدين أكثر مما يحتمل.

لا أمر إلهيا أو نبويا بتفسير القرآن

لا يوجد في القرآن ذاته أمر إلهي يطلب من الفقهاء أن يفسروا القرآن، لأن القرآن جاء بلسان عربي فصيح ومبين، ليس بحاجة إلى وساطة الفقهاء والمفسرين لكي يفسروه. فهو مفسر بذاته لقوله تعالى في (سورة الفرقان، الآية 23): {ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا} وكلمة (تفسير)هنا، هي الكلمة الوحيدة الواردة في القرآن كله. كما أنه لا يوجد حديث نبوي يحض على تفسير القرآن، ووضع المجلدات الضخمة لتفسيره كما فعل المفسرون في الماضي والحاضر، ومنهم سيد قطب الذي فسر القرآن في السجن، في عشرة أجزاء (في ظلال القرآن)، وكان شبح جلاده - عبد الناصر - في مخيلته، وحمل القرآن بما لا يحتمل، لأغراض سياسية واضحة، ظهرت نتائجها من خلال الجماعات الإسلاموية المتعصبة والمتعطشة للدم، ذات العصاب الإرهاب، التي عاثت في الأرض فسادا ودمارا

إن ما نجده في الكتاب والسنة هو ضرورة أن نجتهد في التبصر (التفكير) بآيات الـلـه، وليس قراءة تفاسير المفسرين. ولا نقوم بتفسير القرآن تفاسير مغايرة، مجاراة لكل عصر وهوى سياسي، وكما يتفق مع مصالح المفسرين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمنتفعين من الحكام والسلاطين بهذه التفاسير، وهو ما كان، وما زال يسمى بفتاوى الفقهاء والأشياخ، التي أصبحت كصكوك الغفران والكفران في القرون الوسطى، والذين يؤكدون مسألة اليوم وينسخونها أو يتراجعون عنها غدا، وفي كل فتوى يأتون بالآيات التي يلوون عنقها ومعناها ليا قسريا، لكي تتناسب مع كل فتوى ومناسبة على أساس أن القرآن (حمال أوجه). فرغم أن الجهاد في الإسلام قد فرض أساسا لثلاثة أسباب: نشر الإسلام، وحمايته،

ومحاربة المرتدين عنه. إلا أن سائر آيات الجهاد الآن تستخدم استخداما سياسيا سيئا في إرهاب الآخرين، وليس بدعوتهم إلى الإسلام. فلم نسمع من فئة إسلاموية واحدة أنهم يحاربون الآخرين ويرهبونهم لكي يجبروهم على الدخول في الإسلام، ما عدا فئة من المعتوهين الأصوليين في لندن، تجاهد من أجل رفع راية الإسلام على قصر باكنجهام، فيما لو علمنا أن (لا إكراه في الدين)كما قال القرآن. إلا أن الدين فرض بالقوة، وبحد السيف في مناسبات تاريخية كثيرة كما نعلم. وتلك كانت حجة عمر بن الخطاب في معارضته لأبي بكر في قيامه بحروب الردة في صدر الإسلام، مما يوحي لنا بأن (الإسلام السياسي)منذ فجر الإسلام، ومنذ البداية قد فرق تفريقا كبيرا وشاسعا بين النصوص والتطبيقات، وما زال هذا التفريق وهذا التضاد بين النصوص والتطبيقات قائما حتى الآن. ولعل هذا التفريق ناتج بالدرجة الأولى من أن القرآن جاء، بسوره وآياته الحربية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والقصاصية، ومواقفه من الآخرين ومن أعداء الإسلام لمناسبات تاريخية قديمة خاصة ومحصورة، انقضت، وانقضت معها الغاية والهدف من هذه الآيات. ولا مجال لتطبيق هذه الآيات الآن لاختلاف الظرف والحتم التاريخي، الذي أصبح بحاجة إلى آيات جديدة، فيما لو أردنا أن يكون القرآن لكل زمان ومكان، وفيما لو أن الوحي ما زال مستمرا إلى الآن. وهو ما كان قائما في حياة الرسول، الذي درج القرآن في تلك الفترة على المجيء بآيات، ثم بنسخها مراعاة للحال، وتغير الظروف، أو استدراكا لخطأ ما، أو لعدم احتمال المسلمين تنفيذ أمر ما. فبعد أن أمر القرآن مثلا أن يواجه كل مسلم عشرة من الكفار، تراجع عن هذا الأمر، في ظل عدم توازن القوى، وبعد أن شكا المسلمون ضعفهم وعدم قدرتهم على تنفيذ ذلك، وخففه القرآن إلى مواجهة كل مسلم لاثنين من الكفار، وقال تعالى في (سورة الانفال، الآية 66): {الآن خفف الـلـه عنكم، وعلم أن فيكم ضعفا، فإن يكن

منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين}. ورغم ذلك فإن هذه المائة الصابرة، لم تغلب مائتين في كثير من المناسبات والمواقع، حين كانت موازين القوى تختل.

لا نص صريحا في القرآن أو الحديث على دوام الحال

من ناحية أخرى لا يوجد نص صريح في القرآن أو في أحاديث الرسول، يقول إن آيات القرآن أو أحاديث الرسول عابرة للتاريخ، وتصلح لكل زمان ومكان. وما هذه المقولة إلا من اجتهاد الفقهاء السياسيين في العصور المختلفة. وتلك كانت واحدة من مآثر القرآن ومآثر أحاديث الرسول الذي لم يغلق سير التاريخ والحياة ويوقفهما على نصوص القرآن أو أحاديثه فقط، بل أبقى هذه النصوص مفتوحة، إن صلحت للحال المتجدد اخذ بها، وإذ لم تصلح نتيجة لتغير الأحوال اخذ بغيرها شرط أن تتوافر فيها المصلحة العامة. ومن هنا، قال الشيخ محمد الغزالي في كتابه (مائة سؤال عن الإسلام، ص 170): (لا نسخ في القرآن أبدا، إلا ما كان بمعنى تخصيص العام، أو التدرج في التشريع). والعالم كله - كما هو معروف - يسير من (العام إلى الخاص)، منذ أقدم العصور إلى الآن، ويتدرج في التشريع منذ عهد آدم إلى الآن. وما القوانين المدنية الموضوعة، والمتغيرة من حين لآخر، إلا نموذج للتدرج في التشريع. فلا نص قديما يطبق على حال جديد، إلا بما اتفق.

الشيخ البنا يدعو إلى إلغاء تفاسير القرآن

لقد وعى كل هذا في أيامنا هذه، شيخ (خارجي)من شيوخ الإسلام، وهو الشيخ جمال البنا شقيق مؤسس (حركة الإخوان المسلمين)حسن البنا. فقد دعا الشيخ جمال البنا إلى إلغاء تفاسير القرآن كافة، والإبقاء على القرآن بدون تفاسير، لكي يفهمه كل واحد على قدر سعة

عقله، ومعرفته، وإدراكه، دون تدخل من المفسرين أصحاب المصالح والمشالح (العباءات) في تفسير القرآن. وهو ما عبر عنه في القرن التاسع عشر الشيخ محمد عبده، عندما حدد نشاطه الفكري الساعي إلى تحرير الدين من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى. وقال الشيخ جمال البنا كما قرأنا في نشرة (الميدان)التي تصدر في القاهرة، عن (الإخوان المسلمين)بأن الإسلام من القوة، بحيث لا يحتاج إلى من يدافع عنه. وأن القرآن من الوضوح والجلاء، بحيث لا يحتاج إلى من يفسره ويغرقه في كثير من الأيديولوجيات. وقال البنا بأن تفاسير القرآن المختلفة والمتعددة هذه قد حجبت نور الإسلام وجوهره من أن يصلا إلى النفوس. وأن المفسرين طرحوا في هذه التفاسير فكرهم هم، وأغراضهم الشخصية السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقال جمال البنا بأن الرسول لم يأمرنا بتفسير القرآن، وإنما بتلاوته فقط. وأن الرسول نفسه لم يقم بتفسير القرآن، كما أن الخلفاء الراشدين من بعده لم يقوموا بتفسير القرآن. ولو كان القرآن بحاجة إلى تفسير لقام الرسول بتفسيره - فهو الأولى بتفسير القرآن وخير من يفسره - أو لقام الصحابة من بعده بتفسيره وهم أقدر الناس على تفسيره لعلمهم بأسباب نزوله. ولكن ما حدث هو عكس ذلك، إذ إن عمر بن الخطاب قد قام بمنع تفسير القرآن، وقال قولته الشهيرة : (القرآن حمال أوجه).

فماذا كان مصير جمال البنا هذا، نتيجة حملته على الشيوخ المفسرين للقرآن لأغراض خاصة ؟

لقد قام عليه أشياخ الأزهر، وصدرت فتاوى أزهرية كثيرة في حقه، منها ما أدانه بالكفر، ومنها ما أدانه بالإلحاد، ومنها ما أدانه بالمروق. وهوجم جمال البنا هجوما شديدا ولعلنا ندرك ونفهم السبب من وراء هذا الهجوم الكاسح على جمال البنا من قبل أشياخ الأزهر.

إن السبب الرئيسي وراء هذا الهجوم من أشياخ الأزهر وغيرهم من شيوخ التفاسير، أن جمال البنا بدعوته إلغاء تفاسير القرآن السابقة وإيقاف تفسير القرآن من قبل كل شيخ على هواه، معناه تقليص السلطة الدينية والهيبة الدينية للأزهر وأشياخه ولباقي الأشياخ. وهذا يعني في زعمي أمورا كثيرة وخطيرة، منها:

1. إزاحة السلطة الدينية عن أن تكون واسطة بين المسلم والكتاب، أو بين المسلم والحديث النبوي، وبذا تنتفي أهمية هذه السلطة وأهمية خدماتها كوسيط بين المسلم وربه.

2. رفع وصاية المؤسسة الدينية عن تفسير الكتاب والسنة. وهذا من شأنه أن يقلص من أهمية المدارس الدينية المنتشرة في العالم الإسلامي كله، والذي يقوم الأزهر بتزويدها بالمدرسين المفسرين.

3. تقليص السلطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لأشياخ الأزهر حيث يجردون من سلاح الفتاوى التي تعلي من شأنهم، وترفع مناصبهم في أعين السلطة والمجتمع، وتمتعهم بالمميزات الكثيرة والكبيرة، وتأتي لهم بالعطايا والمطايا والهدايا. ولنا أن نتصور مثلا كيف لو أن الشيخ متولي الشعراوي اوقف عن تفسير القرآن في ندواته الدينية الشهيرة، التي كانت تذيعها كل محطات التلفزيون العربية تقريبا، وجرد من سلاحه الإعلامي هذا، فماذا سيبقى منه، وما هو دوره في الحياة اليومية الإسلامية، وهو الذي كان حديث المجتمعات الإسلامية، بتفسيره المسرحي (الجديد)القديم للقرآن والحديث من وجهة نظره كداعية ديني صاحب أيديولوجية سياسية، كانت أهم مظاهرها مباركة الصلح مع إسرائيل (وتلك ظاهرة فريدة وغريبة ولا تتفق مع منهاج الشعراوي في عدائه للآخر ودعوته للجهاد الانتحاري. ويبدو أن السادات قد لعب دورا فيها. فلو لم يكن السادات هو صاحب السلام مع إسرائيل لما أيده الشعراوي الذي كان

وزيرا للأوقاف في عهده) وإصدار فتوى شرعية تقول بأن الشورى (مستحبة)للحاكم ولكنها غير (ملزمة)، إن شاء الحاكم أخذ بها وإن شاء تركها، وقيامه بالصلاة شكرا لله على هزيمة 1967، لأن الـلـه هزم المصريين والعرب من ورائهم؛ لأنهم كانوا من الاشتراكيين الشيوعيين في ذلك الوقت، وأن الفائدة البنكية ربا وحرام، وأن الحل في المؤسسات الاستثمارية المالية الإسلامية التي نشأت في مصر وغيرها، ودعمها الشيخ الشعراوي دعما شرعيا وإعلاميا كبيرا، والتي نصبت على الناس أخيرا، وخدعتهم، وأكلت أموالهم، وهربت إلى خارج مصر، وظهر أن مؤسسيها جميعهم من اللصوص والنصابين.

تفاسير القرآن سبب الشقاق السياسي

لقد أدت تفاسير القرآن المتضاربة في الماضي إلى شقاق المسلمين، واختلافهم، وتفرق جمعهم، ووجود فرق وشيع سياسية متحاربة ومتخاصمة في الإسلام كما هو حال المسلمين اليوم، ولكن بثمن أفدح من الماضي. فالشيعة والفرق المختلفة التي ظهرت، وكذلك المعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم، كانوا نتيجة التفاسير المختلفة والمتضاربة مع القرآن والحديث على السواء. وما (جماعة الإخوان المسلمين)ومئات الفرق والجماعات الإسلاموية المتخاصمة والمتحاربة الآن مع المجتمع، ومع الآخر، وع العالم، ومع المعاصرة، ومع الحداثة، ومع العولمة، ومع العلمانية، والتي انتشرت في طول العالم العربي وعرضه الآن إلا نتيجة لكثرة تفاسير القرآن المتضاربة والمختلفة، وعلى رأسها تفسير سيد قطب (في ظلال القرآن).

تفاسير القرآن أدت إلى تعطيل عقل المسلم

أدت تفاسير القرآن المختلفة من ناحية فكرية ولغوية، إلى تعطيل

خيال المسلم وتعطيل عقله، حين قدمت له هذه المجموعات الكثيرة والضخمة من التفاسير المختلفة الجاهزة. فلم يعد المسلم يعمل عقله أو يشغله في التفكر والتأمل في آيات القرآن واحتمال واستنباط معانيها ومدلولاتها. فلقد سبقت التفاسير المختلفة عقل وخيال المسلم إلى تقديم المعاني الجاهزة والدلالات الحاضرة المؤدلجة سياسيا وثقافيا واجتماعيا، وبذا توقف العقل والخيال العربي عن العمل، فيما لو علمنا أن القرآن تمت كتابته بلغة خاصة، لا هي بالنثر ولا هي بالشعر كما قال طه حسين، وتحتمل كل آية منه مجموعة من المعاني المختلفة على قارئ القرآن أن يستدل عليها، كل حسب استطاعته وإدراكه وعلمه. وكان القرآن كـ (حمال أوجه)وسيلة كبرى من وسائل (تشغيل)العقل العربي وإخصابه، لكل من يقرأه أو يستمع اليه، وهو ما هدف اليه الرسول والصحابة الذين لم يقدموا على وضع تفاسير للقرآن، وهو ما عطلته جملة التفاسير المختلفة، حين قطعت الطريق على هذا العقل لكي يفكر، ويستنبط تفسيره الخاص لآيات القرآن.

فهل كان الشيخ جمال البنا إذن على حق فيما دعا إليه، ونادى به؟

وهل كنا نتصور، أو نتوقع أن يقف الأزهر وأشياخه من جمال البنا هذا الموقف المستنكر؟

فاعلم أن هذا يحدث للعرب الآن، في زمان كثرة الطغيان وقلة العرفان!

هل حقا أن القرضاوي داعية وسطي معتدل؟

-1-

* تعرض الشيخ القرضاوي لهجوم الصحافة الشعبية البريطانية عليه في زيارته للندن 2004. ودعت بعض الأصوات إلى مطالبته بمغادرة بريطانيا، في حين قامت الصحافة العربية في لندن بالتبشير بأن الشيخ القرضاوي داعية وسطي ومعتدل، وبأنه بعيد في دعوته عن استعمال العنف في حل المشاكل السياسية في العالم العربي وعلى رأسها المشكلة الفلسطينية، وما يجري في العراق من إرهاب وسفك دماء.

فهل حقا يعتبر القرضاوي داعية دينيا وسطيا ومعتدلا، أم أنه كباقي رجال الدين يدعو إلى العنف واستعمال السلاح في حل المشاكل السياسية المعقدة في العالم العربي؟

علينا أن لا ننسى أن القرضاوي هو المرجعية الفقهية العليا لجماعة الإخوان المسلمين المتطرفة والدموية في التاريخ المصري الحديث وفي تاريخ العالم العربي الحديث، وصاحبة (التنظيم السري)الإرهابي المشهور الذي تزعمه في الأربعينات عبد الرحمن السندي، والذي قتل مجموعة كبيرة من السياسيين والأبرياء المصريين، وأفزع مصر من الصعيد إلى الدلتا، والذي فرخ معظم الجماعات الإسلامية المسلحة في العالم العربي.

إن مواقف القرضاوي ومقالاته وخطبه وأحاديثه تدل على أنه عكس ما تطلق عليه الصحافة العربية من أنه وسطي، وأنه من كبار رجال الدين الذين يدعمون العنف وسفك الدماء في العالم العربي، وأنه ضد الحداثة، وضد العولمة، وضد العلمانية، وضد تحرير العراق، وضد الحل السلمي السياسي في فلسطين، وأنه من المطالبين بقيام دولة دينية وبإعادة الخلافة الإسلامية.. الخ. وأن القرضاوي في تعليقه على مقولة سيد قطب من أن المجتمع الحالي هو مجتمع جاهلي يرمي فئات من المفكرين بالردة، وحكم

المرتد هو القتل في الإسلام، ويقول: (إن مجتمعنا القائم في بلاد المسلمين، مجتمع خليط من الإسلام والجاهلية، فيه عناصر إسلامية أصيلة، وعناصر جاهلية دخيلة. فيه أناس مرتدون صراحة من دعاة الشيوعية والعلمانية اللادينية، وهم فئة قليلة من الحكام ورجال الأحزاب العقائدية ونحوهم، فلهم حكم المرتدين). والقرضاوي يدعو من تعلم ودرس في الغرب بأنه من (عبيد الفكر الغربي). وبذا فإن طه حسين وحسين هيكل وتوفيق الحكيم وعلي عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق وغيرهم من الليبراليين هم عبيد الفكر الغربي!

-2-

تتجلى دعوة القرضاوي الدينية السياسية إلى العنف وممارسة الإرهاب الديني تحت عنوان (الجهاد والاستشهاد)، من خلال إلباس العمليات الانتحارية التي تقوم بها الجماعات الدينية الأصولية المسلحة الفلسطينية لباسا دينيا محضا وكأن الصراع العربي- الإسرائيلي في فلسطين أصبح صراعا دينيا وليس صراعا سياسيا وكأن قضيتنا مع إسرائيل هي الدعوة إلى أن تصبح إسرائيل جزءا من دولة الخلافة الإسلامية أو دعوتها لنا بأن نصبح جزءا من الدولة اليهودية الصهيونية. ومن هنا تتم صباغة العمليات الانتحارية بالصبغة الدينية الشرعية وإطلاق لفظ (استشهاد)و (جهاد)عليها، في حين أن الجهاد والاستشهاد يتمان فقط للدفاع عن الدين وليس عن الأوطان. والدليل أن العرب قبل الإسلام لم يستعملوا هذه الكلمات التي جاءت مع الدعوة إلى الدين الجديد والجهاد والدفاع عنه، واعتبار المدافعين عن الوطن مجاهدين استشهاديين. والدليل الآخر أننا لا نطلق على من يدافعون عن أوطانهم من المسيحيين واليهود والبوذيين والملحدين وغيرهم مجاهدين، ومن يموتون في سبيل أوطانهم من هؤلاء استشهاديين.

إذن، فكلمتا (جهاد واستشهاد)تعبيران دينيان محضان لهما شروطهما وظروفهما السابقة، والتي لم تعد موجودة الآن. فالجهاد في سبيل الـلـه قد انتهى منذ زمن طويل عندما اكتمل الدين وانتشر (اليوم أكملت لكم دينكم). والجهاد الديني والاستشهاد الديني الذي استمر بعد اكتمال الدين ونشره هما حروب سياسية وغزوات اقتصادية محضة، لا علاقة لهما بنشر الدين الذي لا ينشر بحد السيف {لا إكراه في الدين}. والجهاد الديني والاستشهاد الديني لا يكونان إلا في سبيل الـلـه وليس في سبيل الأوطان أو الحرية أو الديمقراطية. فقتلى وضحاياها الحرية في المشرق والمغرب لا يعتبرون (مجاهدين)أو (استشهاديين)إلا إذا كانوا مسلمين يدافعون عن الدين. فمسيحيو الشرق الذين راحوا ضحايا الحرية والدفاع عن الوطن لا يعتبرون مجاهدين ولا استشهاديين. وكذلك المسيحيون المقاتلون في صفوف الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية والجبهات اليسارية الأخرى في فلسطين. فالجهاد والاستشهاد لا يكونان إلا في سبيل الـلـه فقط؛ أي في سبيل نشر دين الـلـه. {وقاتلوا في سبيل الـلـه الذين يقاتلونكم} (البقرة 190).

فالمسيحيون المناضلون الذين ضحوا بحياتهم في سبيل تحرير أجزاء من الوطن العربي لا يعتبرون شهداء ولا مجاهدين!

والمسيحيون الذين قضوا في سبيل تحرير بلادهم في فلسطين وليس في سبيل الـلـه لا يعتبرون مجاهدين أو استشهاديين!

إذن، فالجهاد والاستشهاد مقصوران على الحروب الدينية في (سبيل الـلـه) والتي انتهت وانقضت بانتشار الدين هذا الانتشار الواسع، إلا إذا كنا نريد الآن أن يتخلى الغرب عن دينه، ونرفع راية الخلافة الإسلامية فوق البيت البيض، وقصر بكنجهام، والإليزيه، وفي اليابان والصين وغيرها.

إن المقاومة الدينية المسلحة الفلسطينية، التي ذهب ضحيتها الآلاف من (المجاهدين الشهداء)ولم تؤد إلى نتيجة سياسية إيجابية، بل على العكس من ذلك أفقدت الفلسطينيين الدعم الدولي وتعاطف الرأي العام الدولي، وأضرت بالقضية الفلسطينية ضررا كبيرا، والدليل على ذلك أن الانتفاضة قد انتهت الآن في فلسطين دون نتائج إيجابية لصالح الفلسطينيين، واقتنع الفلسطينيون باللجوء إلى الحل السياسي بعد خسارة كبيرة.

ولكن الشيخ القرضاوي ما زال يعتبر الانتفاضة الفلسطينية حربا دينية/سياسية وليست سياسية فقط، ويدعو إلى الجهاد والاستشهاد؛ أي إلى العنف الذي ينكر في لندن أنه يدعو اليه. وفي هذا يقول القرضاوي كما أورد مجدي عبد الهادي (بي بي سي، 2004/7/7): (إن الهجمات الانتحارية التي ينفذها الفلسطينيون ضد إسرائيل هي وسيلة مشروعة للدفاع عن النفس من قبل أناس لا يملكون طائرات ولا دبابات. وإن مئات من العلماء المسلمين يتبنون الرأي نفسه).

وقال القرضاوي لبرنامج (نيوزنايت)في (بي بي سي) مدافعا عن الهجمات الانتحارية التي تستهدف مدنيين إسرائيليين:

(أعتبر هذا النوع من العمليات الاستشهادية دليلا على العدالة الإلهية).

وبرر رأيه ذلك بالقول:

(إن الـلـه تعالى عدل بحكمته المطلقة، حيث منح المستضعفين سلاحا لا يملكه الأقوياء، وهو قدرتهم على تحويل أجسادهم إلى قنابل كما يفعل الفلسطينيون).

وهكذا شرعن القرضاوي العنف شرعنة دينية، ومنح الانتحاريين بطاقة دخول الجنة الموعودة.

-5-

وفي الدعوة غير المباشرة لاستعمال العنف والتحريض عليه، يتهم القرضاوي الغرب بأنه هو الذي يمارس العنف، وبأن الرد عليه يجب أن يكون بالعنف أيضا لكي يبرر العنف الديني القائم الآن! وهو ما لم يقدر على تبريره في الماضي من خلال المجازر التي أقامها خالد بن الوليد في حروب الردة الاقتصادية لإجبار الناس على دفع الزكاة والجزية بالقوة، ووقف عمر بن الخطاب ضدها، ومن خلال المجازر التي أقيمت للشعراء والمعارضين للدعوة الإسلامية، ومن خلال مجازر اليهود التي اقيمت في المدينة المنورة قبل ذلك، نتيجة الخلاف بين اليهود والرسول، ورفض اليهود تمويل حروب الرسول ضد قريش وتجهيزها.
ومن أجل مواجهة عنف الغرب المتخيل، وتبرير العنف الديني المسلح، يقول القرضاوي بأن الغرب هو الإرهابي ولسنا نحن، ونحن نواجه الإرهاب بالإرهاب. ويقول القرضاوي في هذا الصدد في موقعه على الانترنت تحت عنوان (المسلمون والعنف السياسي، 2004/6/23):
(الواقع يقول إن الغربيين هم أكثر الناس عنفا، وإن المسلمين في العالم كله هم ضحايا هذا العنف، ودماؤهم وحرماتهم مستباحة في كل مكان).

-6-

وفي خطب صلاة الجمعة، يختتم القرضاوي دائما دعاء ختام خطبة الجمعة، بالدعوة إلى محاربة اليهود والنصارى حربا دينية، وكأن الصراع العربي - الإسرائيلي أصبح صراعا دينيا بمعنى أننا نحارب إسرائيل لكي تعلن إسلامها أو تحاربنا إسرائيل لنعلن يهوديتنا، وأننا نحارب الغرب لكي يعلن إسلامه ويحاربنا الغرب لكي نعلن مسيحيتنا. ولو أننا انتهينا من اليهود والمسيحيين، فسوف نتجه غدا شرقا لكي نحارب الصين واليابان

وكوريا وغيرها من البوذيين لكي يعلنوا إسلامهم، أو يتغلبوا علينا ويجبرونا على البوذية.
ومن هنا يدعو القرضاوي إلى حرب دينية مع إسرائيل ومع الغرب. وهو يدفع بذلك (صراع الحضارات)إلى الأمام أكثر من صموئيل هنتنجتون والذي هو في حقيقته (صراع جهالات). فهو يدعو إلى قتل اليهود وإزالة دولة إسرائيل المعترف به دوليا وعربيا، ومن قبل دولته الأولى مصر ومن قبل دولته الثانية قطر. ويحرض المصلين على الحرب بدعائه على منبر صلاة الجمعة قائلا:
(اللهم عليك باليهود.
اللهم عليك بحلفائهم من الصليبيين الكائدين الحاقدين.
اللهم خذهم، ومن ناصرهم، ووادهم أخذ عزيز مقتدر.
اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يرد على القوم المجرمين.
اللهم أزل دولتهم، واذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلا على أحد من عبادك المؤمنين.
اللهم يا منـزل الكتاب، ويا مجري السحاب، ويا سريع الحساب، ويا هازم الأحزاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم.
اللهم اهزمهم، وانصرنا عليهم).

-7-

أليس لليهود حق بعد ذلك، في مطالبة السلطات البريطانية بطرد القرضاوي من لندن؟
فلو أن كاهنا مسيحيا أو حاخاما يهوديا كان يدعو دعاء القرضاوي على العرب في الكنيسة أو في الكنيست، ويطلب من ربه إزالة دولة العرب وسحقهم، وزار عاصمة عربية، فماذا نتوقع من الإعلام والرأي العام العربي أن يقول في زيارته؟

هل كانوا سيرحبون به، وينثرون الورود على رأسه، ويفرشون له السجاد الأحمر؟
إن هذا الدعاء الذي درج القرضاوي على اختتام كل خطبة جمعة به، دعاء منتقى بعناية شديدة، وله خلفية ايديولوجية واضحة. وهو دعاء لا يأتي من مؤذن في مسجد، أو شيخ متواضع، أو درويش من دراوشة الصوفية، ولكنه يأتي من شيخ يقود الإسلام السياسي الآن في العالم العربي من خلال منابر متعددة. فالقرضاوي الآن هو أهم قيادي وأقوى زعيم ديني سياسي في العالم العربي. ومثل هذا الدعاء محسوب عليه دينيا وسياسيا كمواقف. والقرضاوي الآن لا يستطيع أن يدعو هذا الدعاء بعد خطبة الجمعة في لندن. وهو لم يدع هذا الدعاء في خطبة الجمعة الماضية في مسجد ريجنت بارك في قلب العاصمة البريطانية، خشية من أن يطرد من لندن بعد أن أصبح محاصرا ومراقبا من البوليس البريطاني.
فالإسلام في القاهرة أو في الدوحة يختلف عن الإسلام في لندن في رأي القرضاوي، ولكل مقام مقال. ولكل مقام دعاؤه!

-8-

إن الذين يبررون للشيخ القرضاوي وسطيته ويسوقون لها من خلال إدانته لهجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001، ومن خلال الهجمات البربرية التي حدثت في أندونيسيا في جزيرة (بالي)عام 2002، يتعامون عن حقيقة أن أي إنسان، كائنا من كان، لا يملك إلا أن يندد بهاتين العمليتين البربريتين، وأن تنديد القرضاوي بهما لا يدعو إلى إنكار حقيقة مواقفه في استعمال العنف في فلسطين والعراق. والدليل أنه، وهو المستشار الإعلامي الديني الأعلى والأب الروحي في (قناة الجزيرة)، لم يبد رأيا مخالفا لما تقوم به (قناة الجزيرة)من الدعوة إلى العنف، مما اضطر بعض المعلقين إلى إطلاق لقب (قناة الملثمين)أو (قناة الأشباح)عليها.

فإذا كانت هذه هي المواقف السياسية الدينية الوسطية حقا للقرضاوي، فكيف يكون حال المتطرفين الدينيين إذن؟!

-9-

الشيخ يوسف القرضاوي هو المرجعية الفقهية العليا لجماعة الإخوان المسلمين، وهو الأب الروحي لمعظم الجماعات الدينية التي انقلبت إلى منظمات إرهابية دموية، وهو المستشار الديني الاقتصادي لأكثر من عشرين شركة مالية تعمل بالنظام المالي الإسلامي، والتي خربت بيوت معظم صغار المستثمرين في مصر كما هو معروف، وهو صاحب فكرة إنشاء (قناة الجزيرة)والأب الروحي والمفتي الأكبر لها. وهو المستشار السياسي - الديني لأمير دولة قطر، واللاعب الرئيسي في ندوات الديمقراطية والشورى الإسلامية وحوار الأديان، وهو من دعاة أن الشورى معلمة للحاكم وليست ملزمة له، وهو من دعاة عدم عزل الحاكم حتى ولو كان فاجرا وجائرا، وهو من دعاة (أطع حاكمك ولو جلد ظهرك وسرق مالك)حسب الحديث المنسوب للنبي زورا، وهو أخيرا من المبشرين بـ(الديمقراطية الإسلاموية)حيث ألقى قبل مدة خطبة بمناسبة (مؤتمر الديمقراطية والاصلاح السياسي)الذي عقد في قطر.

فما هي هذه الديمقراطية الإسلاموية (Islamiste) (الإسلام المؤدلج) التي يدعو لها شيخنا القرضاوي؟

بدأ القرضاوي خطبته بالقول إن الديمقراطية هي من روح الإسلام!

ومن المعلوم أن الإسلام بريء من كلمة ديمقراطية، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وأن معظم شيوخ الإسلام المعاصرين يقرون بأن الديمقراطية بدعة غربية لا علاقة للإسلام بها. والإرهابي الزرقاوي أعلن قبل بدء الانتخابات العراقية التشريعية بأن هدفه في العراق (إشعال حرب شعواء ضد الديمقراطية).

فلا القرآن ولا الأحاديث الصحيحة أو الكاذبة (وما أكثرها) ، ولا أقوال السلف الصالح أو الطالح جاءت على ذكر كلمة ديمقراطية، أو طبقتها في التاريخ السياسي الإسلامي كما نعرفها اليوم.

ورغم أن الإسلام دين سياسي في الدرجة الأولى، جاء من أجل تحقيق إمبراطورية سياسية شهدنا أولها في العصر الراشدي وآخرها في العصر العباسي، إلا أن الإسلام وفقهاء الإسلام لم يلتفتوا إلى أدبيات السياسة إلا من خلال كتب قليلة وفقيرة ومتواضعة، كان من أهمها الكتاب اليتيم لأبي الحسن الماوردي (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) الذي كتبه في القرن الحادي عشر الميلادي، وكتاب ابن تيمية (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) الذي جاء في القرن الثاني عشر الميلادي بعد سيطرة المماليك غير الشرعيين على السلطة. وهي كتب قاصرة على الفترة التي كتبت فيها، وموجهة لسلاطين ذلك الزمان لحثهم على العدل واتباع الحق، وليس لها أي امتداد فكري سياسي تاريخي. ومن هنا يتبين لنا أن لا تراث سياسيا لدى العرب والمسلمين لكي يرتكزوا عليه في إدارة شؤون الحكم الآن، حيث كانت السياسة أسلوب حكم، وليست علما أو فكرا سياسيا كما يقول أحمد البغدادي في (تجديد الفكر الديني، ص 300) مما جعل الخلافة تمتد من 632 إلى 2004م على نمط واحد، وهو النمط القبلي والبدائي البسيط (بيعة النخبة من أهل الحل والعقد) واللاديمقراطي والاستبدادي والدموي في معظم أزمنته، باستثناء فترة قصيرة (12 سنة) التي تغطي عهدي أبو بكر وعمر بن الخطاب.

ومن هنا نرى أن الخلافة الإسلامية، منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى عهد آخر سلاطين آل عثمان عبد المجيد بن عبد العزيز (661-1924م)، كانت خلافة دموية أخذت بقوة الساعد وبالسيف، وهي الآن كذلك في معظم أنحاء العالم العربي.

وقول القرضاوي إن الديمقراطية الحقيقية هي من روح الإسلام، قول

باطل.
فلا الديمقراطية من روح الإسلام ولا من جسده. والإسلامويون لم يعرفوا الديمقراطية إلا مؤخرا عندما عرفها الغرب وطبقها، وبدأ يحث الدول الأخرى على تطبيقها حرصا على مصلحة سكان كوكب الأرض من الفناء من ظلم الحكام المستبدين وجبروتهم. ورغم أن فقهاء الإسلام عرفوا الديمقراطية حديثا إلا أنهم لم يعترفوا بها، وقالوا بشورى الراشدين القاصرة، والتي لا تلبي رغبات شعوب القرن الحادي والعشرين.
فمن أين جاء الشيخ القرضاوي بالديمقراطية الإسلاموية التي يتخيلها، دفعا لتطبيق الديمقراطية الغربية التي لا ديمقراطية غيرها الآن في العالم.

-10-

يقول القرضاوي في خطبته عن الديمقراطية الغربية:
(إن بعض الناس يقول: الديمقراطية حكم الشعب، ونحن نريد حكم الـلـه).
وهذا يعني أن القرضاوي يريد أن تكون سلطة الحاكم (الذي هو ظل الـلـه على الأرض) من الـلـه وليس من الشعب، وأن الحاكم مختار من الـلـه وليس من الشعب، وأن الحاكم لا يتنحى إلا بأمر من الشرع وليس بأمر من الشارع. وهو ما قاله عثمان بن عفان منذ أكثر من أربعة عشر قرنا عندما طلب منه الثوار التنحي فقال: (إن الـلـه قمصني قميصا إن شاء خلعه وإن شاء تركه). وهو يعني أن لا عزل لحاكم فاسد إلا بأمر من الـلـه؛ أي أن يموت الحاكم الذي لا يترك القصر إلا إلى القبر.
وهذه من فتاوى شيوخ الحكام وليست من الإسلام. ولا دخل للإسلام بكل هذا الهراء الديني السياسي المزيف الذي يقول به القرضاوي ويردده. وما هذا القول إلا دعوة (الحاكمية)التي قال بها سيد قطب في

كتابه (معالم في الطريق)، وكان قد نسخها عن المفكر الباكستاني أبو الأعلى المودودي، صاحب نظرية (الحاكمية)، التي تتلخص في أن الحكم لله وليس للشعب، وما الحاكم إلا أمين الـلـه وخليفته على الأرض. وتلك دعوة باطلة ومزيفة لا علاقة للإسلام بها، وانما هي دعوة دينية سياسية من رجال دين حواة، يخرجون الاستبداد الطغيان من الباب ويدخلوهما ثانية من النافذة. ومن هنا اتخذ سيد قطب موقفا حازما ضد أي محاولة للتوفيق بين الإسلام والديمقراطية، وعارض بشدة وصف الإسلام بأنه ديمقراطي، ودعا إلى ديكتاتورية عادلة تضمن الحريات السياسية للصالحين فقط. وكان يتساءل إذا كان نظام الحكم الديمقراطي قد أفلس في الغرب، فلماذا نستورده نحن في الشرق؟

وحاول مالك بن نبي، المفكر الإسلامي الجزائري، في محاضرة بعنوان (الديمقراطية في الإسلام)ألقاها في نادي الطلبة المغاربة عام 1960، الإجابة عن سؤال (هل في الإسلام ديمقراطية؟)مشيرا إلى أن تعريف مفهومي الإسلام والديمقراطية بالطريقة التقليدية (وهي الطريقة التي يتبعها القرضاوي الآن) قد يؤدي إلى استنتاج عدم وجود علاقة بينهما من حيث التاريخ والجغرافيا، منبها في ذات الوقت إلى أن تفكيك المصطلح في معزل عن محموله التاريخي، وإعادة تعريف الديمقراطية في أبسط أشكالها، تحريرا من القيود اللغوية والأيديولوجية، قد يوصل إلى استنتاج مختلف.

ومن هنا يتبين لنا أن الديمقراطية الإسلاموية التي ينادي بها القرضاوي ليست من الإسلام في شيء، ولكنها فتوى حواة دينيين، يريدون إرضاء السلاطين، الذين يتخذون من الديمقراطية والدعوة إلى مؤتمراتها في هذا الزمان، زينة وبهرجة ليس إلا. ويلتقي القرضاوي في هذا مع الرئيس بوش الذي أقر هو الآخر لأسباب سياسية معينة بعدم وجود تناقض بين الإسلام والديمقراطية في كلمته أمام المجلس الوطني لتنمية الديمقراطية بواشنطن!

يقول الشيخ القرضاوي في خطبته:
(قال بعضهم إن الديمقراطية بدعة مستوردة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. قلت لهم لا جوهر الديمقراطية ليس مستوردا، جوهر الديمقراطية هي الشورى، هي النصيحة في الدين، هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي حرية النقد والتعبير).
ونحن نقول للشيخ القرضاوي بأن الديمقراطية ليست بهذه البساطة وليست بهذه السطحية وليست النصيحة في الدين، وليست الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والإسلام لا يقبل خطف الديمقراطية على هذا النحو من التلفيق الساذج.
الديمقراطية هي حكم الشعب بالشعب وللشعب. وجوهرها مستورد من الغرب (Made in the West) ولا علاقة للإسلام بها من قريب أو من بعيد. فالديمقراطية غير التسامح الديني، وغير العدالة، وغير كل القيم الدينية. الديمقراطية قيمة دنيوية مدنية وليست قيمة دينية.
يقول الشيخ اللبناني محمد باقر السيد (إن الديمقراطية نظام غربي ارتبط بنشأة الدولة الأوروبية الحديثة وبسياق تطورها الاقتصادي والاجتماعي؛ ذلك أن تطور المجتمع الغربي الصناعي هو الذي أملى الحل الديمقراطي للنظام السياسي بصورة عامة) والشيخ الأصولي السوداني جعفر الشيخ إدريس، مؤلف كتاب (الإسلام والديمقراطية)يقول، بأن العلماء المحافظين يقرون بأنه (إذا قبلنا الديمقراطية بمعنى حكم الشعب، فإن ذلك يسير عكس عقيدة الإسلام، لأن الحكم في الإسلام هو حق الـلـه).
والديمقراطية مرة أخرى، هي حكم الشعب للشعب وبالشعب. والإسلام كما يقول القرضاوي هو حكم الـلـه للشعب، وبواسطة حاكم هو خليفة الـلـه على الأرض. فما علاقة الإسلام بالديمقراطية إذن؟
إن الأصوليين (وهم اليوم حاملو لواء الدين، ولا كلمة إلا لهم) الذين

ناقشوك يا مولانا - كما تقول في خطبتكم - وأنكروا علاقة الإسلام بالديمقراطية كانوا على حق وصواب، وكنت أنت على باطل وخطأ. فلا علاقة للإسلام لا بالديمقراطية ولا بجوهرها ولا بآلياتها. وكل ما أوردته من أمثلة، هي أمثلة باطلة لا تقاس بمقاييس آليات الديمقراطية اليوم التي نرنو اليها . وصدق الأصوليون عندما قالوا: من تمقرط فقط تزندق.

-12-

يقول الشيخ القرضاوي في خطبته:
(ليس المهم هو شكل الديمقراطية، المهم هو حقيقة الديمقراطية، جوهر الديمقراطية، هناك ديمقراطيات كثيرة في بلادنا العربية والإسلامية ولكنها للأسف ديمقراطيات زائفة، ديمقراطيات التسعـات الأربـع (99.99) هل هذا كلام معقول؟
هل هناك بشر يأخذ هذه النسبة كأنه لا يعارضه أحد؟
الأنظمة الملكية والأميرية لها نظامها الخاص المتوارث المعروف، وله حدوده وقيوده وضوابطه، ولكن الجمهورية والأخذ بالنظام الجمهوري هو تداول السلطات والرؤساء، ولكن عندنا الرئيس مخلد لا يزول عن ملكه أبدا، في كثير من البلاد يوجد في حفل واحد عدة رؤساء سابقين، في أمريكا في أحد المحافل كان يوجد بوش الحالي وكلينتون وبوش الأب وريجان وكارتر، أربعة أو خمسة من الرؤساء السابقين، هاتوا لي فيما عدا لبنان أي بلد جمهوري فيه رئيس سابق؟
لا يوجد، لابد أن يموت الرئيس أو أنقلب عليه، ثم هناك بدعة جديدة في بلادنا العربية والإسلامية هو توريث الرئاسة الجمهورية، أن تورث الرئاسة من الآباء إلى الأبناء كأنها عزبة يرثها الخلف عن السلف والابن عن الأب والحفيد عن الجد، ليست هذه هي الديمقراطيات التي نريدها، إذا كنا نريد ديمقراطيات حقيقية تقوم على الشفافية والمصالحة

وإعطاء الحرية للناس، وإعطاء حق النقد والمعارضة.)

ويقول الشيخ القرضاوي:

(نريد لبلادنا الإسلامية أن تتحرر تحررا حقيقيا من سلطان الجبارين والمستبدين والقاهرين للشعوب، نريد لهذه الشعوب أن تتنفس. لا يمكن أن تحيا هذه الأمة إذا كانت تساق بالعصا وتعامل معاملة العبيد، سوق الناس بالعصا لا ينشئ أحرارا وإنما ينشئ أمة من العبيد، والعبيد لا يستطيعون أن ينشئوا حضارة ولا أن يقيموا استقلالا ولا أن يحموا دولة. نريد حرية هذه الشعوب.)

والشيخ القرضاوي هنا مناور سياسي من الطراز الفريد، وينطبق عليه القول المصري الشعبي (أسمع كلامك يعجبني، أشوف فعايلك استعجب) وتفسير هذا المثل الشعبي يقول:

1- أن جماعة الإخوان المسلمين، الذين يعتبر القرضاوي من زعمائهم الكبار، تأسست عام 1928 كرد فعل على إسقاط الخلافة، كما ورد على لسان مصطفى مشهور، المرشد الخامس، الذي أكد أن حسن البنا، مؤسس الجماعة ومرشدها الأول، قام ليعلن أن إعادة الخلافة فرض عين على كل مسلم ومسلمة. وقد دعا البنا إلى استعادة الحكم الإسلامي على قواعد ثلاث: مسؤولية الحاكم، ووحدة الأمة، واحترام إرادتها. وفي معرض تحليله لأسباب النجاح الأوروبي، رأى البنا حتمية انهيار الحضارة الغربية بسبب ما تفشى فيها من ضعف الأخلاق والربا واضطراب النظم السياسية. كما اعتبر الأحزاب السياسية أحد العوامل المؤذنة بأفول نجم أوروبا. ومع أن مؤسس الجماعة حسن البنا ترشح للانتخابات النيابية في مصر مرتين، ورغم حرصه على تأكيد أن النظام البرلماني والدستوري ينسجم من حيث المبدأ مع نظام الحكم الإسلامي، إلا أنه كان يعارض التعددية الحزبية، ويرى أن الأحزاب السياسية تهدد الوحدة الإسلامية، التي

اعتبرها أساسية لاستعادة نظام الخلافة. بل إنه يرى أن يكون هناك حزب واحد: (ولا مناص بعد الآن من أن تحل هذه الأحزاب جميعا، وتجمع قوى الأمة في حزب واحد يعمل لاستكمال استقلالها وحريتها، ويضع أصول الإصلاح الداخلي العام).

2- من الذي نادى بتنصيب الملك فؤاد الطاغية خليفة للمسلمين بعد سقوط الخلافة في 1924، أليسوا هم الإخوان المسلمون اليوم والذين يعتبر القرضاوي واحدا من زعمائهم ومرجعيتهم الفقهية العليا؟

3- من الذي أراد تنصيب الملك فاروق في الأزهر بدل البرلمان المصري لولا معارضة النحاس باشا في ذلك الوقت، أليسوا هم شيوخ الأزهر ومنهم القرضاوي الذين هم حماة الإسلام؟

4- من الذي وقف إلى جانب الديكتاتور صدام حسين في عدوانه على الكويت والسعودية في 1990، أليسوا هم الإخوان المسلمين؟

-13-

إذن، كيف يريد الشيخ القرضاوي أن يطبق منهاجا سياسيا لم يعرفه الإسلام، ويدعي أنه من جوهر الإسلام.

لقد بدأ الإسلام دينا سياسيا حتى قبل أن تتم دعوته، فأسس في المدينة (دولة المدينة)، ثم بسط الإمبراطوريات السياسية الواسعة. ولكن ذلك كان قبل 1400 سنة ضمن شروط تاريخية معينة لم تعد قائمة الآن. ولم يعد الإسلام في الظروف الحالية، وبعد تغير مفهوم الدول والحكام والشعوب التي أصبحت مواطنين وليست رعايا كما كانت في السابق.

لقد كان الإسلام باستطاعته أن يقيم حكما لشعوب عاشت قبل 1400 سنة أو قبل حتى 500 سنة. ولكن الإسلام أو أي دين آخر غير قادر على ذلك الآن. لقد انتهى عصر الدول الدينية.

فالإسلام لم يعط المرأة حقوقها التي تتمتع بها في المجتمعات الديمقراطية المتقدمة، مما يعني عدم حرية المجتمع الإسلامي. والحرية هي أساس الديمقراطية المكين. والإسلامويون لا يؤمنون بالتعددية، ولا بالبرلمانات، ولا بالانتخابات، ولا بحكم الشعب للشعب ومن الشعب، ولا يعزلون الحاكم الفاسد، ولا يحاكمونه، ويتركون محاكمته لله في الآخرة.. الخ. فقد روى الحسن البصري حديثا نبويا يقول:

(لا تعصوا أولي الأمر منكم، فإن عدلوا فلهم الأجر وعليكم الشكر. وإن بغوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر، فهو امتحان من الـلـه يبتلي به من يشاء من عباده، فعليكم أن تتقبلوا امتحان الـلـه بالصبر والأناة، لا بالثورة والغيظ).

فكيف يمكن أن تقبل شعوب القرن الحادي والعشرين الحرة بهذا النظام السياسي، الذي وضع لشعوب كانت تعيش قبل قرون غابرة؟

في الماضي كان الشيخ القرضاوي على حق حين قال متسائلا صدقا:

(كيف يستغل الإسلاميون الديمقراطية وهم غير مؤمنين بها، حتى يصلوا إلى الحكم فقط، وحينئذ يحكمون على غيرهم بالإعدام؟)

أما الآن فما قاله في خطبة الجمعة السابقة الذكر كان باطلا وزائفا

وسبحان مغير الأحوال، ولا يتغير!

-13-

من منا يعتقد أن للشيخ القرضاوي رأيا واحدا في المسألة الدينية الواحدة، بغض النظر عن مكان المنبر الذي يفتي عليه القرضاوي فتواه الدينية، فهو مخطىء. وعلينا اعتبار أن هناك قرضاويين لا قرضاوي واحدا، وهناك رأيين له في كل مسألة دينية، لا رأي واحدا، وذلك تبعا للظروف والمتغيرات والمتطلبات، علما بأن الدين ثابت، وأحكامة ثابتة لا تتغير.

فللشيخ القرضاوي في كل مسألة دينية رأيان: رأي يقوله للمسلمين في الشرق، ورأي يقوله للمسلمين في الغرب!

ففي المسألة الديمقراطية مثلا، يؤمن القرضاوي في قرارة نفسه، كما يؤمن كثير من السلفيين الدينيين، بأن روح الديمقراطية ولبابها هو العلمانية التي ظهرت كردة فعل للثيوقراطية في أساسها، وأن لب الديمقراطية هي الليبرالية ذات الحرية السياسية والفكرية والشخصية والملكية. وهذه هي أركان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان منذ نصف قرن.

والشيخ القرضاوي - وهو الفقيه المحلق - يعلم دون شك مدى (الكفر والشرك)في ذلك الإعلان - من الوجهة الدينية - حيث نص الإعلان في كثير من مواده على المساواة المطلقة بين العباد، بغض النظر عن الجنس والدين، وهذا مخالف للقرآن الذي يقول: {أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون}، ويقول: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون}، ويقول كذلك: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}.. الخ.

ومن هنا، فإن كلام القرضاوي عن الديمقراطية الإسلاموية كلام غامض وملتبس وغير مفهوم. وهو كلام للاستهلاك السياسي المرحلي ليس إلا، كما أوضح خالد أبو الفضل، أستاذ القانون في جامعة ييل الأمريكية في كتابه (الإسلام السياسي وتحدي الديمقراطية Islam and the Challenge of Democracy) (جامعة برنستون، 2004).

-14-

في الغرب المسلم، يردد القرضاوي بأنه مع حرية المرأة وعملها وعلمها وخروجها من بيتها. وفي الشرق الإسلامي يردد القرضاوي الآيات والأحاديث التي تمنع اختلاط الرجال بالنساء، وخلو الرجل بالمرأة، والتي جعلت ابتعاد أحد الجنسين عن الآخر أصلا عظيما من أصول الشرع. ومن هذه الآيات: {وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب}،

و{وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}، و {فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا}. ومن الأحاديث : {ألا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان}، و(المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان). و (إياكم والدخول على النساء)، وغيرها.

-15-

والقرضاوي عندما يكون في المشرق الإسلامي يرفض القواعد الأجنبية، ويقول بوجوب مقاومة القوات الأمريكية الغازية بكل السبل المتاحة. وعندما يكون في الغرب المسلم، أو يريد الحصول على تأشيرة دخول إلى الغرب، يفتي بشرعيتها كما قال في برنامجه (الشريعة والحياة)في 2003/2/16، والذي دعا فيه إلى احترام الاتفاقات القديمة التي تمت بين الأمريكان وحكام المنطقة، والتي توجد بموجبها قواعد أمريكية في منطقة الخليج .

بل إن الشيخ القرضاوي، زاد على ذلك في حديثه لموقع (حقائق مصرية)على الانترنت، وقال في فتواه التي لا يجرؤ أي سياسي علماني أن يقوله وهو: (بالنسبة للقواعد الأمريكية القديمة المنتشرة في منطقة الخليج فإنها قامت بطريقة شرعية ؛ لأنها جاءت بقرارات حكومات شرعية، فهذه نبقي عليها، بينما الإنزال الجاري حاليا لا توافق عليه غالبية الدول العربية والإسلامية، مما يجعله غير شرعي ومرفوضا، ولا يجوز السماح لها بالتواجد من أجل احتلال أراضي المسلمين).

ومن الواضح أن هذه الفتوى الدينية السياسية جاءت إرضاء لقطر التي منحته جنسيتها، والتي تستضيف أكبر القواعد الأمريكية في العالم، خارج أمريكا!

-16-

وفي الغرب الإسلامي يقول القرضاوي عن اليهود : (إن العداوة بيننا وبين اليهود من أجل الأرض فقط لا من أجل الدين). وقال القرضاوي إن قول القرآن: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا} كان بالنسبة للوضع الذي كان أيام الرسول وليس الآن. وفي الشرق الإسلامي يدعو القرضاوي اللـه في خطبة الجمعة في جامع في الدوحة إلى محق اليهود وسحقهم كدين مخالف، كما ذكرنا سابقا

-17-

ليس غريبا على الإطلاق تغير المواقف السياسية وتبدلها.
فالسياسة متحركة ومتقلبة دائما، وليست هناك سياسة ثابتة بقدر ما هنالك مصالح دائمة. ولكن الخطأ الأكبر الذي يقع فيه الشيخ القرضاوي الذي يعد الآن أكبر زعيم ديني سياسي يسعى لإقامة (دولة دينية)، بينما حركة الإخوان المسلمين التي ينتمي إليها القرضاوي، وهو مرجعها الفقهي الأعلى، قد تخلت عن مبدأ إقامة (دولة دينية)، وهي تطالب الآن بإقامة (دولة مدنية). وهي دعوة جديدة من باب تغيير الجلود والعهود، وتعد من المتغيرات الجوهرية التي طرأت على فكر الإخوان السياسي البراجماتي، الذي حول الإخوان الآن من حزب ديني إلى حزب سياسي في الواقع، لا علاقة له بالدين إلا الاسم فقط. وقد تجلى هذا في التخلي عن (الدولة الدينية)والمطالبة بقيام (دولة مدنية)، التي نادى بها المصلح الديني الليبرالي الشيخ خالد محمد خالد في بداية الخمسينات في كتابه المدوي (من هنا نبدأ)، ورفض الإخوان دعوته، ورد عليه الشيخ محمد الغزالي الإخواني، باسم الإخوان في كتابه (من هنا نعلم). وهكذا تقترب جماعة الإخوان من الأحزاب الغربية المسيحية الاشتراكية والديمقراطية المدنية في أوروبا كحزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي الألماني، والحزب

الديمقراطي المسيحي الهولندي، والحزب الديمقراطي المسيحي بسويسرا وغيرها، التي تأخذ من الدين اسمه لا فعله، حيث لا فعل سياسيا في الدين.

وفي هذا الخصوص، فقد أصدر عبد المنعم أبو الفتوح، عضو مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين في مصر، وثيقة بعنوان (المفهوم الإسلامي للإصلاح الشامل)تحمل مؤشرات على تطور رؤية جديدة من داخل التيار الإسلاموي تتحدث عن (الدولة المدنية)باعتبارها بدهية، لا بديل عنها لتحقيق المواطنة الحقة.

وفي رؤية أبي الفتوح التي وزعها على هامش (مؤتمر أولويات وآليات الإصلاح في العالم العربي)الذي عقد بالقاهرة في 2004/7/5، يؤكد أبو الفتوح أن (الخطاب الإصلاحي الإسلامي بشكل عام هو خطاب بشري). وتلك حقيقة جديدة ومهمة وثورية، يعترف بها الإخوان لأول مرة منذ 1928.

إلا أن القرضاوي، على ما يبدو، يسير في خط مخالف لجماعة الإخوان، وهو مرجعيتهم الفقهية العليا. ولكنه يريد أن يصبح زعيما دينيا سياسيا بصوته، لا بصوت الإخوان، بدلالة رفضه لأن يكون مرشدهم بعد رحيل الهضيبي أخيرا وهو لا يعلم، أو يعلم ولكنه يخفي، أن الاستراتيجية الجديدة للحركات الإسلاموية تتسم بالذرائعية وبسياسة المراحل ،كما قال عالم الاجتماع التونسي عبد القادر الزغال. فما زال القرضاوي يستخدم الدين في تمرير مختلف المواقف السياسية وتبريرها، ويلعب ببيضة السياسة الهشة وبحجر الدين الصلب، ولكنه لا يصيب شيئا فليس في الدين ما يفيد السياسة الآن، كما أدركت واقتنعت مؤخرا جماعة الإخوان من خلال ما قاله أبو الفتوح. وإن كان في الدين ما يفيد السياسة فهو يفيد السياسة التي انتهجها الرسول أيام كان يسعى لإقامة دولة دينية سياسية عظمى، وقد نجح في ذلك. إلا أن مقاييس

السياسة السائدة قبل أربعة عشر قرنا لم تعد سائدة الآن. بل إن الأبناء الذين يرثون الحكم والسياسة عن آبائهم الآن، لا يطبقون سياسة الآباء، فما بالك بتطبيقات وقعت قبل أكثر من 1400 سنة؟

-18-

كنا وما زلنا ندعو رجال الدين، ومنهم الشيخ القرضاوي، إلى عدم اقحام الدين في السياسة، وإلى عدم العمل في السياسة الدنسة، وأخذ الدين المطهر، بعيدا عن دنس السياسة وأوحالها، وعدم استعمال الدين مطية لركوب المراكب السياسية كما يفعل القرضاوي الآن، وضرورة أن ندع السياسة للسياسيين وليس لرجال الدين، الذين هيمنوا على الساحة السياسية العربية وهي الآن في أحط مستوياتها، وهي دعوة ليست بجديدة. ذلك أن هناك فروقا كثيرة بين منطلقات السياسي العلماني، ومنطلقات رجل الدين السياسي منها:

1- أن السياسي العلماني ينطلق من أن كل شيء يتغير. بينما ينطلق رجل الدين السياسي من أن كل شيء ثابت ونهائي ومطلق. فالعداء ضد الآخر الذي كان سائدا - مثالا لا حصرا - في زمن الرسول ضد فئات معينة وطوائف معينة هو الذي يجب أن يسود الآن، وفي المستقبل كذلك.

2- أن السياسي العلماني يعلن عن نفسه صراحة بأنه برجماتي، وأنه يكذب أحيانا ويراوغ ويتلون ويغير مواقفه، في حين أن رجل الدين السياسي يدعي الكمال والصدق المطلق والثبات، وهو في حقيقة الأمر يكذب ويراوغ كثيرا، لأنه يعمل في مجال مراوغ ومتحرك، وهو السياسة.

3- أن السياسي العلماني يبدأ سياسيا وينتهي سياسيا أما رجل الدين السياسي فيبدأ درويشا وينتهي مطالبا بكرسي الحكم، كما بدأ حسن

البنا ذلك، وكما يسعى الإخوان المسلمون إلى ذلك الآن، فقد بدأوا هداة وانتهوا قضاة في حين قال لهم مرشدهم حسن الهضيبي ذات مرة، وفي لحظة من الصفاء والصدق السياسي والديني: كونوا هداة لا قضاة!

4- يحكم السياسي العلماني من خلال الحاضر وتصورات المستقبل، بينما يحكم رجل الدين السياسي من خلال الماضي فقط (حالة الملالي في إيران الآن). فإذا أردنا الصلح مع اليهود وخشينا ذلك، أذكرنا بـ (صلح الحديبية)مثلا وإذا أردنا تولية امرأة منصبا رفيعا في الدولة، أذكرنا بقول الرسول: (لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) .. الخ.

5- وكما لا يمكن أسلمة العلوم التي تأتي كل يوم باكتشافات جديدة بينما علوم الدين ثابتة، كذلك لا يمكن أسلمة السياسة التي تأتي هي الأخرى في كل يوم بمفاهيم ومبادئ جديدة. وكما حاول بعض المتأسلمين في الماضي إثبات أن الدخان النووي وانشطار الذرة وغير ذلك من الحقائق العلمية قد جاء ذكرها في القرآن، فالقرضاوي اليوم يحاول أن يثبت أن الديمقراطية هي من لحم ودمه الإسلام، والإسلام منها براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب. فكما لا يوجد إعجاز علمي في القرآن، كذلك لا يوجد إعجاز سياسي أيضا

6- إن الصخب الإسلاموي العالي الآن في العالم العربي، من قبل رجال الدين السياسيين كالقرضاوي والترابي والغنوشي والصدر ونصر الـلـه وغيرهم، والمصاحب لهذا الهوس الديني السائد لاسترجاع الخلافة الإسلامية التي ألغاها أتاتورك 1924 قد أساء إلى الدين والسياسة معا، وسوف ينعكس مستقبلا على مستقبل السياسة العربية التي يجب أن لا تقوم على المسلمات العامة المسبقة الصنع، والتي لا نقاش فيها، ولا تبديل لكلماتها، والتي ينادي بها الدين.

7- إن السياسة كالعلم، شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، وهي نظام

معرفي تاريخي تتحقق صحتها من خلال التجربة والممارسة على أرض الواقع. وهذا ما يأخذ به السياسي العلماني. أما رجل الدين السياسي فلا يأخذ بالعلاقات السببية وضرورة اكتشافها لكي يصل إلى صياغة قوانين أساسية وعميقة. فهو يملك قوانين ونظما جاهزة مسبقا منذ 51 قرنا، وليست بحاجة إلى البحث والتجربة والممارسة والاكتشاف.

8- وأخيرا، هناك علاقة طردية بين رجل السياسة العلماني وبين رجل الدين السياسي. فكلما تدنى مستوى الأمم السياسي وانحط اختفى رجل السياسة العلماني، وحل محله رجل الدين السياسي. وهذا ما كان سائدا في أوروبا في العصور الوسطى المظلمة، ولكنه اختفى مع بدء عصور التنوير، واختفى تماما الآن من الغرب كله، والبابا لا يملك الآن إلا البركات. ورجال الدين من السياسيين، تصدروا المجالس والمنابر، وارتفعت أصواتهم في أوقات انحطاط الأمم، وانحطاط المستوى السياسي والثقافة السياسية والوعي السياسي لدى الحاكم والمحكوم من العرب الآن. وهذا ما نراه الآن في العالم العربي، حيث ترتفع أصوات رجال الدين السياسيين أعلى بكثير من رجال السياسة العلمانيين المفتقدين الآن في العالم العربي، والذين تركوا الساحة خالية لفرسان الدين القادمين على خيولهم وجمالهم، تحت رايات خضراء وسوداء وبيضاء وصفراء.

أسئلة الحمقى(*)

(*) هذه مجموعة من الأسئلة عن الحال العربي، طرحها عدد من الأصدقاء في أوقات مختلفة، ونشرت في وسائل إعلامية متعددة.

* هل يحتمل أن يؤدي تطبيق الديمقراطية في بيئات غير ديموقراطية لوصول تيارات سياسية متطرفة للحكم أم لا؟ وهل يقتضي الإيمان بالديمقراطية التسليم بذلك؟ وهل صحيح أن ليس أمام مصر إلا نموذجين: الأول النموذج الغربي، والثاني النموذج الآسيوي ؟ وهل تعتقد أن العلمانية والديمقراطية هما الحل في الحال العربي؟ وهل تصلح الديمقراطية بدون علمانية أو العكس ؟

وما هو تقويمك للفكر العلماني المطروح الآن في العالم العربي؟

ـ لا توجد هناك بيئات غير ديمقراطية. فكما أن الأرض كل الأرض تنبت البذور، فكذلك الشعوب؟ الإنسان بطبعه يحب العدل وهو يحب الديمقراطية. الديمقراطية معناها العدل في كل الموازين. الديمقراطية في الشعوب كما هي البذور في باطن الأرض، بذور يابسة بحاجة إلى الماء، والنور لكي تنبت، كذلك هي الديمقراطية. بذور الديمقراطية موجودة في داخل الشعوب، والماء والنور اللازمان لها هما النظام السياسي الواعي والتربية والتعليم المتقدم. الديمقراطية ليست كالدين. الدين إيمان مطلق. الديمقراطية ليست إيمانا بقدر ما هي عمل مستمر يتطور ويتبدل حسب الظروف. كلنا في العالم العربي نؤمن بالديمقراطية، ولكن ما فائدة ذاك دون العمل على تحقيقها. هناك عدة نماذج للديمقراطية في العالم ربما تصلح لنا وربما لا تصلح. كل أرض تنبت بذورها. كل شعب يبني ديمقراطية مميزة به وبتاريخه وبعادته وبتراثه. ليس هناك من زي واحد للديمقراطية تلبسه كل الشعوب. نعم الزي من القماش لكل الشعوب وهذا هو الأساس، ولكن بألوان مختلفة وبتصاميم مختلفة، حسب موقع الشعوب وطقسها وتراثها وتقاليدها وإرثها السياسي. العلمانية والديمقراطية من الأدوات المهمة للتقدم الحضاري. لا ديمقراطية دون علمانية. إن الديمقراطية تقود دائما إلى العلمانية، في حين أن العلمانية لا تقود دائما إلى الديمقراطية (مثال مصر والجزائر). والعلمانية تبدأ بالديكتاتورية وتنتهي بالديمقراطية

(مثال تركيا وفرنسا). والعلمانية الآن في العالم العربي ديكتاتورية لأنها أولية، ولم تصل بعد إلى الديمقراطية. الفكر العلماني العربي الآن في تقدم مستمر، لأن بذور العلمانية في الاقتصاد والاجتماع وجزئيا في السياسة بدأت تنبت وتتفتح. والعالم العربي أصبح أقرب إلى العلمانية بكثير منه إلى الديمقراطية، والسبب هو حاجة الدولة العربية للعلمانية لكي تبقى ولكي لا تسيطر عليها المؤسسات الدينية وتصبح الدولة العربية دولة دينية؛ أي دولة (ملالي) كما هو الحال في إيران. نعم أتفق معك في أن سيكولوجية الطغاة والعبيد هي سيكولوجية الإنسان المتخلف الذي أنتجه القهر، وأن ما يمارسه الطاغي مجرد أساليب دفاعية للعقد النفسية داخله، وأن ما يستحمله العبيد هو نتيجة خوفهم من عدم وجود السلطان الطاغي، فالعبيد لا بد لهم أن يضربوا بالسياط. نعم المجتمع العربي يعاني من الجروح النرجسية الكثيرة. فخير أمة للناس أصبحت الآن في قاع العالم، ولا يتفوق عليها غير سكان صحراء جنوب أفريقيا، كما قال تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة 2002. ومن الممكن أن نخرج من أزمة الثقافة العربية، فيما لو أعدنا النظر بشكل شامل في مناهجنا الدراسية وألغينا نظام التلقين والتحفيظ، واعتمدنا أسلوب التفكير والاستنباط.

* لا زلت أتابع مساهماتك القيمة حول الشأن العراقي. اسمح لي بمعرفة وجهة نظرك فيما يلي:

هل الصراع الراهن بين أطراف النخبة السياسية العراقية هو امتداد تاريخي للصراع بين دولة الخروف الأسود (البويهية) ودولة الخروف الأبيض(السلجوقية)؟

- كل دولة ديمقراطية في العالم فيها نوع من أنواع الصراع ما عدا الدول الشمولية الديكتاتورية. الدول الشمولية الديكتاتورية هي الدول التي ينتفي منها الصراع بين الخرفان السود والخرفان البيض على حد

تعبيرك. العراق الآن دولة على درب الديمقراطية الصحيحة. وقد كانت قبل 1958 سائرة على درب الديمقراطية المنقوصة لكي تصل إلى الديمقراطية الصحيحة. ولكن سبق سيف الإنقلابيين عذل الديمقراطيين.

الصراع بين أطراف النخبة العراقية هو من نوع (الصراع الديمقراطي المحمود)، وليس من نوع الصراع القاتل. هو صراع الحياة مع الحياة من أجل حياة أفضل. هو صراع الأحياء مع الأحياء، وليس صراع الأحياء مع الأموات الذي عادة ما يكون من طرف واحد كما في الدول الشمولية الديكتاتورية الأخرى، وكما كان عليه الحال في عهد صدام المنهار. الصراع الحالي في العراق ليس امتدادا لأي صراع تاريخي، لماذا؟ لأن كل مرحلة تاريخية تفرز صراعها الخاص بها. المرحلة العراقية الحالية مرحلة خاصة متميزة تختلف عن كل المراحل التاريخية السابقة التي مر بها العراق، لذا، فصراعها مختلف بالطبع. ولكنه ليس صراعا من أجل حياة فريق وموت فريق آخر، ولكنه من أجل حياة الفريقين المتصارعين المتخاصمين بشكل أفضل وأحسن.

* إلى أي مدى يمكن للتحالف الراهن بين الملالي وشيوخ العشائر- إقطاع ما قبل 1958- أن يعيق بناء العراق الحديث؟ هذه الأسئلة من الصعب ان يتعامل معها رجل اقتصاد مثلي. لذا أتركها لك؟

- إن أسوأ تحالف يمكن أن يتم، لا في العراق وحده، ولكن في أية بقعة في العالم العربي، هو التحالف الذي يتم بين رجال الدين وبين زعماء العشائر، وكلا الطرفين غير مؤهلين للعب أي دور سياسي، بسبب اتخاذهما للسياسة كمجال إما للكسب المادي، حيث يعد زعماء العشائر أن انخراطهم في العمل السياسي هو البديل عن الغزو والإغارة، التي كانت تتم في الماضي لكسب المال وأرض الماء والكلأ. وبالنسبة لرجال الدين، فالسياسة هي الوسيلة للوصول إلى كرسي الحكم أو الاحتفاظ

باللعبة السياسية بين أيديهم. ولو ظلت أوروبا مرتهنة لحكم رجال الدين، كما هو الحال في العالم العربي، لظلت تعيش حتى الآن في ظلام العصور الوسطى كما نعيش نحن الآن.

* كيف تبرر غزو العراق، وهل لأميركا الحق في التدخل في الشؤون الداخلية للعالم العربي من خلال (مشروع الشرق الأوسط الكبير)؟
- أنا لست عرابا لمشروع (الشرق الأوسط الجديد). صحيح أنني من أكثر الكتاب العرب اهتماما وكتابة حول هذا المشروع وأنوي أن اتابع ذلك. وربما انتهيت بكتاب كامل عن مشروع (الشرق الأوسط الكبير) تحت هذا العنوان. ولعل مصدر اهتمامي بهذا المشروع أنه يمثل حقيقة المستقبل، مستقبل العالم العربي والعالم الإسلامي فيما يعرف الآن بمشروع (الشرق الأوسط الكبير). وأنا أكتب للحاضر والمستقبل ولا أهتم بالماضي كثيرا إلا من أجل خدمة قضايا الحاضر والمستقبل . وبعيدا عن اللغط الحاصل بخصوص أسلحة الدمار الشامل، فمما لا شك فيه بأن التحالف قد جاء إلى العراق لاقتلاع صدام حسين منه. فقد توصلت أميركا إلى قناعة نهائية، وهي أن الشعوب العربية غير قادرة إطلاقا على تغيير أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية دون مساعدة خارجية. والمساعدة الخارجية في هذه الحالة مبررة في نطاق تقاطع المصالح الدولية وتقاطع المصالح بين الشرق الأوسط الصغير أو الكبير مع مصالح الغرب ومع أميركا على وجه الخصوص. فقد رفض عمر بن الخطاب غزو الحبشة واعتبرها بلدا صديقا لتقاطع المصالح بين المسلمين والمسيحيين آنذاك. وتحالف هارون الرشيد مع شارلمان ضد الحكام الأمويين في الأندلس المسلمة، لتقاطع المصالح بين العباسيين وبين الغربيين. واعتبر سليمان القانوني الخليفة والسلطان العثماني، أن فرنسا دار صلاح، وليست دار حرب، لتقاطع المصالح بين المسلمين في الإمبراطورية العثمانية وبين

المسيحيين في فرنسا. إذن، غزو العراق كان مبررا حماية للشعب العراقي وفي الوقت نفسه حماية للشعب الأميركي ومصالحه المتقاطعة مع مصالح الشعب العراقي. وسوف يكون عليه الحال أيضا في الشرق الأوسط الكبير والصغير.

* أغلب القراء وخاصة العراقيين يعتقدون بأنك عراقي الأصل؟
- شكرا للإخوة العراقيين الذين يعتقدون بأنني عراقي، وهذا شرف أفخر به. إن العراق في قلبي وفي عقلي كما هو في قلب وعقل كل مثقف عربي حر. وأنا لم أزر العراق قط. وآمل أن أفعل قريبا

* قرأت لك معظم ما كتبته عن مستقبل الديمقراطية في العالم العربي بعد سقوط الديكتاتورية العراقية. ويبدو أنك متفائل جدا وتثق بأميركا، ولكن ألا ترى مع كثيرين يرون في العالم العربي أن أميركا هي التي دعمت الديكتاتوريات العربية والآن تأتي لكي تزيلها واحدة بعد الأخرى. فما الذي جرى، وكيف نثق بالدولة التي دعمت الديكتاتوريات بالأمس وتريد أن تدعم الديمقراطية اليوم؟
- هذا سؤال من أهم الأسئلة التي طرحت علي، وإجابته إجابة مهمة أيضا، تزيل الغشاء عن العيون، وتكشف المستور والمسكوت عنه.
عندما دعمت أميركا بعض النظم السياسية في العالم العربي، وهي نظم لم تكن ديكتاتورية بقدر ما كانت نظما محافظة كنظم الحكم في الخليج وفي الأردن وفي المغرب وتونس، كانت أميركا في تلك الأثناء تخوض حربا باردة مع الاتحاد السوفياتي، وكان عليها أن تقف إلى جانب الدول التي لا يساندها الاتحاد السوفياتي، بل هي تعاديه وهو يعاديها، لكي تحافظ على موازين القوى في المنطقة. أما وقد انتهت الحرب الباردة، فقد تغيرت الموازين والمكاييل والمواقف كما نرى الآن. فلا أصدقاء دائمين

في السياسة، ولكن هناك تبادل مصالح.
ولكن، لماذا نسأل دائما عن دعم أميركا للنظم العربية الديكتاتورية، ولا نسأل أنفسنا عن دعم الاتحاد السوفياتي الحقيقي والقوي لبعض الدول في العالم العربي، منذ العام 1960- - 1990. فالاتحاد السوفياتي، رافع علم الحرية والثورة والاشتراكية والعدالة الاجتماعية، إلى آخر هذه القائمة من الشعارات الطنانة، كان هو الذي يدعم النظم الديكتاتورية العسكرية وغير العسكرية المستبدة في العالم العربي. فهو الذي دعم نظام عبد الناصر في مصر، وصدام حسين في العراق، ونظام حافظ الأسد في سوريا، ونظام هواري بومدين في الجزائر، ونظام القذافي في ليبيا، والنظام السياسي في جنوب اليمن.
لقد أساء الاتحاد السوفياتي إلى الشعب العربي بدعمه للنظم الديكتاتورية العربية الجائرة أكثر مما أساءت أميركا ذات (الريشة الحمراء) في دعمها للنظم المحافظة. فالنظم المحافظة التي دعمتها أميركا لحفظ توازن القوى في المنطقة لم تقتل ولم تعلق المشانق للمعارضة كما فعل عبد الناصر. ولم تسجن المعارضة عشرات السنين وحتى الموت كما فعلت النظم السياسية في والجزائر وليبيا، ولم تقتل المعارضة وتدفنها في مقابر جماعية كما حصل في العراق. ولو أن الاتحاد السوفياتي ما زال قائما حتى الآن، لما تخلت أميركا عن أصدقاء الأمس من النظم العربية المحافظة وذلك حفظا لميزان القوى في المنطقة. فسبحان مغير الأحوال. ورب ضارة نافعة.

* قلت إن أميركا هي ليل ونهار العرب، لماذا؟ ولماذا انتشرت الثقافة الأميركية في العالم العربي؟ هل لأنها قوية أم لأن الثقافة العربية ضعيفة؟ وأظن أنه ليس عيبا أن نعترف أن ثقافتنا ثقافة مريضة ممتلئة غشا وخداعا وعدم احترام للخصوصية، وفي هذه الحالة ليس عيبا

أيضا أن نأخذ ثقافة الآخر الأميركي ما دامت ثقافته تتماشى مع العصر، بل من الضروري أن نتنازل عن ثقافتنا مقابل الثقافات الاخرى؟

- الثقافة الأميركية لم تنتشر في العالم العربي بحد السيف، كما تم نشر ثقافات أخرى عبر التاريخ. الثقافة الأميركية انتشرت في العالم كله، وأصبحت ثقافة عالمية تنتشر بذاتها وبحب الناس لها. أميركا لم تستخدم أساطيلها وبارجاتها وجيشها لنشر ثقافتها. العالم هو الذي يقبل على الثقافة الأميركية ويلاحقها. أميركا مقصرة جدا بحق ثقافتها من حيث عدم بذل مجهود كبير لنشرها. قوة الثقافة الأميركية وصدقيتها تجعلها ذات دفع ذاتي وقوة ذاتية. ولكنا لا ننكر أن الثقافة العربية ثقافة هشة، بحيث أن أية ثقافة تتمكن من غزوها ودحرها. ألم تتمكن الثقافتان البريطانية والفرنسية من السيطرة على العالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين؟ وألم تتمكن الثقافة العثمانية طيلة خمسة قرون (1518-1918) من السيطرة على الثقافة العربية وإحلال الثقافة التركية محلها، والتي ما زلنا نعيش إلى الآن على مفردات لغتها، ونسمي أكثر من سبعين بالمائة من أسمائنا بأسماء تركية (ثروت، بهجت، حلمي، أنور، رفعت، مجدي، مدحت، عصمت، خلوصي، حكمت، فهمي، شوكت، إحسان، الخ). نعم ثقافتنا هشة، لأنها تعتمد في معظمها على اجترار الماضي، وعلى الثابت لا المتحول، وعلى الاتباع لا الابتداع.

* هل أنت أيضا صناعة غربية كما قلت عن إدوارد سعيد والعفيف الأخضر ومحمد أركون وجورج طرابيشي، وهل آراؤكم نتيجة للثقافة الغربية والحرية الغربية والديمقراطية الغربية، وهل يحن الدم القومي العربي عليك أحيانا؟

- لقد لعبت الثقافة الغربية دورا كبيرا في تكويننا الثقافي. ولولا هذه

الثقافة لكنا الآن في جانب المثقفين الأصوليين، من أمثال الشيخ القرضاوي والغنوشي وحسن الترابي وأنور الجندي وفهمي هويدي وغيرهم. عدم تقدم معظم المثقفين العرب داخل العالم العربي الآن سببه احتجابهم عما يجري في العالم من أفكار جديدة، وتيارات جديدة، وسبل جديدة للتفكير. ما زال معظم المثقفين العرب داخل الوطن العربي يكتبون بطريقة كتاب القرون الوسطى ويفكرون بالطريقة نفسها. لا شك أن وجودنا في الغرب قد لعب دورا في نوعية ثقافتنا وانفتاحنا على آفاق الفكر الإنساني الحديث بكل حرية، كما أن جو الحرية الذي نعيشه في الغرب قد هيأ لنا أن نعبر عن آرائنا بشجاعة نادرة. فنحن نقرأ بحرية ونفكر بحرية ونتحدث بحرية. وهذا هو سر الإقبال على كتاباتنا في العالم العربي على هذا النحو الآن.

* لماذا تكتب؟ أعرف أن هذا السؤال غبي، ولكل سؤال غبي إجابة ذكية مبدعة . وما هي أهداف الرابطة التي ترأسها وهي الرابطة الجامعية الأميركية؟ وما غرض وأهداف كتبكم (الفكر العربي في القرن العشرين 1950- 2000) والمكون من ثلاثة أجزاء ، و(المال والهلال.. المواقع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام)، و(لو لم يظهر الإسلام ما حال العرب الآن)، و(الشارع العربي).
- أكتب لكي أشعر بوجودي وأبرر هذا الوجود. فالمثقف الحقيقي يردد: (أنا أكتب إذن أنا موجود) الكتابة هي مبرر وجود المثقف. لقد نادى المفكر الإيطالي أنطوان غرامشي في كتابه (دفاتر السجن) بأن يكون المثقف مثقفا عضويا؛ بمعنى أن يلتصق بمشكلات مجتمعه ولا يقتصر نشاطه على اجترار الماضي. أنا كاتب مزعج، ومقلق، وسام للبدن، وحارق للدم. ومن يقرأني ينام كل ليلة على الأشواك والمسامير الدقيقة. الكتابة عندي ليست (فصفصة لب) أو (تقشير فستق) من أجل التسلية، ولكنها دق

على رؤوس المسامير الكبيرة، وتمزيق للستائر المخملية السميكة التي تختبئ وراءها الحقيقة، ومن أجل التوعية وإقلاق راحة المتلقي وانتشاله من بحيرة (العسل الأسود) التي يتخيل أنه ينام فيها، ووضعه في بحيرة القاذورات والنفايات الحقيقية التي يعيش فيها حقيقة لكي يشعر بمدى المأساة التي يعانيها. هذه هي مهمة المثقف في العالم العربي وفي العالم الثالث عموما أهداف الرابطة الجامعية الأميركية - وهي حديثة النشأة - هي إقامة جسور التفاهم بين الشرق والغرب، ومحاولة تحويل الصراع بين مثقفي الشرق والغرب إلى تفاهم. أغراض سائر كتبي الأربعين هي إقلاق راحة القارئ أيا كان. كتبي ليست وسادة من ريش النعام لكي ينام عليها القارئ هانئا سعيدا، بينما يترك قفاه مكشوفا إنها كتب من جمر ولهب. كتب للحريق وليست للتدفئة. كتب للتنقيم وليست للتنعيم. كتب تقول للقارئ ما لا يريد أن يسمعه، وما لم يعتد أن يسمعه من الكتاب الذين يأخذونه إلى النبع ويعودون به عطشانا، ويبنون له أبراجا من القش. مهمتي أنا وغيري من المثقفين التنويريين الليبراليين أن نكون مصدر إزعاج للرأي العام العربي. أن نكون مصدر قلق. أن نكون ضد التيار. أن نكون شهود زور - كما يطلق علينا الإعلام العربي - على الحقيقة المزورة في العالم العربي. أن نكون محامين للشيطان.

* أنت مفكر غير مصري، ولكن بالتأكيد يهمك أمر مصر، وهذا ما لاحظته في مقالاتك. فهل من مخرج لدولة كمصر ولشعب كمصر؟

- ربما ستضحكين عندما أقول لك إن مشكلة مصر الأساسية هي في هذا الانفجار السكاني العنيف. بدون تعطيل قنبلة الانفجار السكاني لا يمكن لمصر أن تنهض. لقد صرف على مصر منذ 1979 إلى الآن مقدار ما صرف على إعمار أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ضمن مشروع مارشال.

فماذا حدث لمصر الآن وماذا حدث لأوروبا بهذه المليارات؟ هل تعلمين أن عشرة أغنى دول في العالم لا يوجد بينها دولة يتجاوز عدد سكانها خمسة ملايين نسمة غير سويسرا (7 ملايين) وأميركا (260 مليونا)، وهما دولتان فيدراليتان، وهذا ساعدهما على تلاشي نكبات زيادة السكان. فالزحمة تعيق الحركة كما قال أرسطو منذ آلاف السنين. والإغريق منذ البداية فهموا تماما أن دولة الرفاه هي الدولة الصغيرة. وقد أصدر اقتصاديان أكاديميان أميركيان من جامعة هارفرد وجامعة شيكاغو كتابا بعنوان (حجم الأمم) قالا فيه إن الدول الفقيرة لا خلاص لها من الفقر إلا بأن تكون فقيرة بسكانها، فغناها كامن بفقرها من السكان!
خلاص مصر هو أن تكون دولة لا يتجاوز عدد سكانها عشرة ملايين نسمة حتى يستطيعوا العيش بمستوى دخل سنوي لا يقل عن عشرة آلاف دولار، وليس 980 دولارا فقط كما هو الآن، وكما قال تقرير مجلة (الايكونومست) المفجع لعام 2004. أما مجتمع الأرانب الذي تعيشه مصر الآن، فسوف يؤدي بالمصريين في النهاية إلى كارثة، تصل أن يبلغ دخل الفرد السنوي مائة دولار فقط. فمصر تتكاثر بسرعة أكثر من تكاثر سيقان العشب.

* قلت لماذا، لماذا، وسألت بعض الأسئلة كلها، بادئة بلماذا أصبحنا لا نهتدي إلا بالعصا؟ أرجو منك توضيحا لماذا نحن كذلك: هل التربية والتعود والنرجسية والتعصب والجهل والفساد والقدرية والتفكير الديني الرجعي أم ماذا، وما هو السبب الجوهري الواقف وراء كل هذا ؟
- لا شك أن التربية والتعود والنرجسية والتعصب والجهل والفساد والقدرية والتفكير الديني الرجعي هو وراء أننا أصبحنا لا نهتدي إلا بالعصا، وبالعصا الغليظة أيضا فمنذ زمن ونحن نطالب بإعادة النظر في

مناهج التعليم العربي، ولا من مجيب إلا عندما رفعت العصا. ومنذ زمن ونحن نطالب بنـزع أسلحة الدمار الشامل، ولا من مجيب إلا عندما رفعت العصا الأميركية في وجوهنا. ومنذ زمن ونحن نطالب بإجراء الانتخابات النيابية، ولا من مجيب إلا عندما رفعت العصا الأميركية في وجوهنا. ومنذ زمن ونحن نطالب بالإصلاح السياسي، ولا من مجيب إلا عندما رفعت العصا الأميركية في وجوهنا.

ومنذ زمن ونحن نطالب بإعطاء المرأة في دول الخليج خاصة حقوقها ومساواتها بالرجل، فلم تستجب بعض دول الخليج لجزء من هذه المطالب إلا عندما رفعت العصا الأميركية في وجوهنا.

ومنذ زمن ونحن نطالب بالإطاحة بالديكتاتورية العربية، ولا من مجيب إلا عندما رفعت العصا الأميركية في وجوهنا.

والسبب الجوهري الواقف وراء كل ذلك هو تراثنا. نحن أكثر شعوب العالم تمسكا بأهداب التراث بكل سيئاته وحسناته. كان علينا أن نبدأ بفرز حسنات التراث عن سيئاته منذ زمن طويل، لكي نأخذ منه ما يفيد ونستبعد ما يضر، أو ما هو غير صالح لنا الآن، ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين. ولكننا لم نفعل ذلك. وأصبحنا نتخبط في أي الطرق نسلك. فنحن نجهل إلى الآن ماذا نريد، وماذا نستطيع تحقيقه، وما هي الطريق التي علينا أن نسلكها؟ نحن أمة ضلت الطريق، وهي تهيم على وجهها في الصحراء، وفي الخرافة، وفي الشعوذة، وفي معابد الماضي، ذات الهواء الرطب الفاسد.

* كيف ترى المشروع الناصري وكيف تتمثله، وما هي الأسباب التي أدت في رأيك إلى إخفاق ذلك المشروع؟

- المشروع الناصري كان مشروعا عاطفيا خالصا لا أثر فيه للعقلانية والواقعية السياسية. وأعني بالواقعية السياسية هنا أن يكون أي مشروع

وطني يحمل من الواقعية مقدارا يؤهله لأن يكون صالحا للتطبيق في ظل ظروف الدولة والوطن، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كما أن الواقعية السياسية تعني أن يلبي الحاكم ما يحتاج الشعب لا ما يريد الجمهور. ولقد كان عبد الناصر يلبي ما يريد الجمهور (نزولا عند إرادة الجماهير) لا ما يحتاجه الشعب، وتلك هي الرومانسية السياسية لا الواقعية السياسية التي (طب) فيها عبد الناصر نتيجة لانسياقه الدائم لمطالب الجماهير الغوغاء وصيحاتها الهوجاء. فقد كان يلبي مطالبها في الشارع ولا يستمع إلى كلام حكمائها في المجالس، حيث لم يكن يجالس حكماء الأمة. المشروع الناصري كذلك وهو تأميم قناة السويس، كان مشروعا عاطفيا غير مدروس سياسيا واقتصاديا، جر على مصر كوارث كثيرة وأهمها الكوارث البشرية والاقتصادية، حيث خسرت مصر من جراء ذلك أكثر مما استفادت من تأميم قناة السويس لعدة سنوات قادمة. وكان يمكن أن تسترد قناة السويس دون خسارة مليم واحد أو قطرة دم واحدة، عندما تنتهي مدة امتياز شركة القناة لصالح المستثمرين الأجانب في عام 1968، ولكانت مصر والعرب قد تحاشوا هزيمة 1967. ونحن لا نعرف مقدار خسارة مصر من جراء قرار عبد الناصر الجماهيري حتى الآن بالضبط. وحسنين هيكل، الذي يحمل أختام المعبد الناصري وأسراره، وكبير كهنة هذا المعبد، ومالك تاريخ هذا المعبد ووثائقه لم يخبرنا بعد. أما وأنه قد اعتزل الكتابة والإخبار، فنحن بانتظار رحيله - بعد عمر طويل - لكي يتم الكشف عن الجانب الغامض من حرب السويس. هذا واحد من قرارات عبد الناصر العاطفية وأحد أركان مشروعه القومي الكبير.

القرار الثاني، كان قرار التدخل في اليمن، وإرسال ثمانين ألف جندي مصري إلى هناك، والدخول في حرب مع رجال القبائل في شعاب اليمن ووديانها، والحرب مع السعودية، مما أجهز على البقية الباقية من الاقتصاد المصري، وكان سببا من الأسباب الرئيسية في هزيمة 1967.

والقرار الثالث، الذي قتل عبد الناصر سياسيا وأنهى أسطورته القومية والوطنية كان حرب 1967. هذه هي أبرز ملامح المشروع الناصري السياسي العاطفي الرومانسي.

أما الأسباب التي أدت إلى إخفاق هذه المشروع فهي كثيرة منها:

1- عدم تطبيق الاستحقاقات الديمقراطية، والتي تجلت في امتلاك وسائل الرأي العام من صحافة وإذاعة وتلفزيون وغير ذلك. ومنع قيام الأحزاب السياسية وأحزاب المعارضة والتنكيل بقادتها وعناصرها.

2- حكم مصر حكما فرديا مطلقا، مما جعل المشروع السياسي هو القائد والقائد هو المشروع السياسي. والدليل على ذلك أن القائد عندما رحل واختفى، رحل واختفى معه المشروع السياسي الذي كان متعلقا به هو شخصيا، وليس بالأمة أو الوطن، وجاء مشروع مخالف له وهو مشروع السادات والحرب من أجل السلام.

3- الاحتكام إلى الغوغاء (الجماهير الغفيرة) في أخطر المشاريع السياسية، كإرسال الجيش المصري إلى اليمن. وعدم الاحتكام إلى (الشعب) وحكمائه وممثليه الحقيقيين في البرلمان أو مجلس الشعب.

4- الاعتماد على العاطفة الجماهيرية، وليس على عقل الشعب في اتخاذ القرارات السياسية.

5-إعطاء الجماهير ما تريد لا ما تحتاج، واتخاذ قرار الشارع .

6- اتخاذ القرار السياسي من أجل حماية النظام وليس من أجل حماية الوطن. فالنظام كان دائما في مقدمة الأولويات.

7- الاحتكام في الصراع العربي - الإسرائيلي إلى شعار أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، في الوقت الذي كانت فيه الأمة لا تملك أي نوع من القوة العسكرية أو المالية أو الثقافية حتى تستطيع أن تسترد بالقوة ما أخذ بالقوة، على حد قول الشعار المعروف الذي رفعه عبد الناصر في مؤتمر الخرطوم بعد هزيمة 1967.

* أدت الاعتداءات الإرهابية للحادي عشر من سبتمبر 2001 إلى ترسيخ الصورة النمطية السلبية التي كونها الغرب عن الإنسان العربي، وهي الصورة التي لا تخرج عن نطاق الإرهابي والمتعصب دينيا والمتخلف... أي صورة الإنسان غير المتحضر. ما هي في نظركم الأسباب التي أدت إلى نشوء هذه الصورة النمطية الجامدة لدى الغرب عن الإنسان العربي؟

- هناك عدة أسباب لهذا الوجه العربي (القبيح)في المرآة الغربية، منها:

1- أن الانسان العربي منذ أكثر من عشرة قرون، وبالتحديد منذ القرن التاسع الميلادي وبعد عهد الخليفة المأمون، لم يقدم للإنسانية فكرا أو علما أو ثقافة إنسانية ذات قيمة. وظلت الثقافة العربية منذ ذلك التاريخ وحتى الآن ثقافة انغلاقية محكومة حكما صارما بتراث الأموات وبالأوهام والخيالات الشعبية.

2- أصبحت الثقافة العربية الآن، هي ثقافة العنف والإرهاب. وهذه الثقافة لم تأت من أحد ولم تنـزل من السماء، بقدر ما جاءت من داخلنا ومن ماضينا الممتد في حاضرنا، ومن انتصار الاتباع على الإبداع، وانتصار الرواية على الدراية في تراثنا الأدبي والفقهي، وانتصار جهاد الآخر على جهاد النفس العدوانية، وهو أجمل أنواع الجهاد. لقد جاءتنا هذه الثقافة العنيفة التي تقطر دما من تقاليد الحروب والمشاحنات القبلية والطائفية وبطش السلطات الغاشمة قديما وحديثا جاءتنا من ردود فعلنا الهاذية على إحباطاتنا الفردية والجمعية ومن جروحنا النرجسية، سواء منها المنحدرة من هزائمنا أمام الغرب وإسرائيل أو الآتية من تربية أسرية قاسية، كما سبق وقال العفيف الأخضر. والذي زاد من ضراوة هذه العوامل التراكمية عدم وجود قطيعة ديمقراطية فيها تؤسس لثقافة جديدة قوامها الحوار

والسلام مثلما حصل في اليابان.
3- غياب القطيعة الديمقراطية لعوامل العنف الدموي التراكمية جعل صداماتنا تتحالف مع موروثنا الثقافي، لصياغة شخصيتنا النفسية صياغة ثأرية، حولت أخذ الثأر في سلمنا القيمي إلى قيمة اجتماعية، والتسامح والغفران والجنوح إلى السلم إلى وصمة عار وجبن وخيانة، والانفتاح على العالم؛ أي على استثماراته وقيمه، تفريطا في الهوية واقترافا لـ (أم الجرائم)وهي التبعية للغرب.

* ما هي في نظركم أنجع الوسائل التي تمكننا من تغيير الصورة السلبية للإنسان العربي لدى الغرب؟
- أن يتغير الإنسان العربي وتتغير الأمة العربية. إن التغيير في الحياة العامة من نظم وقوانين ونواميس لن يتم إلا إذا غير الإنسان قناعاته وأفكاره ومنهاج حياته. والقرآن قال: {إن اللـه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} (سورة الرعد، آية 11) وكذلك: {ذلك بأن اللـه لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} (سورة الأنفال، آية 35). وهما الآيتان اللتان لقيتا صداهما في الفكر الغربي، وأيدهما كثير من فلاسفة الغرب وحكمائه. فقال ألفن توفلر: (مسؤولية التغيير تقع علينا). وقال جيم ولز: (العالم لن يتغير ما لم نتغير نحن). وقال أوسكار وايلد: (إن الذي يغير العصر هو نحن وليست المبادئ). وقال لودفيج وتنجتشاين: (إن أهم ما في التغيير هو تغيير سلوكياتنا). وقال هنري ثورو: (الأشياء حولنا لا تتغير، نحن الذين نتغير).
ويجب أن نلاحظ أن هناك تغييرين: التغيير الأصغر والتغيير الأكبر. التغيير الأصغر يبدأ حين تبدأ تزكية النفس البشرية؛ أي تطهيرها بالإيمان وهذا هو التغيير الأصغر. وعندما تتطهر النفس تصبح قابلة للتغيير الأكبر وهو تغيير المجتمع كله. يقول القرآن: {قد أفلح من زكاها} (سورة

الشمس، آية 9). ويقول: {قد أفلح من تزكى} (سورة الأعلى، آية 14). والفلاح هنا هو نجاح قيام التغيير الأكبر الذي يتبع التغيير الأصغر، وهو التزكية. والقرآن يوجه كلماته إلى فرعون الذي طغى ورفض دعوة التغيير ويخاطبه بقوله: {هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى} (سورة النازعات، آية 18، 19).

وهذا يعني أن لا مجال لأن يغير فرعون واقعه السيئ ويهتدي إلا إذا بدأ بنفسه فزكاها، وهذا هو التغيير الأصغر لكي ينتقل إلى التغيير الأكبر، وهو تغيير واقع مجتمعه السيئ.

ويجب أن ننتبه إلى أن التغيير على الأرض هو من صنع الإنسان بالدرجة الأولى، وأن دور الـلـه في صنع التاريخ يأتي بعد دور الإنسان، {ذلك بأن الـلـه لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}.

إن التغيير هو طريق الرشد الذي نادى به الإسلام. والرشد خلاف الغي؛ أي الاستقامة على طريق الحق. وهو هداية تغيير اليقينات السابقة. والإسلام أراد أن يقيم الرشد بالرشد؛ أي أن يحدث التغيير السلمي العقلاني بالفكر والخطاب. لذا، فقد ركز الإسلام على كلمة الرشد وذكرها في القرآن في أربع سور هي : (الأنعام)، و(الشعراء)، و(مريم)، و(فاطر).

لا سبيل إلى التغيير الآن في العالم العربي، إلا بتبني الخطوات التالية:

1- إنتاج الفكر النقدي، الذي يساعد على الانتقال من القطعي إلى المبرهن عليه، ومن المسلم به إلى المتناقش فيه، ومن القراءة العابرة للتاريخ إلى القراءة التاريخية للنص، لجعله في متناول العقل، ومتكيفا مع متطلبات الحياة الاجتماعية.

2- تبني القطيعة الجارحة مع التراث. فالحضارة الحديثة ابنة لثلاث

قطائع أورثت الوعي الأوروبي ثلاثة جروح نرجسية: اكتشاف جاليلو لكروية الأرض، وداروين لنظرية التطور وفرويد للاشعور. وهكذا لم تعد الأرض مركز الكون، ولا الانان مركز الكائنات، ولا العقل سيد بيته، بل اتضح أنه محكوم باللاعقل؛ أي اللاشعور. والتراث الديني يلعب دور الباغي الذي يردع ورثته عن التنصل منه ومن أوامره ونواهيه. كما أن التثبت العصابي في هذا التراث - كما تفعل الأصولية والسلفية - يغذي النرجسية الجمعية والمركزية إلاثنية بوتائر عالية مما يجعلها تلعب دور العائق الذهني، كما يقول العفيف الأخضر.
3- كسر المحرمات الغبية التي يحكم بها الأموات الأحياء، لأن المثقف تعريفا هو مع الحداثة وضد القدامة، ومع العقل ضد النقل، ومع التجديد ضد التقليد، ومع الديمقراطية ضد التوتاليتارية، ومع حرية المرأة ضد استعبادها.

* اقترنت صورة الإنسان العربي في أذهان الغرب منذ اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر بالإرهاب، وحصل ذلك على خلفية أعمال العنف التي تلجأ إليها جماعات إرهابية من حين لآخر، والتي تستند فيها على مرتكز ديني عقائدي، هل هناك في نظركم ما يسوغ أعمال العنف في الإسلام ؟
- ليس هناك ما يسوغ أعمال العنف في الإسلام.
والعرب لم يعودوا مسلمين الآن.
ولا علاقة للعرب وإرهابهم اليوم بالإسلام الصحيح.
أصبح العرب اليوم بلا دين.
فلا دين للعرب.
والعرب أصبحوا اليوم غير موحدين، وغير مؤمنين بالله أيمانا صادقا

ولا يغرنك هذا العدد الضخم من المساجد، وهذا العدد الضخم من المصلين والحجاج في العالم العربي. فهذه طقوس اعتاد عليها العرب في الجاهلية الأولى، وهم الآن يعيشون الجاهلية الثانية. فالعرب لا يشكلون غير 19% من مسلمي العالم، ومع ذلك فهم الذين أقاموا العالم ولم يقعدوه على رأس الإسلام بتصرفاتهم الدموية وبعنفهم الموروث عن عصبيتهم، وليس عن دينهم. هذا العنف الذي لا يمت إلى أي دين من الأديان بصلة.
بعض الأمم الإسلامية الأخرى من غير العرب، فصلت الدين عن الدولة، واتجهت نحو الديمقراطية، وطلبت (تركيا) منذ نصف قرن الانضمام إلى العالم المتحضر (الاتحاد الأوروبي) والحضارة الغربية، وأعطت المرأة حقوقها العامة، وولتها الرئاسة والسياسة، ولم يلعنها الـلـه، لأنها ولت أمرها امرأة، كما في تركيا وإندونيسيا والباكستان وبنغلادش وماليزيا وغيرها.
وإيران وأفغانستان ستكونان على هذا الطريق قريبا بعد أن جرب الشعب الإيراني حكم الملالي، وجرب الشعب الأفغاني حكم طالبان الثيوقراطيين، ومن والاهم من العربان الغربان.
العرب أصبحوا بحاجة إلى نبي جديد يجدد دين هذه الأمة.
فعندما قرر الإسلام أن يكون النبي محمد خاتم الانبياء والمرسلين لم يكن يعتقد أن العرب سوف يبلغون في نهاية القرن العشرين الدرك الأسفل، ويردون في يوم ما إلى الجاهلية كما هم عليها الآن.
فالعرب فقط هم الذين فقدوا أصول دينهم وروحه من بين شعوب العالم، ولم يبق منه لديهم غير هذه الطقوس والشعائر التي يؤدونها دون معنى، ودون إدراك، ودون فهم، أو وعي.
العرب اليوم، بحاجة إلى نبي جديد يجدد لهم هذا الدين، وينقذه من براثن التعصب والعنف والإرهاب وهيمنة المفتين المرتزقة.
دين العرب الإسلامي فقط وليس الإسلام كله، بحاجة إلى نبي

جديد لكي يجدده، ويرد العرب إلى الإسلام المخطوف والمزور والمركوب، بعد أن أصبح العرب الآن وثنيين في معظمهم، يعبدون الطواطم والأصنام الجديدة من دون الـلـه، من أمثال ابن لادن والترابي والغنوشي والقرضاوي والزرقاوي والصدر وغيرهم.

بل إن أصنام الجاهلية كانت أكثر فائدة من هذه الأصنام. فأصنام الجاهلية كانت تأتي للعرب بالرزق الوافر من التجارة الناشطة والسياحة الدينية المزدهرة في ذلك الوقت. أما أصنام اليوم فلم تجلب للعرب غير الدمار والعار وكثرة الغبار وقلة المزار.

* هناك رأي يقول إن الغرب لم يسع أبدا بشكل جدي وموضوعي إلى فهم الآخر، وأن فهمه للآخر اعتمد فقط على تمثلات وصور مشوهة استقاها غالبا من وسائل الإعلام ومن كتابات بعض المستشرقين والرحالة الغربيين، هل تعدون هذا الرأي صحيحا، وألا يتحمل العرب مسؤوليتهم في ذلك على اعتبار أنهم قصروا في نقل الصورة المناسبة التي تتوافق مع واقعهم، وغيبوا جانب التواصل الحقيقي مع الغرب؟

- نحن لم نفهم أنفسنا قبل أن ندع الغرب يفهمنا.

من من العرب الآن، يفهم نفسه فهما سليما، لكي يدع غيره يفهمه فهما سليما أيضا؟

الجانب المظلم من الاستشراق (وما أكثر المضيء منه) ساعد على عدم فهمنا من قبل الغرب، وهو جانب محدود ومتعصب وضيق الأفق وقليل المعرفة. ولكن المسؤولية الكبرى في عدم فهم أنفسنا وفي عدم فهم الغرب لنا تقع علينا نحن الذين أقمنا قطيعة معرفية وثقافية وسياسية واقتصادية مع الغرب. وأصبحنا نخاطب الغرب من الكهوف والجحور، ومن وراء متاريس الجهل والأمية والبطالة والفساد السياسي والمالي والإخفاق العلمي والعسكري.

فكيف نريد للغرب أن يفهمنا جيدا ويعرفنا جيدا من وراء ستار حديدي أقمناه بأنفسنا لأنفسنا عندما سجنا أنفسنا في زنزانة الماضي ذات قضبان من عظام الأسلاف، وهي أشبه بالستار الذي كان يقيمه الاتحاد السوفياتي لنفسه بنفسه ثم انهار انهيار برج البسكويت. إن ستارنا الحديدي الذي أقمناه بأنفسنا هو العداء للآخر، وتكفير الآخر، واعتبار الآخر (دار حرب)علينا الجهاد ضده، وضد قيمه الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية. في حين أن الجهاد، كما قال محمد سعيد العشماوي في مجلة (روز اليوسف)قد انتهى بموت الرسول، إذ لا جهاد بعد الرسول، وأن الجهاد بعد الرسول كما قال الشيخ جمال البنا في (الأحداث المغربية)هو جهاد مع النفس.

* هل فتح قنوات تواصل حقيقي بين الغرب والشرق يعد كافيا لتحقيق التفاهم بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط ، وهل يكفي الحوار بين الأديان أو بين الحضارات لإعادة الثقة بين الغرب والشرق وتحسين صورة العربي عند الغربيين ؟

- على العربي أن يحسن صورته في الداخل أولا، قبل أن يحسنها في الخارج.

كيف نريد أن تبدو صورتنا ناصعة البياض في الخارج، وهي صورة كالحة السواد في الداخل؟ وقبل أن نتفاهم ونتواصل مع الغرب، علينا أن نتفاهم ونتواصل مع أنفسنا. وهذا التواصل لن يتم إلا بتبني الفكر النقدي وليس الفكر الاجتراري، كما لن يتم إلا بالقطيعة مع الماضي والكف عن البكاء عما فات ومات، وسلوك درب العقلانية الذي لن يتأتى إلا إذا أزلنا عن ثقافتنا سيطرة اللاهوت عن الذهنيات خاصة التقليدية، وإلا إذا قمنا بترجمة سائر التراث العقلاني الغربي، بما فيه الكتابات المتعلقة بتاريخ الأديان

التي تمثل رافدا قويا للفكر العقلاني. كما أن عقلنة التعليم، وخاصة التعليم الديني، بإدخال علوم الحداثة إليه، وخاصة سوسيولوجيا الأديان وتاريخ الديانات المقارن والتحليل النفسي والألسنية. فإذا حسنت صورتنا بعد ذلك أمام أنفسنا فسوف تتحسن صورتنا أمام الآخر بالتأكيد. والإعلام العربي الغبي لن يستطيع أن يفعل شيئا لوجه العربي القبيح في المرآة الغربية، ولو صرفت البلايين من أجل ذلك. فماذا تفعل (الماشطة) بالوجه القبيح؟!

والحوار بين الشرق والغرب يجب أن يتم ليس عبر الأديان ولكن عبر الأفكار. فنحن لا نعترف بأديان الآخرين، بل نكفرهم ونعاديهم. يقول الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي السعودية السابق في (مجموع فتاوى ابن باز ج2، ص 178): (فقد دل الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وأن يحذروا مودتهم واتخاذهم أولياء، والآيات في هذا المعنى كثيرة وتدل دلالة صريحة على وجوب بغض الكفار من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وعلى وجوب معاداتهم، وتدل أيضا على تحريم مودتهم). ويرى يوسف القرضاوي في كتابه (الإسلام والعلمانية ص 76، 77) (أن العلمانيين يتسامحون مع غير المسلمين، وهذا من كفرهم). ثم يؤكد: (إن المسلم إذا فرضت عليه العلمانية فقد فرض عليه أن يتحلل من دينه.. لأنه لا يستطيع أن يوالي أو يعادي على أساس العقيدة، لأن العلمانية ترفض العقيدة أساسا للولاء والانتماء).

إذن، لا حوار أديان حقيقيا وصادقا في القرن الحادي والعشرين. هناك فقط حوار أفكار فيما لو وجد. فالغرب لا يسيره الدين لكي نتحاور معه عبر الدين. الغرب عبارة عن حزمة أفكار سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية لا علاقة لها بالدين، في عالم فصل بين الدين والدنيا منذ قرون. ونحن العرب لا يسيرنا الدين أيضا، ولا تسيرنا الأفكار

كذلك. غرائزنا وجروحنا النرجسية المنحدرة من هزائمنا أمام الغرب واسرائيل أو الآتية من تربية أسرية قاسية، هي التي تسيرنا فقط، وعلينا أن نجعل الأفكار هي التي تسيرنا لكي نستطيع أن نجلس على مائدة واحدة مع العالم.
إن تلاقح الإسلام العربي - وليس العالمي - مع الأديان الأخرى أصبح اليوم مستحيلا بعد أن أصيب اليوم دعاة النرجسية الدينية العرب برهاب تلاقح الإسلام مع الديانات والثقافات الأخرى. رغم أن الإسلام بدا في عصر الفتوحات مستلهما ثقافات الشعوب التي فتحها، مقدما ثقافة عالمية، لا ترتبط بنـزعة قومية أو وطنية. فرغم أنه بدأ عربيا إلا أنه انتهى كونيا، ليس بحكم بدايته، ولكن بحكم تشكله التفاعلي مع حضارات مختلفة كليا، كما قال عبد الهادي عبد الرحمن في كتابه (سلطة النص: قراءات في توظيف النص الديني).

* هناك، في العالم العربي والإسلامي، من يبرر الأعمال الإرهابية التي تنفذها جماعات متطرفة بتحيز الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل، والظلم الذي يتعرض له الفلسطينيون في ظل الاحتلال الإسرائيلي وتعثر مفاوضات السلام في الشرق الأوسط... وهو ما يؤدي إلى الإرهاب والرغبة في مواجهة الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية بالعنف، ما رأيكم في هذا الطرح؟
- الإرهاب العربي - وليس الإسلامي - اليوم لا علاقة كبيرة له بسياسة أمريكا تجاه إسرائيل، ولا علاقة كبيرة له بالظلم الذي يحيق بالفلسطينيين من قبل إسرائيل. فالعلاقة الأمريكية-الاسرائيلية قائمة منذ خمسين عاما، والظلم الواقع على الفلسطينيين من قبل إسرائيل قائم منذ أكثر من نصف قرن.
فما معنى أن ينفجر الإرهاب الآن على هذا النحو المدمر؟

إن الأسباب العقلانية للإرهاب تعود إلى :

1- احتكار الحكم في فئة واحدة، أو حزب واحد، أو قبيلة واحدة، أو عائلة واحدة. وهذه قاعدة سياسية مشينا عليها نحن العرب منذ أكثر من 1400 سنة عندما قال الرسول: (الأئمة من قريش)و (الأئمة منا أهل البيت). فحكمتنا قريش القبيلة وحدها أكثر من ستة قرون (632-1258م) عبر الخلفاء الراشدين، وعبر الأمويين والعباسيين، وما زلنا محكومين للعائلات الواحدة حتى الآن.

2- ماضينا الممتد في حاضرنا، كما قلنا قبل قليل في ردنا على سؤال سابق. فجاءت أسباب الإرهاب من انتصار الاتباع على الابداع، وانتصار الرواية على الدراية في تراثنا الأدبي والفقهي، وانتصار جهاد الآخر على جهاد النفس العدوانية، ومن هذه الثقافة العنيفة التي تقطر دما من تقاليد الحروب والمشاحنات القبلية والطائفية وبطش السلطات الغاشمة قديما وحديثا

3- لا شك أن التعليم الديني الظلامي قد لعب دورا كبيرا في هذه الأسباب، فغسل أدمغة التلامذة والطلبة يوميا بالهوس بالماضي، وبالنرجسية الدينية، وبعداء المرأة، وغير المسلم، والعقل، والحداثة لعب دورا آخر. فتلامذة الأزهر في السنوات الثلاث الأخيرة من التعليم الثانوي يدرسون كتاب (الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع)تأليف الشربيني المتوفى سنة 550 هـ. فماذا يقرأون فيه؟

يقرأون فيه: (أن قتل تارك الصلاة عمدا قياسا على المرتد، وقتل تارك الصلاة كسلا حدا لا كفرا).

ورغم هذا فهناك من المثقفين وكتبة الصحف يروجون لمزيد من التعليم الظلامي الديني. ففهمي هويدي (الخبير الدولي بالاستراتيجيات الإسلاموية، والمحلل السياسي الرسمي لجماعة الإخوان المسلمين) مثالا لا حصرا، يروج للتعليم الديني الظلامي بقوله، بأن فتاوى إهدار الدماء لا

تصدر إلا عن شبان لم تساعدهم دراستهم على التعمق في الدين. والخلاصة أن المناهج الدينية التي لا تسمح لطلبتها بالدراسة الكافية للدين هي المسؤولة عن الإرهاب. وإذا كنتم تريدون التخلص من العنف الديني، ضاعفوا ساعات التعليم الديني!

والسؤال الآن:

هل عمر عبد الرحمن، الحاصل على دكتوراه في علوم الشريعة من الأزهر، والذي أفتى بتكفير المطرب محمد عبد الوهاب وقتل فرج فوده ونجيب محفوظ والسادات، وتفجير مركز التجارة العالمي، والمحكوم عليه بالمؤبد من جراء الإرهاب، ينقصه التعمق في الدين حسب رأي هويدي؟

وهل الشيخ القرضاوي، الحاصل على دكتوراه في علوم الشريعة من الأزهر، والذي أفتى بقتال وقتل الأمريكيين من عسكريين ومدنيين في العراق فقط، كان ينقصه التعمق في الدين حسب رأي هويدي؟

وهل أشياخ الأزهر، كالشيخ الدكتور عبد المعطي بيومي العميد الأسبق لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، والشيخ الدكتور صالح زيدان الأستاذ بجامعة الأزهر، والشيخ منصور الرفاعي، وكيل وزارة الأوقاف المصرية الأسبق، والذين أيدوا القرضاوي في فتواه تلك، كان ينقصهم التعمق في الدين حسب رأي هويدي؟

* بالإضافة إلى العوامل الخارجية التي سبق ذكرها، ألا ترون أن الأوضاع الداخلية للبلدان العربية : غياب الديمقراطيات، الفوارق الطبقية، الأزمات الاجتماعية المطبوعة بالفقر والبطالة على وجه الخصوص، تلعب دور المحرك للانخراط في أعمال العنف الموجهة نحو الخارج، وأن معالجة الأوضاع الداخلية للبلدان العربية من شأنه أن يخفف من موجة الإرهاب اللصيقة بالعرب؟

- لا شك أن هذه الأسباب ساعدت على انتشار الإرهاب. ولكنها

ليست الأسباب الرئيسية. غياب الديمقراطية بالدرجة الأولى ساعد كثيرا على انتشار العنف والإرهاب. فوظيفة الديمقراطية في أي مكان هو إقامة الحواجز والموانع ضد العنف. لأن للديمقراطية مسارب لإبداء الرأي والرأي الآخر. في المجتمعات الديكتاتورية لا يوجد طريق للتعبير عن الرأي والرأي الآخر غير العنف. والحركات الشعبوية والإرهابية لا تظهر ولا تمثل خطرا على المجتمع إلا عندما تخنق الحريات وتتعطل الاستحقاقات الديمقراطية. وهناك علاقة عكسية بين الديمقراطية والإرهاب. كلما نقص من الأولى زاد في الثانية، وكلما زاد في الثانية فمعناها نقصان في الأولى.

أما الفقر والبطالة فلا علاقة كبيرة لهما بالإرهاب. في بعض دول آسيا، كالفلبين مثلا، نرى فقرا وبطالة أكثر مما هو في العالم، فلم ينتشر الإرهاب إلا في صفوف المسلمين الفلبينيين فقط (جماعة أبو سياف) من مؤيدي تنظيم (القاعدة)ومن متلقي البترودولار، وذلك بفضل التعليم الديني الظلامي. وفي بعض دول أمريكا اللاتينية هناك فقر وبطالة أكثر مما في العالم العربي، ورغم ذلك لم ينتشر الإرهاب كما انتشر في العالم العربي. في أفريقيا هناك جوع قاتل وبطالة هائلة، ورغم ذلك اتجه الأفارقة إلى الغابات لكي يأكلوا لحوم الطرائد، أما نحن فقد اتجهنا إلى المدن العامرة لكي نأكل لحوم الخلائق.

في رأيي المتواضع، أن التعليم الديني الظلامي، الذي ورثناه عن العثمانيين، الذين حكمونا أربعمائة عام (1517-1918) وما زالوا يحكموننا حتى الآن من قبورهم، فما زال السلطان عبد الحميد الثاني (السلطان الأحمر) (1842-1918) يحكم معظم العالم العربي بأساليبه الدموية من قبره، والإعلام المزيف الخادع الخاضع للتبعية السياسية والدينية الكاملة، والثقافة المزورة المسيرة بأمر السلطان والسلطات، وهي ثقافة تبريرية لا نقدية، هم المسؤولون الكبار عن انتشار الإرهاب في العالم العربي بهذه الصورة المفزعة الآن.

* هل تعتقدون أن الدول العربية أخذت الدرس من الأحداث التي عرفتها الساحة السياسية العربية في السنين الأخيرة: الحرب في أفغانستان، الحرب في العراق... من حيث مراجعة الذات والاعتراف بأخطائها، ومعالجة الاختلالات القائمة في مجتمعاتها، وتحقيق الإقلاع الاقتصادي والسياسي وترسيخ الديمقراطية، والالتحاق بالحداثة والانخراط في العالم المتحضر والتصالح مع الآخر ؟

- الدول العربية تلميذ فاشل وخائب في مدرسة البلهاء والغوغاء والدهماء السياسية.

الدول العربية، منذ أكثر من نصف قرن، لم تتعلم إلى الآن الدرس الفلسطيني، وما زالت تقرأ التاريخ الفلسطيني في صفحة عام 1948، رغم أن القضية الفلسطينية لم تعد قضية عام 1948، ولا عام 1956، ولا عام 1967، ولا عام 1973، ولا عام 1993 (اتفاقية أوسلو). ولكن ما زال العرب في الدرس الأول، وفي الصفحة الأولى لهذه القضية، ولم يحفظوا درسها بعد، ولم يستوعبوه. وهم لم يتخطوا بعد درس حروف الهجاء الفلسطينية. في حين أن القضية تغيرت، وتشعبت، وتطورت، ودخلت عليها معادلات إقليمية ودولية، لا أول لها ولا آخر.

فكيف نطالب الدول العربية الآن أن تأخذ الدرس والعبرة من أفغانستان والعراق، وهما درسان قاسيان وصعبان ومستعصيان على الفهم العربي السياسي المحدود والطفولي الغرائزي؟ أفغانستان تحررت، والانتخابات الرئاسية تحققت لأول مرة في تاريخ أفغانستان منذ خمسة آلاف سنة. وكان فيها 17 متنافسا على مقعد الرئاسة بينهم امرأة. ونحن العرب ما زلنا نعدل مواد الدساتير التي هي (بساطير) مهترئة في أقدام الديكتاتورية العربية من أجل التمديد والتجديد وبقاء الوعد والوعيد، وننتخب قسرا وقهرا وزورا وجورا الرئيس

الذي لا منافس له للمرة الخامسة والسادسة والسابعة وإلى يوم الحساب، ليتجاوز حكمه للبلاد عشرين عاما وأكثر، ولا يترك القصر إلا إلى القبر، عملا بالتقليد السياسي العربي المعروف من أيام معاوية بن أبي سفيان حتى الآن :
(لا طريق لولي الأمر، إلا أن يبدأ بالقصر وينتهي بالقبر).
فأي الدروس تلك التي استفدنا منها.
إن مشكلتنا أننا طلاب خائبون وفاشلون وبلهاء في مدرسة السياسة العربية الغوغائية، التي يدرس فيها مدرسون من دهماء الشارع. ولا ينفع معنا الآن إلا الضرب بالعصا الغليظة حتى نتعلم التحلي بالخلق السياسي أولا ، ثم نتعلم علم السياسة. وهذا ما حصل في اليابان في 1945 عندما ضربت بعصا نووية غليظة، فتعلمت، وعادت إلى رشدها بعد غيها العسكري. وهذا ما حصل في العراق بعد الغي الديكتاتوري، وسيحصل في بلدان عربية أخرى في المستقبل القريب. فالعراق هو البداية ولن يكون النهاية رغم التكلفة البشرية والمادية العالية. فثمن الحرية لم يكن يوما ما ثمنا رخيصا وتافها لقد دفعت أوروبا أكثر من عشرة ملايين ضحية ثمنا لحرياتها من الديكتاتورية النازية والفاشية. ودفعت اليابان وحدها في عام 1945 أكثر من مليون ضحية ثمنا لتحررها من الديكتاتورية العسكرية، التي جلبت عليها المصائب والويلات والدمار.
فماذا دفعنا نحن حتى الآن؟
ما زلنا لم نضح حتى الآن بالثمين، الذي ضحت به شعوب الأرض.

* ألا ترون أن التوظيف المأساوي والمؤلم للدين في مواجهة الآخر، يزيد من محنة الإنسان العربي والمسلم ويرسخ عزلته في العالم؟
- لا شك في ذلك. فعندما كان الإسلام في العصر العباسي في القرن التاسع الميلادي منارة العالم، كان توظيف الإسلام في ذلك الوقت

توظيفا حضاريا وإنسانيا، وذلك بالانفتاح على الآخر والتلاقح مع ثقافاته وحضارته. إن تضييق الفجوة الهائلة بين الوعي التقليدي الإسلامي والوعي الكوني الحديث يتطلب تأطير هذا التلاقح بوعي لتكثيفه وتسريع وتائره. فبين الوعي الإسلامي الماضوي والوعي الديني المعاصر المتصالح مع قيم العقل سنوات ضوئية.

وعزلة المسلمين العرب فقط - المسلمون من غير العرب منفتحون على العالم الآن بما فيهم أفغانستان الآن، التي سبقت دولاس إسلامية كثيرة الآن إلى الحداثة السياسية والثقافية والاقتصادية- عن العالم سوف تزيد من مأساتهم في الفضاء الدولي والفضاء السياسي والثقافي والاقتصادي العالمي. ولا يغرنك اهتمام الغرب بنا وعدم اهماله لنا الآن، ومحاولته كسر عزلتنا التي فرضناها نحن على أنفسنا ولم يعزلنا الآخرون عن العالم، فالعالم مقبل علينا ونحن مدبرون عنه، فذلك مرده ليس إلى ما في رؤوسنا من عقل ناضج وعلم مفيد، ولكن إلى ما تحت أرضنا من ثروات.

كتب للمؤلف

في نقد الشعر:

1- فدوى تشتبك مع الشعر (دراسة في شعر فدوى طوقان) 1963.

2- رغيف النار والحنطة (دراسة في الشعر العربي الحديث) 1986.

3- الضوء واللعبة (دراسة في شعر نزار قباني) 1986.

4- مجنون التراب (دراسة في شعر محمود درويش) 1987.

5- نبت الصمت (دراسة في الشعر السعودي الحديث) 1992.

6- قامات النخيل (دراسة في شعر سعدي يوسف) 1992.

في نقد الرواية:

7- مذهب للسيف ومذهب للحب (دراسة في أدب نجيب محفوظ) 1985.

8- فض ذاكرة امرأة (دراسة في أدب غادة السمان) 1990.

9- مدار الصحراء (دراسة في أدب عبد الرحمن منيف) 1991.

10- مباهج الحرية في الرواية العربية (دراسة لعشرة روائيين عرب) 1992.

11-جماليات المكان في الرواية(دراسة في أدب غالب هلسا) 1994.

12- الرواية الأردنية وموقعها من خارطة الرواية العربية، (مع آخرين) 1994.

في نقد القصة القصيرة:

13- النهايات المفتوحة (دراسة في أدب انطون تشيكوف) 1963.

14- المسافة بين السيف والعنق (دراسة في القصة السعودية) 1985.

في نقد الموسيقا:
15- الأغاني في المغاني- جزآن (السيرة الفنية للشيخ إمام عيسى) 1998.

في نقد الفن التشكيلي:
16- أكله الذئب (السيرة الفنية للرسام ناجي العلي) 1999.

في نقد الثقافة:
17- الزمن المالح (أوراق في جدلية السياسة والثقافة العربية) 1986.
18- الثقافة الثالثة (أوراق في التجربة الثقافية اليابانية) 1988.
19- النهر شرقا (دراسة في الثقافة الأردنية المعاصرة) 1993.
20- عصر التكايا والرعايا (المشهد الثقافي لبلاد الشام في العهد العثماني) 1999.
21- هاملت عربي (مع آخرين) (أوراق في ذكرى مؤنس الرزاز) 2003 .

في نقد الفكر:
22- الرجم بالكلمات (دراسة لمجموعة من المفكرين العرب المعاصرين) 1989.
23- ثورة التراث (دراسة في فكر خالد محمد خالد) 1991.
24- الفكر العربي في القرن العشرين 1950-2000، (ثلاثة أجزاء) 2001.

في نقد السياسة:
25- النار تمشي على الأرض (شهادات في الحياة العربية) 1985.
26- قطار التسوية (دراسة لكافة مبادرات التسوية الفلسطينية) 1986.

27- محاولة للخروج من اللون الأبيض (أوراق في السياسة العربية) 1986.
28- وسادة الثلج (العرب والسياسة الأمريكية) 1987.
29- السلطان (دليل السياسة لحفظ الرئاسة) 2000.
30- الشارع العربي (دراسة سياسية تاريخية) 2003.
31- صعود المجتمع العسكري العربي (مصر وبلاد الشام) 2003.
32- زوايا حرجة في السياسة والثقافة 2004.
33- الزلزال (أوراق في غزو العراق) 2005.
34- أسئلة الحمقى (في السياسة والإسلام السياسي) 2005.

في نقد التاريخ:
35- المال والهلال (الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام) 2002.
36- ما حال العرب الآن لو لم يظهر الإسلام؟ 2002.

في نقد التربية:
37- الطائر الخشبي (شهادات في سقوط التربية العربية) 1988.

في نقد التنمية:
38- سعودية الغد الممكن (بحث استشرافي تنموي) 1985.
39- طلق الرمل (أوراق في التنمية والثقافة الخليجية) 1988.

في ترجمة النقد:
40- سارتر المفكر العقلي الرومانسي، 1964.
41- دراسات في المسرح الفرنسي، 1964.

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

QUESTIONS OF THE FOOL: ON POLITICAL ISLAM

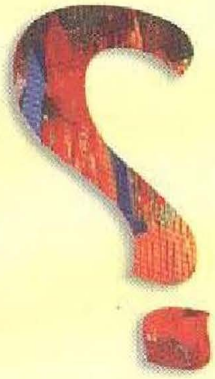

أسئلة الحمقى

في السياسة والإسلام السياسي

أسئلة الحمقى في هذا الكتاب هي من بين أهم الأسئلة التي طرحها العرب على أنفسهم في زمن الزلازل السياسية التي اجتاحت العالم العربي في فترة السنوات الأربع الماضية. والإجابة عنها كانت تستدعي الصراحة والشجاعة والموضوعية، والتي نأمل أن تكون قد توافرت في هذا الكتاب، ولو في حدها الأدنى.

لا شك أن هذه الأسئلة هي أسئلة الواقع العربي، والحال العربي، والمصير العربي. والإجابة عليها هنا إجابة اجتهادية لا قَطْعَ فيها، وليست القول الفصل. وما هي إلا وسيلة لتشغيل ذهن القارئ، وانتشاله من رقاده الطويل، ودفعه إلى البحث عن إجابات أخرى خارج هذا الكتاب. ولو نجحنا في ذلك لكنا قد حققنا ما نطمح إليه، وهو تحفيز القارئ للبحث عن الحقيقة أياً كانت، وفي أي زمان ومكان، تحقيقاً للعلم والعرفان.

شاكر النابلسي

ISBN 9953-36-708-6

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنائع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكتاب، هاتفاكس: ٧٥٢٣٠٨/٧٥١٤٣٨